الأخلاق الإسلامية

سلسلة المعارف التعليمية

روح العبادة

الآداب المعنوية للعبادات

دار المعارف الإسلامية الثقافية

سلسلة المعارف التعليمية

روح العبادة

الآداب المعنوية للعبادات

اسـم الكـتاب:	روح العبادة
إعـــــــداد:	مركز المعارف للتأليف والتحقيق
نـشـــــــر:	دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2017م – 1438هـ

سلسلة المعارف التعليمية

روح العبادة

الآداب المعنوية للعبادات

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 11

الدرس الأوّل: ماهيّة العبادة وآثارها 15

معنى العبادة 17

مفهوم العبادة في الإسلام 18

العبادة في القرآن والسنة 19

أهمية العبادة في حياة الإنسان 21

آثار العبادة على الصعيدين الفردي والاجتماعي 22

الدرس الثاني: منشأ العبادة 29

أسئلة مشروعة حول العبادة ولزومها 31

الحقائق الإلهية التي توجب عبادة الله 32

حقيقة الإنسان توجب عبادة الله تعالى 37

الدرس الثالث: العبودية المطلقة لله هي الهدف 43

تمهيد 45

ما هي العبودية؟ 45

العلاقة بين العبادة والعبودية 46

أنواع العبودية 47

العبودية المطلقة هي الهدف من خلق الإنسان 50

كمال الإنسان في العبودية لله 51
الدرس الرابع: النية والإخلاص في العبادة 57
ما هي النيّة؟ 59
أهمية النيّة وموقعيتها في الإسلام 59
ما هو الإخلاص ومن هو المخلص؟ 62
آثار الإخلاص 64
كيف يتحقّق الإخلاص؟ 66
الدرس الخامس: العبادات أنواعها وشروطها 71
أنواع العبادات في الإسلام 73
أحكام العبادات وآدابها 73
أهميّة التعرّف إلى الآداب المعنوية للعبادات 75
نبذة من عبادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام 76
الدرس السادس: حقيقة الصلاة وأنواعها 85
حقيقة الصلاة وأهميتها 87
فضل وأهمية الصلاة في القرآن والسنة 89
النوافل 91
أهمية النوافل 92
آثار النوافل وفوائدها 93
أهمية صلاة الليل 93
فضل صلاة الليل وآثارها 95
أسباب الحرمان من صلاة الليل 96
الدرس السابع: الآداب المعنوية العامة للصلاة (1) 101
مقدمة 103

المحافظة على الصلاة من تصرّف الشيطان 104
كيف يسلم الغذاء الروحي من التصرّفات الشيطانية وأهواء النفس الأمّارة؟.... 105
التوجّه إلى عز الربوبية وذلّ العبودية 106
أهمية التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية 106
الخشوع 108
كيفية تحصيل الخشوع 109
خطوات تحصيل الخشوع 110
الدرس الثامن: الآداب المعنوية العامة للصلاة (2) 115
أدب الطمأنينة 117
النشاط والبهجة في العبادة 119
النشاط والبهجة في الكتاب والسنة 120
التفهيم 122
ولكن كيف يتمّ ذلك؟ 122
الدرس التاسع: حضور القلب في العبادة 129
معنى حضور القلب 131
أهمّية حضور القلب في الروايات 132
نتائج حضور القلب وآثارi 133
موانع حضور القلب 134
كيفية تحصيل حضور القلب 136
الدرس العاشر: الآداب المعنوية للطهارة 145
الطهارة في القرآن الكريم 147
مراتب الطهارة 149
الآداب المعنوية للتوجّه إلى الماء 151

الآداب المعنوية للوضوء 154
الدرس الحادي عشر: الآداب المعنوية للّباس والوقت والقِبلة 161
اللباس وتأثيره المعنوي على النفس 163
اللباس وطهارته الظاهرية والباطنية 165
مراتب طهارة اللباس الباطني 166
الآداب القلبية للستر واللباس 167
آداب وقت الصلاة 168
آداب استقبال القبلة 170
الدرس الثاني عشر: أفعال الصلاة وآدابها المعنوية 175
حقيقة أفعال الصلاة 177
قوام الصلاة 178
سرّ القيام وآدابه 179
آداب الركوع 181
أسرار السجود وآدابه 183
الدرس الثالث عشر: آداب القرآن الكريم المعنوية 191
دور القرآن في تحقيق العبودية 193
الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم 195
الدرس الرابع عشر: الدعاء جوهرة العبادة 207
الدعاء وموقعه من العبادة 209
أهمية الدعاء 211
فوائد وآثار الدعاء 213
استجابة الدعاء 216

الدرس الخامس عشر: آداب الدعاء وشروطه 223
موانع استجابة الدعاء 225
الآداب المعنويّة للدعاء 227
الدرس السادس عشر: التوسّل والزيارة 239
معنى التوسّل وحقيقته 241
مفردات مرادفة للتوسّل 242
لماذا التوسّل؟ 243
أقسام التوسُّل 244
آداب التوسّل 245
زيارة المعصومين عليهم السلام وفضلها 246
الهدف من الزيارة 246
فوائد وآثار زيارة المعصومين عليهم السلام 247
الآداب المعنوية للزيارة 249
الدرس السابع عشر: الآداب المعنوية للصوم 255
حقيقة الصوم 257
غاية الصوم 258
فوائد وآثار الصوم 259
الآداب المعنوية للصوم 263
الدرس الثامن عشر: الحج وأبعاده المعنوية 271
الحج لغةً واصطلاحاً 273
حقيقة الحج 273
أبعاد الحج 275
الآثار المعنوية للحج 276
الآداب المعنوية للحجّ 278

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين، وبعد...

روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسر أم يسر**»[1].

العبادة في الإسلام اسم يطلق على كلّ ما يصدر من الإنسان المسلم من أقوال وأفعال وأحاسيس، استجابةً لأمر الله تعالى، وتطابقاً مع إرادته ومشيئته. فلا حصر ولا تحديد لنوع الأعمال أو الأفكار أو الأقوال، التي يعبد بها الله... فالصلاة، والصدقة، والجهاد، والتفكّر في خلق الله، ومساعدة الضعيف، وإصلاح الفاسد، وأداء الأمانة، والعدل بين الناس، ورفض الظلم... فكلّ تلك الأعمال هي عبادة، ما دام الداعي إلى فعلها هو الاستجابة لأمر الله تعالى. وقد جاء في الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، ما يوضِّح هذا المفهوم الإسلامي، ويشخِّص أبعاده الواسعة الشاملة: فمنها، بل أفضلها طلب الحلال، ومنها نظر الولد إلى والديه حبّاً لهما، ومنها عفّة البطن والفرج، ومنها العلم بالله، والتواضع له، ومنها التفكّر في أمر الله.

وإذا دقّقنا في معنى العبادة الخاصّ، نجد بأنّ أصل معنى العبادة مأخوذ من الذلّ، يُقال: طريق معبّدٌ، إذا كان مذلّلاً قد وطئته الأقدام. غير أنّ العبادة في الشرع لا تقتصر

(1) الشيخ الكليني، محمّد بن يعقوب: الكافي، ج 2، ص 83، تحقيق وتصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية – طهران، مطبعة الحيدري، 1365 ش، ط 4، باب العبادة، ح 3.

على معنى الذلّ فقط، بل تشمل معنى الحبّ أيضاً، فهي تتضمّن غاية الذلّ لله وغاية المحبّة له، فيجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كلّ شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كلّ شيء، عن الإمام علي عليه السلام قال: «**إذا أحبّ الله عبداً، ألهمه حسن العبادة**»[1].

إلّا أنّ هذه اللفظة (لفظة العبادة) لها استعمال خاصّ عند الفقهاء، فقد أطلقوها بشكل اصطلاحي على العبادات المحدّدة في الفقه بصورة خاصّة، والتي تحتاج إلى نيّة القربة إلى الله تعالى، كالصوم، والصلاة، والحجّ، والزّكاة، والخُمس، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدُّعاء...

ولا يخفى أنّ العبادة روحٌ ولبٌّ وعلاقة تواصل بين العبد وربّه، سبحانه، فإذا اقتصرت العبادة على الحركات، وتخلّف عنها لبّها وجوهرها من الخشوع والخضوع لله، والذلّ والانكسار بين يديه، كان العبد مؤدّياً لصورة العبادة لا لحقيقتها، فشرود القلب وغفلته في آدائه للعبادة من أعظم الآفات التي تؤدّي لعدم قبول العمل. ولتجاوز هذا، ذكر العلماء أسباباً لبعث الروح في عباداتنا، منها:

- التفكّر بالله تعالى، وهي من أرقى الممارسات العبادية في الإسلام، وأكثرها قدرة على ربط الإنسان بخالقه وشدّه إليه.
- تحديث القلب وتذكيره بالتعبّد لله سبحانه، وأنّ سعادته في تحسين عبادته لربّه، والقيام لله بحقّه.
- التهيّؤ للعبادة والاستعداد لها، ويكون التهيّؤ لكلّ عبادة بحسبه، فالتهيّؤ للصلاة بالوضوء والحضور إلى المسجد مبكراً.
- الإقبال على العبادة بقلب فارغ من مشاغل الدنيا وملهياتها، والابتعاد عمّا يشوّش القلب أثناء العبادة، كالأصوات والزخارف ونحوها.

(1) الريشهري، محمّد: ميزان الحكمة، ج 1، ص 508، تحقيق ونشر وطبع دار الحديث، لا ط، باب ما يترتب على محبّة الله.

وينبغي أن نشير أخيراً بأنّ منهج العبادة في الإسلام منهج فطري ذو طبيعة اجتماعية حركية، لا يؤمن بالفصل بين الدُّنيا والآخرة، فهو لا يدعو إلى محاربة المطالب الجسدية من الطعام، والشراب، والزواج، والراحة، والاستمتاع بالطيِّبات، بدعوى أنّها تعارض التكامل الروحي والتقرّب من الله، بل وازن بمنهاجه موازنة تامّة بين الروح والجسد، ولم يفصل بينهما، لأنّ الإسلام لا يرى في مطالب الجسد حائلاً يقف في طريق تكامل الروح، أو عائقاً يعرقل تنامي الأخلاق، بل يؤمن بأنّ هدف الجسد والروح من حيث التكوين الفطري هدف واحد، ومنهاج تنظيمها وتكاملها منهاج واحد.

والحمد لله رب العالمين

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

الدرس الأوّل

ماهيّة العبادة وآثارها

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يحدّد معنى العبادة ومفهومها.

2 . يبيّن أهمّية العبادة في حياة الإنسان.

3 . يصف الآثار المختلفة للعبادة على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

معنى العبادة

1 - العبادة في اللغة:

معنى العبادةِ في اللغة الطاعةُ مع الخُضُوعِ، ومنه طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مذللًا بكثرة الوطءِ[1]. فالعبادة لغةً بمعنى التمهيد والتذليل. ويقال عبّدت فلاناً أي ذلّلته وإذا اتّخذته عبداً قال تعالى: ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[2][3]. وقال الزمخشري: العبادة: «أقصى غاية الخضوع والتذلّل، ولذلك لم تستعمل إلاّ في الخضوع لله تعالى لأنّه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع»[4].

2 - العبادة في الاصطلاح:

العبادة بحسب الاصطلاح هي المواظبة على فعل المأمور به، والفاعل عابد، والجمع عباد وعبدة مثل كافر وكفار وكفرة، ثم استعمل العابد فيمن اتخذ إلها غير الله، فقيل عابد الوثن وعابد الشمس[5].

3 - العبادة شرعاً:

لقد أخذت العبادة معنى أضيق في الفقه الإسلامي، وهي تعني في مفهوم الفقه أي بالمصطلح الخاص مجموعة شعائر يقوم بها العبد، مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس...

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص273، لا ت، نشر أدب الحوزة، 1405هـ لا ط، فصل العين المهملة.

(2) سورة الشعراء، الآية 22.

(3) السيد عادل العلوي، القول الرشيد في الاجتهاد والتقليد، ج1، ص47.

(4) الزمخشري، الكشاف، 1، ص 10، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1966م.

(5) الشيخ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، ج3، ص92، نشر مرتضوي، مطبعة چاپخانه طروات، ط 2، 1362ش.

وغيرها من الأحكام والتكاليف الشرعية. فالعبادة من الناحية الشرعية تعني امتثال أمر الله كما أمر، والانتهاء عما نهى عنه شرعاً.

مفهوم العبادة في الإسلام

العبادة في الحقيقة اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يحبّه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. وهي تتضمّن غاية الذلّ لله تعالى مع المحبة له. وهذا المدلول الشامل للعبادة في الإسلام هو مضمون دعوة الرسل عليهم السلام جميعاً، وهو ثابتٌ من ثوابت رسالاتهم عبر التاريخ، فما من نبيٍّ إلا أمر قومه بالعبادة، قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1].

فالعبادة في الإسلام بالمصطلح العام، اسمٌ يُطلق على كلّ ما يصدر عن الإنسان المسلم من أقوالٍ وأفعالٍ وأحاسيس استجابةً لأمر الله تعالى وتطابقاً مع إرادته ومشيئته.

ولا حصر ولا تحديد لنوع الأعمال أو الأفكار أو الأقوال، أو المشاعر التي يعبد بها الله. فالصلاة، والصدقة، والجهاد، والتفكّر في خلق الله، ومساعدة الضعيف، وإصلاح الفاسد، وأداء الأمانة، والعدل بين الناس، ورفض الظلم، وعدم شرب الخمر، ومقاطعة الربا والاحتكار...إلخ، كل تلك الأعمال هي عبادة ما دام الداعي إلى فعلها، أو تركها، هو الاستجابة لأمر الله تعالى.

وانطلاقاً من هذا التعريف الإسلامي لمفهوم العبادة، نعلم أن العبادة في الإسلام ليست محددة بمجموعة من التكاليف والأعمال، وإنما تتّسع لتشمل كل ما يصدر عن الإنسان بدافع القربة إلى الله والاستجابة لأمره، والانتهاء عن نهيه.

وعبادة الله تعالى لا تنحصر في الطقوس والممارسات التي تتعلق بحياة الإنسان كفردٍ مستقلٍّ بذاته، بل هي تشمل الحياة الفردية والحياة الاجتماعية، وتنتظم في إطار علاقة الفرد مع الله تعالى والعلاقة مع النفس، والعلاقة مع الآخرين، والعلاقة مع الكون. وكل عملٍ حسنٍ يُقصد به وجه الله تعالى فهو عبادة لله تعالى سواء كان فردياً أم اجتماعياً.

(1) سورة الأنبياء، الآية 25.

وما يعنينا في هذه الدروس هو البحث حول العبادات وبيان أسرارها التي ترتقي بالإنسان ليصبح في مرتبة تسمو فوق مراتب الملائكة المقرّبين كما ورد في الحديث القدسي: «... **وإنه (العبد) ليتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته**»[1].

العبادة في القرآن والسنة

دعا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى العبادة السليمة، ونهى عن العبادة المنحرفة، وذكر أن غاية الخلق هي العبادة، وذكر بعض آثار العبادة على الإنسان، وهنا نورد بعض هذه الآيات: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2]. ففي هذه الآية الكريمة نجد دعوة للناس إلى عبادة الله تعالى الذي خلق جميع الناس.

وفي آية أخرى نجد نهياً عن عبادة الشيطان: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

وكذلك نجد أمراً بالإخلاص في العبادة في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[4].

ونرى في آيةٍ أخرى دعوةً للمؤمنين لإعلان الثبات على عبادة الله وترك عبادة ما سواه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[5].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص352.
(2) سورة البقرة، الآية 21.
(3) سورة يس، الآيات 60-62.
(4) سورة الزمر، الآية 11.
(5) سورة الكافرون، الآيتان 1-2.

كما حدّدت النصوص الشريفة مفهوم العبادة تحديداً شاملاً، وذكرت الغاية من العبادة، وأنواع العابدين، ومن هو العابد حقاً، ولم تحصرها في إطار العبادات المتعارفة بين النّاس. وإليكم النماذج التالية:

عن رسول الله محمد ﷺ: «**أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسرٍ أم على يسرٍ**»[1].

وسُئل الإمام الرضا عليه السلام عن علّة العبادة فقال: «**... لئلا يكونوا ناسين لذكره ولا تاركين لأدبه، ولا لاهين عن أمره ونهيه، إذا كان فيه صلاحهم وقوامهم، فلو تركوا بغير تعبُّدٍ لطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ليس العبادة هي السجود ولا الركوع، إنما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده**»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**في التوراة مكتوب: يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي أملأ قلبك غنى**»[4].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**العبادة سبعة أجزاء أفضلها طلب الحلال**»[5].

وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «**أفضل العبادة عفّة البطن والفرج**»[6].

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أفضل العبادة العلم بالله، والتواضع له**»[7].

وجاء عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**ليس العبادة كثرة الصيام والصلاة، وإنما العبادة كثرة التفكّر في أمر الله**»[8].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص83.

(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص58، تحقيق يحيى العابدي، نشر مؤسّسة الوفاء – لبنان، 1983م، ط 2، باب علل الشرائع والأحكام.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص372.

(4) م. ن، ص83.

(5) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص37، تحقيق وتصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1404هـ ط 2، باب في قصارى كلمات النبي ﷺ.

(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص79.

(7) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص247.

(8) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص50.

أهمية العبادة في حياة الإنسان

يولي الذكر الحكيم العبادة أهميةً بالغةً كما ذكرنا وهي من الموضوعات التي تطرق إليها كثيراً، وحثَّ عليها في أكثر من سورة وآية وخصَّها بالله سبحانه فقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[1]، فنهى عن عبادة غيره من الأنداد المزعومة والطواغيت والشياطين. وتكمن أهمية العبادة في كونها طريق الوصول إلى الله سبحانه، فهي غاية خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2].

فالعبادة في الإسلام منهج متكامل المراحل والفصول، وطريق واضح المعالم. وغرضه تحقيق الكمال البشري: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[3]، وتنقية الوجود الإنساني من الشوائب والانحرافات، تمهيداً للفوز بقرب الله وتأسيساً لتحقيق رضوانه.

فعبادات الإسلام جاءت جميعها تزكيةً للنفس والبدن، وتطهيراً للذات، وتنمية للروح والإرادة، وتصحيحاً لنشاط الجسد والغريزة. فهي بمثابة معراجٌ تتدرّج به النفس البشرية، مرحلةً بعد مرحلة، حتى يتمّ لها الصفاء والنقاء، فتستطيع الإطلال على عالم الآخرة، واستشفاف حقيقة الوجود، والتعالي على مكاسب الحياة الفانية، لسموّ مقام الآخرة وعلوّ غاياتها، وارتباطها بعالم الخلود والنعيم الأبدي.

فقد جعل الإسلام الصلاة تنزيهاً للإنسان من الكبرياء والتعالي، وغرساً لفضيلة التواضع والحب للآخرين... ولقاءً مع الله للاستغفار والاستقالة من الذنوب والآثام، وشحذاً لهمّة النفس وقيادتها في طريق التسامي والصعود. والصوم ترويضاً للجسد، وتقوية للإرادة من أجل رفض الخضوع للشهوات، والسقوط تحت وطأة الاندفاعات الحسية.

والدعاء تنمية لقوة الإحساس الروحي، وتوثيقٌ للصلة الدائمة بالله والارتباط به والاعتماد عليه، ليحصل الاستغناء الذاتي بالله عمّن سواه، فيلجأ إليه المؤمن في محنه وشدائده... وعند إساءته ومعصيته... وهو واثق أنه يُقبِل على ربٍّ رؤوفٍ رحيم، يمدّه

(1) سورة الإسراء، الآية 23.
(2) سورة الذاريات، الآية 56.
(3) سورة الحجر، الآية 99.

بالعون ويقبل منه التوبة، فتطمئن نفسه، وتزداد ثقته بقدرته على مواصلة حياة الصلاح، وتجاوز المحن والشدائد.

وممّا يعزّز أهمية العبادة في الإسلام أنها ذات منهاج فطري له طبيعة اجتماعية حركية، لا يؤمن بالفصل بين الدنيا والآخرة، فهو لا يدعو الى محاربة المطالب الجسدية، من الطعام، والشراب، والزواج، والراحة، والاستمتاع بالطيبات بدعوى أنها تعارض التكامل الروحي والتقرّب من الله، بل وازن بمنهاجه موازنة تامّة بين الروح والجسد، ولم يفصل بينهما.

فالإسلام لا يرى في مطالب الجسد حائلاً يقف في طريق تكامل الروح، أو عائقاً يعرقل تنامي الأخلاق، بل يؤمن بأن هدف الجسد والروح من حيث التكوين الفطري هدف واحد، ومنهاج تنظيمها وتكاملها منهاج واحد.

لذلك كان لكلّ فعلٍ عبادي أثرٌ إصلاحي على صحّة الجسم وعلى النفس والأخلاق والعلاقة بالله، فالطهارة، والصوم، والصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد.. كلها عبادات ذات مردود إصلاحي على الفرد جسداً وروحاً فضلاً عن أثرها التكاملي في نظام المجتمع.

قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾[2].

آثار العبادة على الصعيدين الفردي والاجتماعي

بما أن دين الإسلام هو دين شامل يراعي جميع أبعاد الوجود البشري فإن للعبادة في الإسلام آثارها وفوائدها على الصعيدين الفردي والاجتماعي:

أ - على الصعيد الفردي:

تؤثّر العبادات مجتمعة على بناء الشخصية الإنسانية، والارتقاء بها إلى المستوى

(1) سورة القصص، الآية 77.

(2) سورة الأعراف، الآية 32.

التكاملي، وتخليصها من كل المعوّقات التي تمنع رقيّها، وتكاملها من الأنانية والحقد والرياء والنفاق والجشع و... إلخ. فالعبادة تعمل على تطهير الذات الإنسانية من كل تلك المعوّقات وتساهم بإنقاذها من مختلف الأمراض النفسية والأخلاقية. وتسهم في أن يكون المحتوى الداخلي للفرد مطابقاً للمظهر والسلوك الخارجي، وفي تحقيق انسجامٍ كاملٍ بين الشخصية وبين القيم والمبادىء السامية. كما تعمل على غرس حب الكمال والتسامي الذي يدفع الإنسان إلى التعالي، وتوجيه نظره إلى المثل الأعلى المتحقّق في الكمالات الإلهية. لأن العبادة ممارسة إنسانية جادّة لإلغاء الأنانية إلغاء تاماً من وجود الإنسان من أجل التحرّر من قيودها والخروج من سجنها الضيّق الذي يشدّ الإنسان إليه ويستعبده. وكذلك فالعبادة تقوّي إرادة النفس، فمثلاً إن التنازل عن النوم اللذيذ في ليل الشتاء البارد والانصراف إلى عبادة الحق المتعالي وكذلك الصوم في اليوم الحار الطويل، يزيدان من قوة الروح فتتغلّب على قوى الجسم وتسيطر على الشهوات وتصبح هذه القوى تحت إمرة الروح وتوجيهها.

ويمكن أن نحصي لعبادة الله سبحانه آثاراً عديدة أخرى على الإنسان، نذكر منها:

1 - **غنى القلب:** عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**في التّوراة مكتوب يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ قلبك غنًى ولا أكلك إلى طلبك، وعليّ أن أسدّ فاقتك وأملأ قلبك خوفاً منّي وإن لا تَفَرَّغ لعبادتي أملأ قلبك شغلاً بالدنيا ثم لا أسدّ فاقتك وأكلك إلى طلبك**»[1].

2 - **التنعّم في الآخرة:** عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال الله تبارك وتعالى يا عبادي الصِّدِّيقين تنعّموا بعبادتي في الدُّنيا فإنّكم تتنعَّمُون بها في الآخرة**»[2].

3 - **يباهي الله به الملائكة:** عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إنّ الله تعالى يُباهي بالشابّ العابد الملائكة، يقول: انظروا إلى عبدي ترك شهوته من أجلي**»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص83.
(2) م. ن.
(3) جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير، ج1، ص 282، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، 1401 - 1981م، ط 1.

4 - **ينصره الله على الشيطان:** عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **لأصحابه: ألا أُخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى، قال: الصوم يسوّد وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحبّ في الله والموازرة على العمل الصالح يقطعان دابره، والاستغفار يقطع وتينه ولكلّ شيء زكاة وزكاة الأبدان الصّيام**»[1]. فالملاحظ أنّ لكلّ عبادة أثراً خاصّاً يضرّ بإبليس اللعين الذي يتربّص بالبشر الدوائر، ما يُعين المؤمن أكثر على المحافظة على دينه وتقواه وطاعة مولاه.

5 - **يثيبه الله تعالى الجنّة:** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ثلاثة يُدخلهم الله الجنّة بغير حساب: إمامٌ عادل، وتاجرٌ صدوق، وشيخٌ أفنى عمره في طاعة الله**»[2].

ب - على الصعيد الاجتماعي:

وقد راعى الإسلام في كل عباداته أن تكون العبادة ذات أثر تكاملي على الذات ومردود عملي على المجتمع بهدف إصلاحه وتحسين أوضاعه. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾[3]. والصوم يشعر الإنسان بالوحدة والمساواة ومشاركة ذوي الحاجة والفقر بإحساسهم عند معاناة ألم العطش والجوع.. والحج مؤتمرٌ للوحدة والتفاهم والتعارف والإصلاح... إلخ. والكفّارات والنذور والصدقات والزكاة والخمس عبادات لإشباع الحاجات المادية عند الفقراء، وتحقيق التوازن الاقتصادي في المجتمع..

وللعبادة آثار اجتماعية وأخلاقية مهمّة تنعكس على حياة المجتمع البشري وتؤثّر على علاقاته الإنسانية المختلفة. فالعبادة والشعور بالعبودية لله وحده ينقذ الإنسان من الخضوع لإرادة الطغاة والمستبدّين، والشعور بها يحرّر الإنسان كذلك من الشهوات ومن سيطرة حب المال وجمعه وتكديسه، وتسخير الآخرين وظلمهم واستغلالهم من أجل هذا

(1) الشيخ الكليني،الكافي، ج4، ص62.
(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج26، ص261.
(3) سورة العنكبوت، الآية 45.

المعبود الزائل. والشعور بالعبودية لله يحرّر الناس، من الصراعات والمآسي التي يعيشونها من أجل الاستعلاء والتحكّم والمكاسب المختلفة. والشعور بالعبودية لله يشعر الإنسان بالمساواة والعدل بين الناس، لأنهم جميعاً متساوون في صفة العبودية لله الواحد الأحد. لذا فإن المجتمع الذي تسود فيه العبادة والعبودية لله لا يجد الناس فيه غاية في الحياة غير الله، ولا يملأ آفاق نفوسهم شيء غير العبودية لله. فيحطّم الناس حينذاك أصنام العبوديات المختلفة، صنم المال، والشهوة، والجاه، والسلطة، والكبرياء، إلخ. ليكونوا أحراراً كما خلقوا.. وكما أراد لهم خالقهم العظيم.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - العبادة ممارسة إنسانية بتكليف إلهي هدفها الأساس تحرير الإنسان من أسر الأنانية والأهواء النفسية التي تشدّ الإنسان إلى عالم الدنيا وتحجبه عن عالم الآخرة ☐

2 - العبادة شرعاً هي الامتثال للأوامر والنواهي الإلهية ☐

3 - ما يُعطي للعبادة أهمية في الإسلام أنّها أهم وسيلة لقضاء حوائج الإنسان الدنيوية وتلبية احتياجاته المادية ☐

4 - تسهم العبادة في تعزيز الأنا وتقوية الثقة في النفس ممّا يساعد على بناء شخصية إيمانية ثابتة ☐

5 - العبادة هي اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرية فقط دون الباطنية ☐

6 - طاعة الله وعبادته لا تنحصر في مجموعة الممارسات التي تتعلّق بحياة الفرد فقط بل تتوسّع لتنظم العلاقة مع الله والنفس والآخرين من حوله ☐

7 - العبادات في الإسلام جاءت جميعها من أجل تزكية البدن ولتوجيه النشاط الجسدي والغرائزي بالإطار السليم ☐

8 - إنّ العبادة طريق الوصول إلى الله سبحانه وتعالى وتُمثّل غاية خلق الإنسان ☐

9 - من الآثار المهمّة للعبادة والعبودية على المستوى الفردي أنّها تُحرّر الإنسان من الخضوع لإرادة الطغاة والظالمين بل وتحمله على مواجهتهما بكلّ صلابة وبأس ☐

10 - إحدى مميّزات العبادة في الإسلام أنّها ذات منهاج فطري له طبيعة اجتماعية حركية، يؤمن بالفصل بين الدنيا والآخرة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. العبادة في الإسلام، اسمٌ يُطلق على كلّ ما يصدر عن المسلم من أقوالٍ وأفعالٍ وأحاسيس استجابةً لأمر الله تعالى، وكل ما يمتنع عنه منها، تطابقاً مع إرادته تعالى ومشيئته.
2. لفظة العبادة لها استعمال خاص عند فقهاء الشريعة، فهم يطلقونها بشكل اصطلاحي على بعض الأعمال التعبّدية بصورة خاصة، كالصلاة والصوم والحج.
3. يولي الذكر الحكيم للعبادة أهمية بالغة وقد حثَّ عليها في أكثر من سورة وآية، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى هدف الخلقة.
4. تكمن أهمية العبادة في كونها طريق الوصول إلى الله سبحانه، فهي غاية خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض.
5. إحدى مميزات العبادة في الإسلام أنها ذات منهاج فطري له طبيعة اجتماعية حركية، لا يؤمن بالفصل بين الدنيا والآخرة.
6. دين الإسلام هو دين شامل يراعي جميع أبعاد الوجود البشري فإن للعبادة في الإسلام آثارها وفوائدها على الصعيدين الفردي والاجتماعي.
7. تؤثّر العبادات مجتمعةً على بناء الشخصية الإنسانية، والارتقاء بها إلى المستوى التكاملي، وتخليصها من كل المعوّقات التي تمنع رقيّها.
8. المجتمع الذي تسود فيه العبادة والعبودية لله لا يجد الناس فيه غاية في الحياة غير الله.

للمطالعة

عبادة الإمام الخميني قدس سره بلسان القائد الخامنئي دام ظله

«أنا على يقين أنّ ذلك الرجل المسنّ النورانيّ المعنويّ، العالم الزاهد والعارف، الذي بنى هذه الثورة بيده القديرة، وبها كان غرسها وسقياها وقطاف ثمارها، لولا أنّه كان له في شبابه تلك المناجاة، وتلك العبادات، والتفكّر والتوسّل، لما حصل على ذلك القلب المؤمن النورانيّ، ولما أنجز هذه الأعمال العظيمة، إنّ المرحوم الحاج ميرزا جواد آغاي طهراني- وهو من العلماء أصحاب الإيمان القوي، ومن الزاهدين الخالصين، وكان يعرفه الكثيرون في مشهد - قال لي قبل ما يقرب من ثلاثين سنة: «لقد ذهبتُ إلى قمّ أيّام الشباب للدراسة، ورأيتُ الإمام الخميني قدس سره في ذلك الزمان في الحرم المطهّر. لم أكن أعرف من هو. رأيت سيّداً طالب علم شابّاً نورانيّاً واقفاً في الحرم، قد تحنّك بعمامته، يصلّي ويذرف الدموع ويتضرّع». يقول الحاج ميرزا جواد آغاي طهراني: «مع أنّي لم أعرفه، إلّا إنّي أُخذتُ به، وسألتُ بعض الموجودين من هو هذا السيّد النورانيّ؟ فقالوا: هذا السيّد روح الله الخمينيّ». فإذا كان السيّد روح الله قد ذخر رأس المال هذا في شبابه، فإنّه سيصبح في سنّ الثمانين الإمام والمؤسّس لدولة الجمهوريّة الإسلاميّة.

عادةً ما يتقاعد المسنّون في عمر أقلّ من هذا، ولا يطيقون حتّى إدارة حياتهم الشخصيّة. أمّا الإمام، فإنّه في ذلك السنّ يبني بناءً عظيماً لا يوصف، ويقف في وجه العدوّ، بحيث يُصعَق الإنسان لما يراه من شجاعته وثباته في وجه الحوادث والمصائب[1].

(1) الإمام الخامنئي دام ظله لقاء مع رجال الدين وطلّاب العلم الإيرانيينّ والأجانب في ساحة مدرسة الفيضيّة في قم،1995/12/7.

الدرس الثاني

منشأ العبادة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف أنّ للعبادة منشأ وأسباباً.

2 . يستنتج كيف يكون الملك والقهّارية الإلهية منشأً للعبادة.

3 . يشرح كيف يكون فقر وعجز الإنسان منشأً للعبادة.

أسئلة مشروعة حول العبادة ولزومها

في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه فقال: «**إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه**»[1].

لماذا يتعبّد الإنسان؟ ولماذا يتحمّل المشقّة ويبذل الجهد؟ فيصلي ويصوم ويحج ويجاهد ويبذل المال؟ فالله تعالى غير محتاج للعبادة وغنيٌّ عنها، والإنسان يلاقي الكلفة البدنية والتعب في أداء العبادة، ويبذل الجهد والمال والوقت في سبيلها. فلماذا كل ذلك إذن؟ هل يكفي القول بأن ثمة فوائد كبرى فردية واجتماعية للعبادة تعود على الإنسان فيتحمّل من أجل نيلها المشقّة؟ أو أن يقال بأن الرغبة بنيل الثواب الأخروي المنتظر من العبادة ودفع العقوبة الإلهية المتوقعة لتارك العبادة هما الدافعان اللذان يدفعان الإنسان نحو العبادة؟

فلماذا نجد إذاً أشخاصاً بلغ بهم حبّ العبادة بحيث لا يجدون لها أية مشقة؟ بل على العكس من ذلك، نراهم يندفعون لأدائها بكل رغبة وشوق ويترقّبون هدأة الليل ونوم الأنام لينصرفوا لمناجاة معشوقهم الأوحد وبثّه لواعج أشجانهم؟

ولماذا نسمع شخصاً كأمير المؤمنين عليه السلام يناجي ربه فيقول: «**ما عبدتك خوفاً من نارك ولا رغبة في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[2].

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار،ج5، ص312.

(2) م.ن، ج 67، ص 186.

فهل في البين دوافع أخرى تجعل للعبادة موقعاً مختلفاً لدى العابدين؟

هذه أسئلة تطرأ على الكثيرين، ويتصوّرها العديد من الناس حول وجوب العبادة. وما يزيد أهمية هذه الأسئلة تأكيد القرآن الكريم كما ذكرنا على أن العبادة هي الهدف من الخلق: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

فما هو سرّ ذلك؟ وما هو منشأ العبادة؟ ولماذا كانت لازمة للإنسان؟

مع بعض البحث والتأمل يجد الإنسان جواب سؤاله حاضراً، يقدّمه القرآن الكريم إليه، بعد أن يضع أمامه جملةً من الحقائق التي تفيد بأن القيام بعبادة الله وحده حقٌّ، وبأن هذه العبادة نتيجة طبيعية في هذا الوجود تمليها طبيعة العلاقة بين الإنسان وخالقه.

وبإمكاننا أن نتابع تلك الحقائق الجوهرية التي تنتج حتمية العبادة لله سبحانه وتعالى كما بسطها القرآن الكريم، والربط بين كل سببٍ ونتيجته العبادية في العديد من آياته، وفيما يلي نلقي نظرةً على هذه الحقائق التي تحكي عن طرفي هذه العلاقة: الله عز وجل من جهة والإنسان من جهة ثانية.

الحقائق الإلهية التي توجب عبادة الله

1. الخلق لله:

تحدّث القرآن الكريم عن الخلق والإيجاد والنشأة التكوينية للإنسان وربط بين مبدأ الخلق والإبداع والتكوين من جهة، وبين العبادة والخضوع لله من جهة أخرى، كحقيقتين مترابطتين لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2]. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[3].

(1) سورة الذاريات، الآية 65.
(2) سورة البقرة، الآيتان 21-22.
(3) سورة الانعام، الآية 102.

بهذا جعل القرآن عبادة الله نتيجةً تتولّد بصورةٍ طبيعيةٍ عن حقيقة أن الخلق لله وأنه تعالى خالق الإنسان وخالق كلّ شيء بما فيه الأرض والسماء والماء ومسخّرها للإنسان، فجعل العبادة حقيقةً وجوديةً في دنيا الإنسان تشكل الرابط ما بين الطرفين في معادلة الخلق والعلاقة بالله سبحانه. فالله تعالى هو الخالق والإنسان هو المخلوق الذي يمتّ إلى خالقه بالعبادة والخضوع.

2. الملك لله:

والحقيقة الثانية التي ينتج عنها وجوب عبادة الله هي: إن الإنسان ملكٌ لله كغيره من أجزاء هذا الكون.

فالإنسان مملوكٌ لخالقه، لا يملك من هذا الوجود ولا من نفسه شيئاً: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1]، وهو يتصّرف بنفسه، وبالكون، وبالأرض، والملك، والثروة، وكل وسائل الحياة بتخويلٍ من الله سبحانه. فيجب عليه أن يخضع لمشيئة الله ويمارس الحياة وفقها، ليكون بهذا الالتزام عبداً لله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾[2]. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[3]. ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم أيضاً وهو يخاطب الإنسان، ويوضح له: إن كل ما بيده في هذه الحياة هو ملك لله وليس له، وسيفارقه ويتركه ليتصرّف به غيره، وستُنزع نفسه من الحياة صفر اليدين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[5].

(1) سورة آل عمران، الآية 128.
(2) سورة فاطر، الآية 13.
(3) سورة الزمر، الآية 6.
(4) سورة الملك، الآية 1.
(5) سورة الانعام، الآية 94.

كما يربط القرآن الكريم في آيةٍ أخرى بين اختصاص الله بالملك وبين الإيمان به وحده، فيكشف أن الذي يملك الخلق والموت والحياة هو وحده الذي يجب أن يؤلّه، وبالتالي الوحيد الذي يستحقّ العبادة والوحيد الذي يصحّ أن يكون الإنسان عبداً له. وبما أن العبودية خضوعٌ مطلقٌ وتسليمٌ تامٌّ للمعبود، فلا يصحّ خضوع المملوك واستسلامه إلاّ لمالكه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

3. القهر لله:

والحقيقة الثالثة التي توجب عبادة الله سبحانه هي: أن الله تعالى هو القاهر وأن إرادته هي النافذة، ولا يستطيع أحدٌ أن يردّها أو يقاوم سلطانه ومشيئته، وليس أمام الإنسان إلاّ أن يخضع لإرادة خالقه ويلتزم بأوامره ونواهيه ويسلّم لحكمه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2].

﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]. ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[4].

على أن هذا الخضوع لإرادة الله القاهرة، قائمٌ على الاعتقاد بعدل الله وحكمته ورحمته، ولا يشبه الخضوع الذي يقع من الإنسان الضعيف للطاغية الظالم، فهناك فرقٌ في شعور الإنسان النفسي بين الحالتين، حالةٌ يخضع فيها لإرادةٍ ظالمةٍ غاشمةٍ بسبب قهرها وتسلّطها عليه فيخضع لها خضوعاً مكرهاً ولو استطاع التمرّد والخلاص منها لفعل،

(1) سورة الأعراف، الآية 158.
(2) سورة الأنعام، الآية 18.
(3) سورة يوسف، الآيتان 39-40.
(4) سورة ص، الآية 65.

لأنه لا يؤمن بعدالة هذا الخضوع القاهر الغاشم، وحالةٌ أخرى يخضع فيها الإنسان لقوّةٍ قاهرةٍ بسبب إيمانه بالعلاقة الحقيقية بين وجوده الضعيف وبين وجود هذه القوّة الإلهية القاهرة وكونها علاقة عادلة، لأنها تعبّر عن حقيقة الذاتين: ذاته التي هي ضعفٌ مطلقٌ، وذات الخالق التي هي قدرةٌ مطلقة. وليس في هذه العلاقة ظلمٌ ولا حيف، وإنما هي علاقةٌ قائمةٌ على أساس العدل والودّ والرحمة. ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[1]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2].

4. الأمر لله:

والحقيقة الرابعة التي تجعل من الإنسان عبداً لله هي: أن الإنسان لا يملك شيئاً من هذا الوجود، ولا يستطيع التصرّف فيه، ولا تسيير الأمور التي تجري عليه من الموت والحياة والأحداث الأخرى التي لا يملك إلاّ الرضا بها، فهي قضاءٌ محتومٌ عليه، وقدر لا يستطيع التصرّف فيه، أو الاعتراض عليه، فخضوعه لمثل هذه الأحداث إنما هو خضوعٌ تكوينيٌّ لأمر الله وإرادته: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[3]. ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[4].

فليس أمام الإنسان إلاّ أن يسلّم أمره إلى الله يتصرّف به كيف يشاء، فيرضى بقضاء الله وقدره. ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ ﴾[5].

ولذا كان قول الإنسان المؤمن بالله الواثق بعدله وحكمته: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[6].

---

(1) سورة هود، الآية 90.
(2) سورة النساء، الآية 40.
(3) سورة آل عمران، الآية 145.
(4) سورة التغابن، الآية 11.
(5) سورة آل عمران، الآية 154.
(6) سورة غافر، الآية 44.

وهكذا تأتي العلاقة واضحة بين خروج الأمر والتصرّف من يد الإنسان، وانتظام الكون والحياة والحوادث والوقائع وفق إرادة الله ومشيئته من جهةٍ وبين عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى من جهةٍ أخرى، لأن الإنسان يمثّل في هذه العلاقة طرف الاستجابة والخضوع والعبودية لمشيئة الله وحكمته.

ولا يملك القدرة على الاستقلال في التصرّف وإيقاع الحوادث إلاّ بمشيئة الله وإذنه، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1].

وفي الحديث القدسي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك أنني لا أُسأل عمّا أفعل وهم يُسألون**»[2].

ورجوع الأمر لله سبحانه، أي التصرّف في الخلق والكون من التقدير والقضاء والحدوث، هو نتيجة طبيعية لثبوت الملك والقهر لله سبحانه وتعالى. لأن المالك القاهر هو وحده القادرعلى التصرّف وتدبير الحوادث والوقائع وتنظيمها وفق إرادةٍ تكوينيةٍ قاهرةٍ نافذةٍ قادرةٍ على إمضاء المشيئة الخيّرة وجريان الحكم المنفّذ لهذه المشيئة والاختيار. وهكذا يجد الإنسان نفسه كائناً يدور في فلك العبودية التكوينية والخضوع الذي يشكّل أساساً ومنطلقاً لعبودية إرادية مختارة.

5. الربوبية لله:

الربوبية تعني التدبير وهي الحقيقة الخامسة التي تجعل من الإنسان عبداً لله. فالله تعالى هو الربّ المنعم المتفضّل على الإنسان، وقد أنعم عليه ورزقه ومنحه كل ما يحتاج إليه في هذه الحياة، وأحاطهُ بعنايته وعطفه ولطفه مذ كان نطفةً في رحم أمّه وحتى آخر

(1) سورة الإنسان، الآية 30.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص152.

لحظة من حياته. لذا فإن هذا الربّ المنعم يستحقّ الشكر ويستحقّ العبادة، وليس في الوجود منعمٌ ولا متفضّلٌ على الإنسان غير الله سبحانه.

ولهذا جاءت دعوة القرآن تذكرةً للإنسان ونداءً موقظاً له من غفلته: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1]. ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[2]. ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[3].

وهكذا ثبّت القرآن الكريم العلاقة الحتمية بين الشكر والعبودية وبين إفاضة النّعم والخيرات، فاعتبر الاعتراف بالفضل والنّعم وأداء الشكر والامتنان والعبادة واجباً كونياً يترتّب على الإنعام والتفضّل.

حقيقة الإنسان توجب عبادة الله تعالى

وفي المقابل نجد في الآيات الكريمة بعض خصائص الإنسان التي تبرز حقيقته وهو أنه مخلوقٌ ضعيفٌ، محتاجٌ وفقير فنقرأ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[4]. ومن المؤكّد أن الفقر المقصود هنا في الآية ليس الفقر المادي، بل المراد منه شيءٌ آخر يمسّ جوهر الإنسانية وحقيقتها. فهذه الآيات الآنفة الذكر تشير إلى أن الضعف والاحتياج هما حقيقة الإنسان: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[5].

فلو فكّر الإنسان ساعةً واحدة في نفسه وفي موجودات هذا العالم كلّه فسوف يكتشف أن أي موجودٍ ليس لديه شيءٌ من نفسه، وأن كل ما حصل عليه الإنسان ووصله هو ألطافٌ ومواهب مستعارة وهي ليست منه، سواء قبل أن يأتي إلى هذه الحياة أم خلال

(1) سورة آل عمران، الآية 64.
(2) سورة مريم، الآية 48.
(3) سورة الزمر، الآية 66.
(4) سورة فاطر، الآية 15.
(5) سورة النساء، الآية 28.

حياته فيها، أم حتى بعد الممات. وإذا تأمّل الإنسان في كيفية خلقه منذ أن كان طفلاً إلى أن تحين لحظة وفاته وفكّر قليلاً في كل مرحلة وما أُعطي فيها من نِعمٍ وقوىً متنوعة من الفكر والعقل والخيال والقلب والأعضاء والجوارح المختلفة وغيرها من النعم والألطاف، لدهش وتحيّر لأنه في لحظةٍ من اللحظات لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾[1] ثم أفيضت عليه الحياة والروح ووُهِب من ألوان النعم التي تبهر العقول وسخّر له كل هذا الوجود. فالإنسان إذاً في الأصل لا يملك شيئاً، فمن غيره تعالى يكون المالك الحقيقي والرازق والمعطي!؟

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2].

فالأمور كلها بيد الله وليس للإنسان من حولٍ وقوة إلا به، وهذا عين الضعف والعجز: ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ ﴾[3].

إذن كل هذه الحقائق الآنفة الذكر، من الخلق والملك والقهر والأمر المنحصرة بالله تعالى، والربوبية الإلهية من جهة، والفقر والاحتياج والعجز الإنساني من جهة أخرى، تلتقي لترسم لنا صورة العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتوضح كيفية الرابطة بينهما، لتؤكّد دواعي عبودية الإنسان لله وحده، وخضوعه لمشيئته وإرادته خضوعاً يختاره الإنسان عن وعي وتدبّر. فنستنتج: بما أنّ الله هو الخالق وهو المالك الآمر، والقاهر المسيطر، وهو الرب المتفضّل بالنّعم والرعاية... إذن يجب أن يُعبد وحده وأن تُخلص له العبودية دون غيره.

وها هو القرآن الكريم يصف لنا سجود الكون، والعوالم، وخضوعها بقوله: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

(1) سورة الإنسان، الآية 1.
(2) سورة يونس، الآية 31.
(3) سورة آل عمران، الآية 154.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]، وقوله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2].

فيرسم القرآن الكريم لنا صورة الخلق وهو ساجد، ويلفت أنظارنا إليه وهو عابد، ويزجر الغافلين منا، ويطالبنا بأن نفكّر فيما حولنا من عوالم وأكوان... لنرى كل شيء خاضعاً داخراً - أي مرغماً - ومتصاغراً، مستسلماً لعظمة الله وإرادته، فالأرض والسماء والحيوان والنبات وكل مخلوق تشرق عليه أنوار الوجود، لا يملك التمرّد، ولا التكبّر، ولا يستطيع الرفض لإرادة الله، ولا الخروج على حكمته وتدبيره. وهذا هو المقصود بالعبودية التكوينية. فهل يخرج الإنسان وحده من بين المخلوقات عن هذه العبودية؟ أم الأولى به وقد شرّفه الله بخاصّية الاختيار الحرّ وميّزه بها عن سائر المخلوقات أن ينسجم مع العبودية التكوينية ويختار عبادة الله عز وجلّ عن إيمانٍ ووعيٍ وتصميم؟

(1) سورة النحل، الآيتان 48-49.

(2) سورة آل عمران، الآية 83.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - العبادة نتيجة طبيعية في هذا الوجود تُمليها طبيعة العلاقة بين الإنسان الفقير والخالق الغني، ولكن يمكن للإنسان أن يتحرّر من هذه الطبيعة الحاكمة إذا شاء ☐

2 - من يجب أن يؤلّه هو الذي بيده مقاليد كلّ شيء وهو يملك الخلق والموت والحياة وهو الله سبحانه وتعالى ☐

3 - إنّ الخضوع لإرادة الله القاهرة الهدف منه تحصيل المكاسب الأخروية فقط ☐

4 - الله تعالى هو القاهر وإرادته هي النافذة، ولكن يمكن للإنسان أن يقاوم سلطانه ومشيئته ولا يخضع لإرادته كما يفعل الكفار والمشركون ☐

5 - الإنسان في لحظةٍ من اللحظات لم يكن شيئاً مذكوراً: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ ثم أُفيضت عليه الحياة والروح ووُهِب من ألوان النعم التي تبهر العقول وسخّر له كل هذا الوجود ☐

6 - توجد علاقة حتمية بين الشكر والعبودية وبين إفاضة النّعم والخيرات ☐

7 - تحدّث القرآن الكريم عن الخلق والإيجاد وربط بين مبدأ الخلق والتكوين من جهة، وبين العبادة والخضوع لله من جهة أخرى، كحقيقتين مترابطتين لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى ☐

8 - إنّ الحقيقة التي تجعل من الإنسان عبداً لله دون غيره هي كونه لا يملك شيئاً في هذا الوجود وهو محض الضعف والفقر والعجز ☐

9 - العبودية التكوينية تعني أنّ الخالق سبحانه وتعالى هو الذي يملك الخلق والموت والحياة بمشاركة أوليائه الكمّل ☐

10 - يُمثّل الإنسان في العلاقة بين خروج الأمر والتصرّف من يد الإنسان، وانتظام الكون والحياة والحوادث والوقائع طرف الاستجابة والخضوع والعبودية لمشيئة الله وحكمته ☐

المفاهيم الرئيسة

1. جعل القرآن عبادة الله نتيجةً تتولّد بصورةٍ طبيعيةٍ عن حقيقة أن الخلق لله وأنه تعالى خالق الإنسان وخالق كلّ شيء.
2. يكشف القرآن الكريم أن الذي يملك الخلق والموت والحياة هو وحده الذي يجب أن يؤلّه، وبالتالي الوحيد الذي يستحقّ العبادة والوحيد الذي يصحّ أن يكون الإنسان عبداً له.
3. إن الله تعالى هو القاهر وإن إرادته هي النافذة، ولا يستطيع أحدٌ أن يردّها أو يقاوم سلطانه ومشيئته، وليس أمام الإنسان إلاّ أن يخضع لإرادة خالقه ويلتزم بأوامره ونواهيه ويسلّم لحكمه، وهذه الحقيقة توجب عبادته تعالى.
4. هناك علاقة وثيقة بين خروج الأمر والتصرّف من يد الإنسان، وانتظام الكون والحياة والحوادث والوقائع وفق إرادة الله ومشيئته من جهةٍ وبين عبودية الإنسان اللازمة لله سبحانه وتعالى من جهةٍ أخرى.
5. ثبّت القرآن الكريم العلاقة الحتمية بين شكر الإنسان وعبوديته لله وبين إفاضة النّعم والخيرات من قبله تعالى، فاعتبر الاعتراف بالفضل والنّعم وأداء الشكر والامتنان والعبادة واجباً يترتّب على الإنعام والتفضّل، وعدّ التنكُّر لفضل الله ونعمه كفراً وتمرّداً على العبودية لله سبحانه.
6. إن حقيقة الإنسان هي أنه مخلوقٌ ضعيفٌ وعاجزٌ، محتاجٌ وفقير، بل هو عين الفقر والعجز.
7. إن انحصار الخلق والملك والقهر والأمر والربوبية بالله تعالى من جهة، والفقر والاحتياج والعجز الإنساني من جهة أخرى، هي حقائق ترسم صورة العلاقة بين الإنسان وخالقه وهي عبودية الإنسان لله وحده.

للمطالعة

كيفية حصول التفرّغ للعبادة

اعلم أن التفرّغ للعبادة يحصل من تكريس الوقت والقلب لها. وهذا من الأمور المهمة في باب العبادات. فإن حضور القلب من دون تفريغه وتكريس الوقت له غير ميسور، والعبادة مندون حضور القلب، غير مجدية. وما يبعث على حضور القلب، أمران: أحدهما: تفريغ القلب والوقت للعبادة. ثانيهما: إفهام القلب أهمية العبادة. والمقصود من تفريغ الوقت هو أن الإنسان يخصّص في كل يوم وليلة وقتاً للعبادة ويوطّن نفسه على العبادة في ذلك الوقت، رافضاً الانشغال في ذلك الوقت بأي عمل آخر.

وعلى أي حال لا بدّ للإنسان المتعبد، أن يوظّف وقتاً للعبادة. وأن يحافظ على أوقات الصلاة التي هي أهمّ العبادات وأن يؤديها في وقت الفضيلة، ولا يختار لنفسه في تلك الأوقات عملاً آخر. وكما أنه يخصّص وقتاً لكسب المال والجاه والدراسة والبحث، كذلك لا بدّ أيضاً من تخصيص وقت للعبادات، حتى يكون خالياً من أي عمل آخر، ويتيسّر له حضور القلب الذي هو بمثابة اللبّ والجوهر. ولكن إذا فرضنا بأن شخصاً مثلي تكلّف من أداء صلاته، ورأى بأن العبادة من الأمور الزائدة، لأجّل صلاته إلى آخر الوقت، ولأتى بها بكل فتور ونقص، لما يرى حين التهيؤ لأداء الصلاة، من أن هناك أموراً أخرى أهمّ منها في نظره، وأنها تتزاحم مع هذه الأمور الهامة، فيفضّل غير الصلاة عليها. ومن المعلوم أن مثل هذه العبادة لا نورانية لها، بل تكون مثار سخط إلهي، ويكون مستخفاً بالصلاة ومتهاوناً في أمرها. أعوذ بالله من الاستخفاف بالصلاة وعدم الاكتراث بها[1].

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث 27: حضور القلب.

الدرس الثالث

العبودية المطلقة لله هي الهدف

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يشرح دور العبادة في تحقّق العبودية.

2 . يبرهن أنّ العبودية المطلقة لله هي الهدف من خلق الإنسان.

3 . يبيّن أنّ كمال الإنسان في العبودية لله.

تمهيد

ذكرنا في الدرس السابق أثناء استعراض الحقائق الموجبة لعبادة الإنسان لله تعالى، في عدّة موارد لفظة «العبودية» وقلنا، إنّ الذي يملك الخلق والموت والحياة هو وحده الذي يجب أن يؤلّه، وبالتالي الوحيد الذي يستحقّ العبادة والوحيد الذي يصحّ أن يكون الإنسان عبداً له. وبما أن العبودية خضوعٌ مطلقٌ وتسليمٌ تامٌّ للمعبود، فلا يصحّ خضوع المملوك واستسلامه إلاّ لمالكه. فما هي العبودية وما هي علاقتها بالعبادة؟ وهل هي نفس العبادة أم هي شيءٌ آخر؟

ما هي العبودية؟

«العبد» هو الإنسان المملوك لمولاه، الذي لا يملك لنفسه شيئاً، والذي تكون إرادته تابعةً لإرادة مالكه، فلا يطلب شيئاً إلّا تبعاً لطلبه ومشيئته، ولا يعصي له أمراً ولا يتمرّد على حكمه.

و«العبوديّة» هي إظهار منتهى الخضوع للمعبود، والتسليم له، وامتثال الطاعة والانقياد له، بلا قيدٍ ولا شرط. والمعبود الوحيد الّذي له حقّ العبادة على الآخرين، هو الّذي بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى الله سبحانه.

فمعنى أن أكون عبداً، أن لا أقوم بأيّ فعل حتّى أعلم حكم الله فيه فأعمل وفقه، وأن لا تكون لي إرادة في مقابل إرادة الخالق، وأن لا أريد إلّا ما أراده، ولا أرى لنفسي حولاً ولا قوّةً على شيءٍ إلّا بتوفيقه تعالى ومنّه.

رُوي عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام لمّا سُئِل عن حقيقة العبوديّة: «**ثلاثة أشياء،**

أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوَّلهُ الله مِلْكاً لأنّ العبيد لا يكون لهم مِلْكٌ يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يُدَبِّرُ العبد لنفسه تدبيراً وجُملَة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوَّلَه الله تعالى مِلْكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن يُنفِق فيه، وإذا فوَّضَ العبد تدبير نفسه على مُدَبِّره هان عليه مصائب الدّنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المِرَاءِ والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدّنيا وإبليس والخلق ولا يطلب الدّنيا تكاثُراً وتفاخُراً ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً ولا يدع أيّامه باطلًا، فهذا أوّل درجة التُّقَى، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾»[1][2].

يلاحَظ في هذا الحديث الشريف، أنّ العبوديّة الحقّة قد اعتُبرت عين التسليم والطاعة في الأفعال والإرادة والاختيار وسائر الأمور. فالعبودية إذاً صفة تدلّ على فناء إرادة العبد في المعبود وانقياده له في كلّ شيء. فهي الطاعة الكاملة والتسليم المطلق الذي لا يشوبه عصيان أو تمرّد سواء في الظاهر أم في الباطن. وبعبارة أخرى العبودية تعني التعلُّق بالمولى وإرادته، فلا نملك في قباله عزّ وجلّ شيئاً وليس لنا أن نُقصِّر في طاعته.

العلاقة بين العبادة والعبودية

ذكرنا في الدرس الأول أن العبادة بالمصطلح الخاص أي الفقهي هي الإتيان بالأعمال العبادية أي العبادات الشرعية من صلاة وصيام وغيرها من العبادات المذكورة في المصادر الشرعية المعتبرة. وهي بمعناها الأعم طاعة الله في جميع شؤون حياة الإنسان، كما ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[3] قال: «**ليس العبادة هي السجود**

(1) سورة القصص، الآية 83.
(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج1، ص224.
(3) سورة مريم، الآيتان 81 – 82.

ولا الركوع، إنما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده»[1].

إذاً، كما نلاحظ فإن العبادة بمعناها العام تقترب كثيراً من مفهوم العبودية بمعنى الطاعة والخضوع والتسليم. ويمكن القول إن عبادة الله تعالى هي الترجمة العملية لاعتراف الإنسان بهذه العبودية لله عزّ وجلّ، وهي تعبيرٌ عن إذعان الإنسان لحقيقة أنه عجزٌ مطلقٌ مفتقرٌ في تمام وجوده إلى الغني المطلق وهو الله سبحانه وتعالى. كما يمكننا القول بأن عبادة الله بمعناها الخاص هي انخراطٌ طوعيٌّ في العبودية الاختيارية انسجاماً مع إذعان الإنسان واعترافه بالعبودية التكوينية لله عز وجل السارية في كل الكون. وللعبادات الشرعية دورٌ كبيرٌ في ترسيخ العبودية في نفس الإنسان فمن خلال تكرار ودوام الطاعة والعبادة تصبح النفس منقادةً ويرسخ الخضوع للمعبود في باطن الإنسان.

كما أن الاستمرار في العبادة يصلح هذا الباطن نتيجة للابتعاد عن الذنوب والمعاصي، كما في الآية الشريفة حول الصلاة: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[2]. وهذا أحد أهداف تكرار العبادات في الإسلام حيث يصبح الإنسان عبداً بحق لله تعالى، ويكفي هذه المرتبة من العبودية وصيرورة الإنسان عبداً لله فخراً، أنها مكرمةٌ نشهد بها لأشرف الخلق وأقربهم إليه تعالى في كل صلاة بقولنا: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» حيث إن الثناء عليه بصفته العبد يسبق وصفه بالرسول.

وهكذا نستنتج بأن عبادة الله تعالى وحده هي طريق تحقق عبودية الإنسان لله عز وجل ورسوخها في باطنه بحيث يصبح الإنسان عبداً خاضعاً لأمر مولاه، مذعناً له دون أي اعتراضٍ على شيءٍ من إرادته وتدبيره عز وجل.

أنواع العبودية

العبودية بالمعنى الذي ذكرناه حقيقة جارية على كل مخلوقات الله. فالكون وما فيه،

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج16، ص155، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، لإحياء التراث، 1414هـ، مطبعة مهر - قم، باب كراهة التعرض للذل، ح 12.

(2) سورة العنكبوت، الآية 45.

من عوالم المادة والأحياء وسائر المخلوقات يتّجه بتكوينه وإبداعه اتجاهاً مرتبطاً بإرادة الله ومشيئته، بصورة تنطق بالسجود وبالتسليم والخضوع الكامل والمطلق لله سبحانه. والإنسان بدوره لا يشذّ عن هذه القاعدة. وتنقسم هذه العبودية والخضوع لله سبحانه وتعالى بالنسبة للفرد الإنساني المتّصف بالاختيار، والإرادة، والمتعرّض للجزاء والمسؤولية، إلى قسمين:

1. العبودية التكوينية:

إن من يطّلع على تصوير القرآن لسجود الكون والعوالم والمخلوقات والأشياء، يدرك أن الإنسان بكامل تكوينه جزء من هذا العالم، وهو مرغم على الخضوع والسجود، أو على العبودية بمعناها التكويني، وعدم القدرة على الشذوذ، أو التمرّد على إرادة الله التكوينية التي استوعبت الوجود بأسره.

فهو مرغم على الحياة والموت، والنمو والولادة.. إلخ وهو لا يستطيع أن يخالف قوانين الطبيعة، كقوانين الفيزياء، والكيمياء، والأحياء، التي تجري عليه، وتنظم وجوده، شأنه في ذلك شأن سائر المخلوقات والكائنات التي لا إرادة لها، كما أنه لا يستطيع أن يقوم بخلق نفسه وتكوينها، لذا كان بهذا العجز وبتلك الحاجة إلى خالقه عبداً مملوكاً، وخاضعاً مستسلماً لإرادة الله، استسلاماً تكوينياً جبرياً.

ولكي يعي الإنسان هذه الحقيقة استمر القرآن في تنبيهه والتأكيد له على عبوديته، واستسلامه لخالق الوجود، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1]. ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾[2]. ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[3].

(1) سورة الشورى، الآية 27.
(2) سورة الفرقان، الآية 17.
(3) سورة مريم، الآية 93.

فالقرآن يؤكّد لنا في هذه الآيات أن كل الناس هم عباد الله من حيث علاقتهم التكوينية به، سواء منهم المؤمن المطيع، عن وعي وإرادة واختيار لأوامر الله ونواهيه، أو الكافر المتمرّد الذي يأبى الطاعة والالتزام بأوامر الله ونواهيه. فالإنسان يدور في فلك العبودية مرغماً، لأنه مملوك وتابع لله وخاضع لمشيئته، لذا فالقرآن سمّى الضالين والمنحرفين عباداً كما سمّى كل من في السموات والأرض من ملائكة وناس عباداً، بغضّ النظر عن ممارستهم للعبادة أو رفضهم لها. وهذا اللون من العبودية والاستسلام والخضوع، نسمّيه عبودية تكوينية أو خضوعاً تكوينياً جبرياً.

2. العبودية الاختيارية:

يختلف الإنسان عن غيره من الكائنات والمخلوقات بكونه كائناً عاقلاً مدركاً يملك إرادة وقدرة على الاختيار بما أفاض الله عليه من قوة عقلية عظيمة، ووهبه من حق في اختيار السلوك والأعمال، فهو يستطيع بذلك الاستعداد أن يفعل الخير، أو يختار طريق الشر، وأن يتوجّه إلى الله ويرتبط به كما يستطيع أن يتمرّد على أوامر الله وشريعته، فيختار طريق الانحراف والعصيان.

وهو بعلاقته هذه مع الله يختلف تماماً عن علاقته التكوينية التي تحدّثنا عنها، ففي العلاقة التكوينية كان مجبراً مسيّراً، لا يملك إرادة ولا اختياراً.

أما في العلاقة الثانية فهو كائنٌ مريدٌ، مختار، يستطيع أن يختار الطريق الرباني الموصل إلى مرضاة الله - أي يختار طريق العبودية لله - كما يستطيع أن يختار طريق الضلال الذي هو طريق العبودية والخضوع لغير الله، فيعبد ذاته أو شهواته فيخضع لها، أو يتّخذ طواغيت البشر المستبدّين آلهةً يقدّسهم، ويأتمر بأوامرهم ويلتزم بإرادتهم ويخضع نفسه لهم، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1]، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[2]. وهذه العبودية التي يختارها الإنسان سواء العبودية لله أو لغير الله،

(1) سورة الإنسان، الآية 3.
(2) سورة البلد، الآية 10.

هي عبودية اختيارية، اختارها الإنسان بمحض إرادته، لذا كان مسؤولاً عنها ومحاسباً عليها يوم الجزاء.

العبودية المطلقة هي الهدف من خلق الإنسان

هناك أسئلة تُطرح تلقائياً حول سرّ هذه الأهمية المعطاة للعبودية وعن سبب كونها تشريفاً لا ينال شرفها إلا الكمّل من أولياء الله تعالى والذين ارتضى من عباده المخلصين.

فلماذا العبودية لله وحده؟ ولماذا يجب أن تندكّ إرادة الإنسان وتذوب في إرادة الله؟

ولماذا يجب أن تتطابق إرادة الإنسان وسلوكه وأفعاله ومختلف توجّهاته مع هذه الإرادة الإلهية، ودونما تمرّدٍ أو اعتراض...؟

لا بد لنا من أن نستهدي بنور القرآن الكريم للإجابة عن هذه الأسئلة حيث تشير الآيات الشريفة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[1] إلى جانبٍ مهمٍ من هذا السّر فجعل الهدف من خلق الإنسان عبادته عزّ وجلّ. وليس ذلك لأنّ الله عزّ وجلّ يحتاج إلى عبادتنا من صلاة ودعاء وقراءة للقرآن، فهو غنيّ عنها كما ذكرنا، وإنّما أُمرنا بهذه الأعمال العباديّة لما فيه خيرنا وللوصول إلى السعادة الحقيقيّة. وقد ذكرنا سابقاً أن هذه الأعمال العبادية إنما تؤدّي إلى العبودية وإلى صيرورة الإنسان عبداً حقيقيّاً لله عز وجلّ.

ونقرأ في آيةٍ أخرى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2].

فوجودنا في هذا العالم وتفضُّل الله علينا بنعمة الحياة هما ابتلاءٌ وامتحان. وإنّ الذي يبدو من هذه الآية أنّ الله تعالى خلق الإنسان وأحياه ثمّ أماته لأجل الابتلاء والامتحان. والامتحان يكون من خلال الأعمال: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

وأفضل الأعمال المقرّبة إلى الله سبحانه وتعالى هي العبادة التي أمرنا بها وفرضها علينا، كما في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قال الله تبارك وتعالى ما**

(1) سورة الذاريات، الآيات 56 - 58.
(2) سورة الملك، الآية 2.

تحبّب إليّ عبدي بأحبّ ممّا افترضت عليه»[1]. وتفصيله ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**قال الله عزّ وجلّ، من أهان لي وليّاً فقد أرصد لمُحارَبتي، وما تقرّب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرّب إليّ بالنّافلة حتّى أُحِبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصِر به، ولسانه الّذي ينطق به ويده الّتي يَبطِش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته...**»[2].

فهذا الحديث يُشير إلى هذه الحقيقة بشكلٍ واضح، وهي أنّ الله خلق الناس لهدف تكامليّ هيّأ له جميع وسائله التكوينيّة والتشريعيّة وجعلها في متناول الإنسان واختياره بشكلٍ ميسّرٍ.

وهكذا يتّضح أنّنا خُلقنا لعبادة الله الّتي تُربّي الناس وتهديهم فينالون مقام العبودية المطلقة لله تعالى، كما نقرأ في حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الإمام الحسين خطب أصحابه فقال: «**إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه**»[3].

كمال الإنسان في العبودية لله

إن حقيقة الإنسان كما بات معلوماً، هي الفقر والاحتياج والنقص، فهو محتاجٌ في كل شيء، ولا يمكن تصوّر أي شيءٍ يمكن أن يكون الإنسان مستغنياً فيه ومستقلّاً بذاته في تدبير شؤونه.

فهو يفتقر إلى من يعطيه هذا الجسد ليتحرّك به في هذا العالم ويحتاج لمن يعطيه الروح ليحيا بها، وهو بحاجةٍ إلى من يفيض عليه بالقدرة والقوة ليتمكّن من الحركة والعمل. وهذا الاحتياج لا ينفكّ عنه آناً من الآنات، بل هو ملازمٌ له طيلة وجوده في هذا العالم. وهذه الحقيقة هي المحرّك الأساس للإنسان في هذه الدنيا فهو لا يأتي بحركةٍ إلا من أجل سدّ نقصٍ لديه وجلب منفعةٍ مفترضةٍ إليه.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص82.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ص352.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج5، ص312.

نعم قد يظنّ الإنسان بسبب غروره وانشغاله بملذّاته وشهواته أنه يحوز على القوة الكافية التي تخوّله امتلاك كلّ شيءٍ والسيطرة عليه، فهو ينظر إلى نفسه بعين الرضا، لما يرى فيها من القوّة والقدرة و... التي تمكّنه من فعل أي شيء. يمكن لهذا الإنسان الغافل عن حقيقته أن يدّعي مثل هذا الادّعاء وأن يقنع نفسه به أيضاً ولكن هذا لا يعني أنه صواب! فالحقيقة مغايرة لذلك تماماً، إن حقيقة الإنسان هي الفقر والاحتياج!

فالإنسان يفتقر إلى من يعطيه هذا الجسد لكي يتحرّك به في هذا العالم، كما أنه يحتاج إلى من يفيض عليه القدرة والقوة لكي يتمكّن من العمل. وهو بالأصل يحتاج إلى هذه الروح التي بها يحيا في هذه الدنيا ويكمل طريقه نحو العالم الآخر. وهذا هو معنى الآية المباركة التي تكشف لنا اللثام عن حقيقة الإنسان بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1].

فالفقر والاحتياج والضعف، هي السمات البارزة في تكوين الإنسان. وهذا الفقر هو الذي يدفعه نحو الحركة والعمل لا لشيء سوى التخلّص منه. لذا فإنك ترى الإنسان دائماً في حركةٍ مستمرّةٍ وتوجّهٍ حثيثٍ للانتقال من النقص الذي هو فيه إلى الكمال الذي يطمح إليه، فترى الإنسان يفرّ دائماً من النقص إلى الكمال، هذا الكمال الذي تعشقه فطرته وتطلبه على الدوام.

هذا التوجّه الدائم نحو الكمال والفرار من النقص يترجمه الإنسان في الحقيقة بحالة الخضوع والطاعة لكلّ من يجد فيه هذا الكمال، فتراه يتوجّه دائماً إلى الأكمل والأقدر حتى يحطّ راحلته أمامه فيطيعه في كل ما يطلبه ويريده، لأنه يجد في الخضوع له وطاعته خلاصاً من فقره وضعفه. لأنه يأمل أن يحصل من خلال هذا الخضوع والطاعة - لمن هو أكمل منه - على ما يسدّ به نقصه وضعفه.

وهذا هو السبب الحقيقي الكامن وراء أمر الله بطاعته والخضوع له، فهو يريدنا أن نصل إلى أعلى درجات الكمال والقرب منه بطاعته والانقياد لأوامره، لأن هذا هو السبيل

(1) سورة فاطر، الآية 15.

الوحيد للوصول إلى السعادة الإنسانية المطلقة. فبالطاعة والانقياد يسلك الإنسان سبيل السعادة، ولكن ليس بطاعة المحدود والمحتاج والناقص كما يفعل أهل الدنيا حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾[1]، بل ينبغي أن تكون الطاعة لله تعالى وحده لأنه الكمال المطلق الذي لا نقص فيه أبداً، لذا جاء الإنذار الإلهي: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾[2]. وهو عزّ وجلّ القائل في آية أخرى: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾[3].

إذاً، لأن الله عزّ وجلّ هو الرب صاحب جميع الصفات الكمالية على الإطلاق فإن ما من نقصٍ يحتاج الإنسان إلى رأبه وما من حاجةٍ يضطرّ الإنسان إلى سدّها إلا وهي بيد الرب المتعال. وكل ما ينبغي للإنسان فعله من أجل سدّ نقائصه هو الاتصال بصاحب الفيض المطلق عزّ وجلّ اتصالاً صحيحاً ليحصل من خلاله على مرامه الذي يمكننا اختصاره بالسعي الدائم نحو الخروج من النقص والعجز نحو الكمال.

(1) سورة يونس، الآية 18.
(2) سورة هود، الآية 2.
(3) سورة يوسف، الآية 40.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - إنّ العبودية التكوينية تعني أنّ الإنسان المؤمن هو عبد لله تعالى، وأما غير المطيع فهو ليس عبداً لله ☐

2 - «العبد» هو الإنسان المملوك لهواه، الذي لا يملك لنفسه شيئاً، والذي تكون إرادته تابعةً لإرادة أهوائه، فلا يعصي لها أمراً ولا يتمرّد على حكمها ☐

3 - العبودية الاختيارية هي استطاعة الإنسان أن لا يختار الطريق الربّاني الموصل إلى مرضاة الله ☐

4 - أن أكون عبداً لله، يعني أن لا أقوم بأيّ فعل حتّى أعلم حكم الله فيه فأعمل وفقه، وأن لا تكون لي إرادة في مقابل إرادة الخالق ☐

5 - العبودية صفة تدلّ على فناء إرادة العبد في المعبود وانقياده له في كلّ شيء، فهي الطاعة والتسليم المطلق الذي لا يشوبه عصيان أو تمرّد سواء في الظاهر أم في الباطن ☐

6 - يؤكّد القرآن أنّ كلّ الناس هم عباد الله من حيث علاقتهم التشريعية به، سواء منهم المؤمن المطيع أم غيره، فالإنسان يدور في فلك العبودية التشريعية مرغماً، لأنه مملوك وتابع لله وخاضع لمشيئته تعالى ☐

7 - الأعمال العباديّة تُحقّق الخير وتؤمّن الوصول إلى السعادة الإنسانية والكمال الإنساني الحقيقي ☐

8 - إنّ المداومة على العبادات الشرعية له دورٌ كبيرٌ في ترسيخ العبودية في نفس الإنسان ☐

9 - إنّ أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله سبحانه وتعالى هي التزامه بالمستحبّات والمكروهات فقط ☐

10 - إنّ الله سبحانه وتعالى جعل كمال الإنسان في تحقّقه بالعبودية المطلقة لله عزّ وجلّ ☐

المفاهيم الرئيسة

1. «العبوديّة» هي إظهار منتهى الخضوع للمعبود، والتسليم له، وامتثال الطاعة والانقياد له، بلا قيدٍ ولا شرط. والمعبود الوحيد الّذي له حقّ العبادة على الآخرين، هو الّذي بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى الله سبحانه.
2. عبادة الله تعالى هي الترجمة العملية لاعتراف الإنسان بالعبودية لله عزّ وجلّ، وهي تعبيرٌ عن إذعان الإنسان لحقيقة أنه عجزٌ مطلقٌ مفتقرٌ في تمام وجوده إلى الغني المطلق.
3. عبادة الله بمعناها الخاص هي انخراطٌ طوعيٌّ في العبودية الاختيارية انسجاماً مع إذعان الإنسان واعترافه بالعبودية التكوينية لله عز وجل السارية في كل الكون.
4. عبادة الله تعالى وحده هي طريق تحقق عبودية الإنسان لله عز وجل ورسوخها في باطنه بحيث يصبح الإنسان عبداً خاضعاً لأمر مولاه، مذعناً له دون أي اعتراضٍ على شيءٍ من إرادته وتدبيره عزّ وجلّ.
5. كل الناس هم عباد الله من حيث علاقتهم التكوينية به، سواء منهم المؤمن المطيع، عن وعي وإرادة واختيار لأوامر الله ونواهيه، أو الكافر المتمرّد الذي يأبى الطاعة والالتزام، وهذه هي العبادة التكوينية التي يشترك بها الإنسان مع جميع المخلوقات الأخرى.
6. في العبودية الاختيارية يستطيع الإنسان أن يختار الطريق الرباني الموصل إلى مرضاة الله - أي يختار طريق العبودية لله - كما يستطيع أن يختار طريق الضلال الذي هو طريق العبودية والخضوع لغير الله.
7. خلق الله تعالى الناس لهدف تكامليّ هيّأ له جميع وسائله التكوينيّة والتشريعيّة وجعلها في متناول الإنسان واختياره بشكلٍ ميسّرٍ، وهو عبادة الله الّتي تُربّي الناس وتهديهم فينالون مقام العبودية المطلقة لله تعالى وهي الغاية الأساسية للعبادة.
8. بما أن الإنسان يتحرّك دوماً بحثاً عن الكمال لسد نقصه واحتياجه فليس عليه سوى الاتصال بصاحب الكمال المطلق الحقيقي اتصالاً صحيحاً، وهذا الاتصال يكون برابطة العبودية المطلقة لله تعالى.

للمطالعة

الإنسان بفطرته يحب الكمال التّام المطلق

لا يخفى على كل ذي وجدان أن الإنسان، بحسب فطرته الأصيلة وجبلّته الذاتية، يعشق الكمال التام المطلق، ويتوجه قلبه شطر الجميل على الإطلاق والكامل من جميع الوجوه. وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها وبهذا الحب للكمال، تتوفر إرادة المُلك والملكوت، وتتحقّق أسباب وصول عشّاق الجمال المطلق إلى معشوقهم.

غير أن كل امرئٍ يرى الكمال في شيء ما، حسب حاله ومقامه، فيتوجّه قلبه إليه. فأهل الآخرة يرون الكمال في مقامات الآخرة ودرجاتها، فقلوبهم متوجّهة إليها. وأهل الله يرون الكمال في جمال الحق، والجمال في كماله سبحانه، فيقولون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[1]. ويقولون: «**لي مَعَ اللَّهِ حال**»[2] وفيهم حب وصاله وعشق جماله. وأهل الدنيا عندما رأوا أن الكمال في لذائذها، وتبيّن لأعينهم جمالها، اتجهوا فطرياً نحوها. ولكن على الرغم من كل ذلك، فإنه لمّا كانَ التوجه الفطري والعشق الذاتي قد تعلّقا بالكمال المطلق، كان ما عدا ذلك من التعلّقات عرضياً ومن باب الخطأ في التطبيق. إن الإنسان مهما كثر مُلكه وملكوته، ومهما نال من الكمالات النفسية أو الكنوز الدنيوية أو الجاه والسلطان، ازداد اشتياقه شدّة، ونار عشقه التهاباً. فصاحب الشهوة، كلّما ازدادت أمامه المشتهيات، ازداد تعلّق قلبه بمشتهيات أخرى ليست في متناول يده، واشتدّت نار شوقه إليها. وكذلك النفس التي تطلب الرئاسة، فهي عندما تبسط لواء قدرتها على قطر من الأقطار، تتوجه بنظرة طامعة إلى آخر، بل لو أنها سيطرت على الكرة الأرضية برمّتها، لرغبت في التحليق نحو الكواكب الأخرى للاستيلاء عليها. إلاّ أن هذه النفس المسكينة لا تدري بأن الفطرة إنّما تتطلع إلى شيءٍ آخر[3].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 79.

(2) إشارة إلى الحديث المشهور المنقول عن رسول الله ﷺ: (لي مع الله وقت لا يسعني ملك مقرَّب ولا نبيّ مرسل ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص360.

(3) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث السَادِس: من أصبح وأمسى والدنيا أو الآخِرة أكبر همّه.

الدرس الرابع

النية والإخلاص في العبادة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفسّر أهمية النيّة ومكانتها في العبادات.

2 . يبيّن ماهية الإخلاص وموقعيته في العبادة.

3 . يشرح كيفية تحصيل الإخلاص في العبادة وآثاره المختلفة.

ما هي النيّة؟

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1].

النية: «هي التصميم والعزم على الإتيان بأمر وإجماع النفس على فعله بعد تصوّره والتصديق بفائدته»[2]. «والنية حالة نفسانية وجدانية يعبرّ عنها بالهمة والعزم والإرادة والقصد»[3]. ولا يمكن أن يخلو عمل اختياري لإنسانٍ من نيةٍ بأيّ حالٍ من الأحوال، فلو أراد شخصٌ ما الإتيان بأمرٍ اختياريٍّ بلا نيّة لما استطاع ذلك مهما حاول.

أهمية النيّة وموقعيتها في الإسلام

وللنية في الإسلام دورٌ مهمٌّ في إعطاء الفعل والموقف الإنساني قيمته الحقيقية، كما لها دورٌ في تقييم الفاعل أي تحديد قيمته وموقعه أو رتبته الحقيقية. فالإسلام لم يعط الفعل العبادي ولا الفاعل قيمةً ولا أهمّيةً مجرّدة عن النية والقصد وبمعزلٍ عنهما، بل إن الفعل العبادي في نظر الإسلام هو جهدٌ إنساني تحدّد قيمته النية والقصد، لأن مدار الأعمال على النيات فهي التي تعطي العمل قيمته الواقعية.

وبما أن النية تعبيرٌ عن الموقف الداخلي، وعن التوجّه الذاتي، والحقيقة الباطنة للإنسان التي هي روح الفعل الحقيقية، لذلك فإن النية تعتبر أداة كشفٍ عن حقيقة الباطن

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان 88-89.

(2) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 167، الباب الثالث، الفصل الأول:في حقيقة النية في العبادات. ترجمة السيد عباس نور الدين، الطبعة الأولى، بيروت 2009.

(3) م. ن.

الإنساني. تلك الحقيقة التي ليس بإمكان الفعل أن يكشفها لأن الفعل يمكن أن يخضع لعملية تزوير مقصودة من قبل الانسان، وذلك أنه صياغةٌ لجهدٍ ظاهر، يمكن أن يخرجه الفرد بشكلٍ لا يتطابق بالضرورة مع حقيقته الداخلية ومحتواه الباطن.

ومن أجل إيضاح الفكرة أكثر نقول إننا نرى الكثير من الناس يبذل المال، ويبدي حسن الخلق، ويصلّي ويصوم. ونحن نشاهد تلك الصور الظاهرة للأفعال متساوية في الظاهر عند جميع الممارسين لها، فنحسبها سواء، ولكن لتقييمها في نظر الإسلام وسيلة أخرى، ولوزنها ميزان آخر، وهو النية.

فالأعمال الّتي تكون على هيئة واحدة في الظّاهر، مثل الذّهاب للجهاد، لا تكون كلها متساوية في النية والدافع. فيمكن أن يكون الباعث لهذا العمل كسب الغنائم أو الاستعلاء على النّاس والتفاخر بالبطولات، أو قد يكون دافِعُهُ نصرة الحقّ ودفع الظّلم وإطفاء نار الفِتن وأمثال ذلك.

ولأجل ذلك، أتت الأوامر بإصلاح النيّة، وتنقيتها من الشّوائب، قبل السّلوك في أيّ طريق، وما السّالك في خطّ الله، والكمال المعنوي بِمُستثنى عن ذلك، فهل أنّ هدفه من سلوك سبيل التهذيب والرياضة، هو التّكامل المعنوي، والوصال الحقيقي، أم أنّه يريد كسب عنصر القّوة في عالم النفس، والتّسلط على ما وراء الطّبيعة، ليشار إليه بِالبَنان؟!

وما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم ﷺ: «**إنّما الأَعمالُ بالنِّيّاتِ ولكل امرئ ما نوى**»[1] إشارةٌ لهذا المعنى، وروي عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «**إن الرجلين من أمتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض**»[2].

وعندما يضع الإسلام موازينه ليزن الفعل، ويقوّم الفاعل، يتّخذ النية أساساً في الوزن والتقييم. فإن لم تكن النية خالصةً لله تعالى، كان هذا الفعل باطلاً، لا قيمة له، وخاسراً لا أجر لصاحبه. لأن فاعله لم يقصد القربة إلى الله، ولم يتوجّه إليه، بل كان كل همّه نفسه

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، ص48.
(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج81، ص249.

من أجل إظهارها بمظهر الصلاح والمقبولية لدى الآخرين.

لذا شدّد الدين الإسلامي التأكيد على أهمّية النيّة في تحديد قيمة الفعل، والمعيار بسيطٌ وهو: هل يُراد بهذا الفعل وجه الله تعالى أو سوى ذلك؟

وقد جاء الحديث النبوي الشريف واضحاً صريحاً في تأكيد هذا المعنى عندما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1].

وقد جاء في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**صاحب النية الصادقة، صاحب القلب السليم**»[2]. وسئل الامام جعفر الصادق عليه السلام عن العبادة وحدّها التي إذا فعلها فاعلها كان مؤدّياً فقال: «**حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منه**»[3]. فالنية إذاً هي مصدر قيمة الفعل، وعليها يتوقّف مدى قبوله عند الله، ونيل ثوابه.

إن الهيكل الشكلي الظاهري للفعل العبادي لا يعبّر عن إيمان صاحبه، حتى وإن توافق مع الشروط الفقهية والمظهر الخارجي للعبادات، إلاّ إذا كان صادراً عن نيّة صادقة مخلصة.

لأن تناقض النيّة مع الفعل العبادي الذي لا يُراد به سوى وجه الله تعالى، يفقده قيمته الحقيقية ويبطله، فلا يجني صاحبه إلاّ الجهد والعناء.

لذا فإن الأجر والثواب لا يوزنان عند الله تعالى وفق المقدار المؤدّى من الأفعال ولكن بقدر إخلاص النيّة في هذا الفعل، وبمدى تطابقه مع إرادة الله سبحانه. ففي الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ قال: «**أَخْلِصْ قَلْبَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ**»[4].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص90، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1987م، ط 1، باب استحباب نية الخير والعزم عليه.

(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص210.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص83.

(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص175.

ما هو الإخلاص ومن هو المخلص؟

قلنا إن النية هي ميزان قبول الأعمال وإن المعيار هو كونها خالصة لله، فما معنى أن تكون النية خالصةً لله تعالى؟ وما هو الإخلاص؟ وما هي حقيقته؟

في كتابه الآداب المعنوية للصلاة يقول الامام الخميني قدس سره: «من مهمات آداب النية وهو في نفس الوقت من مهمات جميع العبادات ومن المقررات الكلية الشاملة، الإخلاص، وحقيقته تصفية العمل عن شائبة سوى الله وتصفية السرّ عن رؤية غير الحق تعالى في جميع الأعمال الصورية واللبّية والظاهرية والباطنية وكمال الإخلاص ترك الغير مطلقاً وجعل الإنيّة والأنانية والغير والغيرية تحت قدميك»[1].

الإخلاص في العمل هو تنزيه العمل أن يكون لغير الله فيه نصيب. وفي الحديث الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إن لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَما بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإخلاصِ حَتّى لا يُحِبَّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَى شَيء مِنْ عَمَل لله**»[2].

والإخلاص لله هو غاية الدين كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإخلاص غاية الدين**»[3]، وهو أفضل العبادات، بل هو روح العبودية لله وجوهرها، كما أخبر عن ذلك إمامنا الصادق عليه السلام: «**أفضل العبادة الإخلاص**»[4]. فحقيقة الإخلاص تخليص نيّة الإنسان وعمله من شائبة غير الله تعالى، وهو لا يتحقّق إلا عند من كان محبّاً لله عزّ وجلّ بحيث لا يبقى لحبّ الدنيا وشهواتها وملذّاتها وسمعتها وجاهها ومناصبها في قلبه قرار. فعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**لا يَكُونُ العَبْدُ عابِداً للهِ حَقَّ عِبادَتِهِ حَتّى يَنْقَطِعَ عَنِ الخَلْقِ كُلِّهُ إلَيهِ، فَحِينَئِذ يَقُولُ هذا خالِصٌ لِي فَيَتَقَبَّلَهُ بِكَرَمِهِ**»[5].

فالمخلص هو الذي لا يطلب من وراء أيّ عملٍ يقوم به سوى الله تعالى، ولا يكون له

---

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 171، الباب الثالث في سر النية وآدابها، الفصل الثاني: في الاخلاص.

(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج69، ص30.

(3) الليثي، الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، ص19، تحقيق وتصحيح البيرجندي، قم، نشر دار الحديث، 1418هـ ط1.

(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص245.

(5) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص101.

مقصدٌ أو دافعٌ سوى رضاه، والتقرّب إليه، ونيل الزّلفى لديه. بحيث تكون نيّته متوجّهةً دائماً إلى الله، فلا تطلب إلّا رضاه ووجهه الكريم، حبّاً به، وطمعاً في فضله وإحسانه، لأن العمل الخالص هو الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحدٌ سوى الله تعالى.

الله تعالى لا يقبل إلا العمل الخالص، إن أعمال الناس مرهونة بالنيّات وإذا لم تكن النوايا خالصةً، فهذا يعني أنّه يشوبها الشّرك والله تعالى لا يغفر أن يشرك به: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾[1]، لأن الشرّك ظلمٌ عظيمٌ ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[2].

والله تعالى لم يأمر إلا بالإخلاص كما في قوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[3]، وهو بالأصل لا يقبل إلا ما كان له خالصاً، كما في الحديث القدسّي المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال الله عزّ وجلّ أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً**»[4] فما لم يكن العمل مقبولًا عند الله فلا قيمة له على الإطلاق.

فالله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص حيث قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾[5]، فإذا كان لشيءٍ من الأهواء النفسيّة والحظوظ الدنيويّة دخلٌ في الدين فلا يكون خالصاً، وما كانت فيه شائبة الغيريّة والنفسانيّة فهو خارج عن حدود دين الحق. فإذا صار همّ الإنسان الناس ونظرتهم إليه وما يقولونه فيه، وأصبح هدفه وقصده الملذّات الدنيويّة والشهوات الرّخيصة، اتّباعاً لأهواء النفس وأوامرها فمن الطبيعي أن لا يصل إلى درجة الإخلاص، لأن المطاع ليس الله، كما أن المقصد والمطلوب أيضاً ليس الحق عزّ اسمه، بل المطاع هي الأنا والأهواء، والمراد هو الملذّات والشهوات، والدنيا الفانية. والنتيجة الحتميّة لطاعة النّفس والهوى هي الضّلالة كما أخبر تعالى في كتابه العزيز حيث قال: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[6].

(1) سورة النساء، الآية 116.
(2) سورة لقمان، الآية 13.
(3) سورة البينة، الآية 5.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص295.
(5) سورة الزمر، الآية 3.
(6) سورة الجاثية، الآية 23.

وعليه نخلص من كل ما سبق إلى أن الإخلاص أساس الدين ودعامته التي يرتكز عليها في عمليّة بناء الإنسان على خطّ الإيمان بالله والتوجّه الدائم إليه وتوحيده. كما أنه رأس الفضائل، والمناط في قبول الأعمال وصحّتها، فلا قيمة لعملٍ لا إخلاص معه، كما ورد عن مولى الموحّدين الإمام علي عليه السلام: «**من لم يصحب الإخلاص عمله لم يقبل**»[1].

وقال عليه السلام في شأن المخلصين: «**طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره**»[2].

آثار الإخلاص

للإخلاص آثارٌ وخصائص عديدةٌ وردت في النصوص والروايات الشريفة، لا يتمتّع بها إلّا المخلصون والمنقطعون إلى الله تعالى بنيّاتهم وأعمالهم، أما الآخرون فمحرومون من هذه النِّعم والكرامات السَّنيّة. وفيما يلي نذكر بعضاً منها:

أولاً: عدم تسلّط الشيطان على الإنسان المخلص، بحيث لا يعود للشيطان قدرة على إغوائه. لأن الله تعالى حاضرٌ دائماً في حياته، فهو لا يرى غيره، ولا يفكّر إلّا فيه، ونيّته دائماً متوجّهة إليه، فلا يكون للشيطان إليه سبيل: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

ثانياً: الإنسان المخلص مُعفى من الحساب في يوم الحشر وعند الوقوف في عرصات يوم القيامة. فقد أشار القرآن الكريم إلى وجود فئة من الناس تأمن صعقة يوم القيامة وفزعه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[4]، وفي آيةٍ أخرى يقول الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[5]، فإذا ضممنا

(1) الآمدي، غرر الحكم، ص155.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص16.
(3) سورة ص، الآيتان 82-83.
(4) سورة الزمر، الآية 68.
(5) سورة الصافات، الآيتان 127-128.

هذه الآية إلى الأولى يتّضح أن هذه الطائفة من النّاس هي عباد الله المخلصين، لأنه ليس لهؤلاء أعمال توجب حضورهم في عرصات يوم القيامة، فهم قد قتلوا النفس الأمّارة بالسوء في ساحات جهاد النفس وترويضها بالمراقبة والعبادة والأعمال الصالحة، وتمّ لهم حسابهم خلال فترة جهادهم لعدوّهم الباطنيّ والظاهريّ في الحياة الدنيا.

ثالثاً: كلّ ما يُعطى الإنسان في يوم القيامة من ثوابٍ وأجرٍ فهو مقابل ما عمله في الحياة الدنيا إلّا طائفة المخلَصين من الناس، فإن الكرامة الإلهيّة لهم تتعدّى حدود الأجر على العمل كما أخبر تعالى بذلك في كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]، فعباد الله المخلَصين لن يكون جزاؤهم بحسب أعمالهم، بل الله المنّان سوف يعطيهم بفضله وكرمه. فهم لا ينالون الجزاء مقابل العمل وإنّما ينالون من الكرامات الإلهيّة وفق إرادته تعالى ومشيئته وفيض كرمه وسعة عطائه الذي لا حدّ له.

رابعاً: إن لهؤلاء المقام المنيع والمنصب الرّفيع والمرتبة العظيمة التي يستطيعون فيها أداء الحمد والشّكر والثناء للذّات المقدّسة كما هو لائقٌ بها. قال عزّ من قائل ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]، وهذه غاية كمال المخلوق. فهذه الآية وصفت المخلصين بأنهم الوحيدون الذين يصحّ منهم وصف الذات الإلهيّة المقدّسة، مما يدلّ على عمق معرفتهم بالله سبحانه وتعالى، فلم يكن في وصفهم لله تعالى أيّ إشكال بخلاف سائر الناس.

خامساً: من يخلص لله يرزقه الله العلم والحكمة كما في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أخلص العبادة لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[3]. فالمداومة على الإخلاص تورث الإنسان العلم الإلهي الّذي ليس فوقه أيّ علم.

(1) سورة الصافات، الآيتان 39-41.
(2) سورة الصافات، الآيتان 159-160.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج53، ص326.

سادساً: من يخلص لله تعالى في النيّة والعمل يرزقه الله تعالى البصيرة في دينه، فلا تلتبس عليه الأمور، ولا يقع في مضلّات الفتن، ويصبح عارفاً بطريقه جيّداً وموقناً بما يفعله. فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**عند تحقّق الإخلاص تستنير البصائر**»[1].

سابعاً: نجاح الأعمال، فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**فِي إخلاصِ النيّاتِ نَجاحُ الأمورِ**»[2]. وقال عليه السلام أيضاً: «**لَو خَلُصَتِ النِّيَّاتُ لَزَكَتِ الأعمالُ**»[3].

كيف يتحقّق الإخلاص؟

يتحقّق الإخلاص من خلال إزالة المانع الذي يحول دون تحقّقه، وهذا المانع هو هوى النفس. فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**كيف يستطيع الإخلاص من يغلبه الهوى!**»[4].

والهوى هو حبّ النفس واتّباع الأوامر الصادرة منها، وهو ما يُعتبر شركاً، لأنّ المُطاع فيه هو نفس الإنسان وليس الحقّ عزّ وجلّ. إن اتّباع الهوى يؤدّي بالإنسان إلى الضّلال عن سبيل الله عزّ وجلّ وصراطه المستقيم، ذلك أن سبيله تعالى مرهونٌ بأمرين هما التوحيد والطاعة، وقد قال عزّ من قائلٍ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[5]. وللأسف فإننا في كثيرٍ من الموارد نجعل أهواءنا مكان الله تعالى، وننصاع لميولنا النفسيّة بدل الانصياع لأحكام الشّرع.

من هنا يقول الحقّ تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[6]، فإن حبّ النفس يؤدّي إلى طاعتها واتّباع أوامرها، واتّباع أوامرها يعني أن المُطاع ليس الله تعالى، ممّا يكون سبباً في وقوع الإنسان في المعصية والمخالفة لأوامر الحق عزّ وجلّ، وبالتالي البعد عن الله والحرمان من الهداية.

---

(1) التميمي، الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ص198. تحقيق وتصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم، قم، نشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي، 1404هـ ط1.

(2) م. ن، ص93.

(3) م. ن.

(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج12، ص115.

(5) سورة ص، الآية 26.

(6) سورة النازعات، الآيتان 40 - 41.

وهناك أمرٌ آخر يساعد أيضاً على تحقّق الإخلاص وهو اليقين. لأن الإخلاص لله هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهيّة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإخلاص ثمرة اليقين**»[1]. فلكي يغدو الإنسان مخلصاً يجب أن يكون صاحب يقينٍ على مستوى التوحيد، ومؤمناً بأنه لا مؤثّر في الوجود إلا الله، وأنّ كلّ شيء في هذا العالم يبدأ من الله ويعود إليه، ليكون من: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[2].

والخطوة الأولى نحو اليقين الصحيح تكمن بالعلم والمعرفة بأسس هذا الدين ومبادئه ومعارفه الإلهية، ومن دون هذه المعرفة يبقى يقين الإنسان ضعيفاً ومتزلزلاً، وبالتالي محروماً من فضيلة الإخلاص. عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**أوّل الدين معرفته وكمال معرفته، التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له**»[3].

(1) الآمدي، غرر الحكم، ص197.

(2) سورة البقرة، الآية 156.

(3) السيد الرضي، محمد بن حسين، نهج البلاغة خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق وتصحيح صبحي الصالح، قم، دار الهجرة، 1414هـ، ط 1،خطبة1.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - الفعل العبادي في المنظور الإسلامي هو جهدٌ إنساني تُحدّد قيمته النية والقصد ☐

2 - اتباع الهوى يؤدّي بالإنسان إلى الضّلال عن سبيل الله عزّ وجلّ وصراطه المستقيم ☐

3 - إنّ الأجر والثواب على الأعمال يوزنان عند الله تعالى وفق المقدار المؤدّى من الأفعال فقط ☐

4 - الإخلاص في العمل هو تنزيه العمل من أن يكون لغير الله فيه نصيب ☐

5 - العمل الخالص هو الذي تريد أن لا يمدحك عليه أحدٌ سوى الله تعالى ☐

6 - إنّ الإخلاص في الأعمال لله سبحانه وتعالى يؤدّي إلى عدم تسلّط الشيطان على إرادة الإنسان وبالتالي انحرافه عن جادّة العبادة الحقّة ☐

7 - الخطوة الأولى نحو اليقين الصحيح تكمن بالالتزام بالأوامر الإلهية ومن دون ذلك فلا يقين يسير بالعابد نحو الحق تعالى ☐

8 - يتحقّق الإخلاص من خلال إزالة المانع الذي يحول دون تحقّقه، وهذا المانع هو هوى النفس ☐

9 - إنّ الإخلاص لله هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهيّة الحقّة ☐

10 - الهوى هو حبّ النفس واتّباع الأوامر الصادرة منها، وهو لا يُعتبر شركاً، بل انحراف عن طريق العبادة الصحيحة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. الفعل العبادي في نظر الإسلام هو جهدٌ إنساني تُحدّد قيمته النية والقصد، لأن مدار الأعمال على النيات فهي التي تعطي العمل قيمته الواقعية.
2. إن الأجر والثواب لا يوزنان عند الله تعالى وفق المقدار المؤدّى من الأفعال، ولكن بقدر إخلاص النيّة في هذا الفعل، وبمدى تطابقه مع إرادة الله سبحانه.
3. الإخلاص في العمل هو تنزيه العمل أن يكون لغير الله فيه نصيب. وهو غاية الدين وهو روح العبودية لله وجوهرها. وحقيقة الإخلاص تخليص نيّة الإنسان وعمله من شائبة غير الله تعالى. والعمل الخالص هو الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحدٌ سوى الله تعالى.
4. الله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص حيث قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾، فإذا كان لشيءٍ من الأهواء النفسيّة والحظوظ الدنيويّة دخلٌ في الدين فلا يكون خالصاً، وما كانت فيه شائبة الغيريّة والنفسانيّة فهو خارج عن حدود دين الحق.
5. للإخلاص آثار وخصائص عديدة على المخلص: عدم تسلّط الشيطان، إعفاؤه من الحساب يوم القيامة، نيل الكرامات الإلهيّة، يصحّ منه وصف الذات الإلهيّة المقدّسة، يرزق العلم والحكمة والبصيرة في دينه، نجاح الأعمال.
6. يتحقّق الإخلاص من خلال إزالة المانع الذي يحول دون تحقّقه، وهذا المانع هو هوى النفس. وأيضاً من خلال اليقين، لأن الإخلاص لله هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهيّة.
7. الخطوة الأولى نحو اليقين الصحيح تكمن بالعلم والمعرفة بأسس هذا الدين ومبادئه ومعارفه الإلهية، ومن دون هذه المعرفة يبقى يقين الإنسان ضعيفاً ومتزلزلاً.

للمطالعة

في بيان الإخلاص بعد العمل

اعلم أنّ ما ورد في الحديث الشريف «**الإِبْقَاءُ عَلَى العَمَلِ حَتَّى يَخْلُصَ أَشَدُّ مِنَ العَمَلِ**» حثٌّ على لزوم المحافظة والمواظبة على الأعمال، التي تصدر من الإنسان، حين إنجازها وبعد تحقّقها، إذ قد يأتي الإنسان بالعمل من دون عيب ونقص، ويكون خالياً من الرياء والعُجب وغيره، ولكنه بعد العمل وبواسطة ذكره للآخرين يُعاب بالرياء. كما ورد في الحديث الشريف المنقول عن الكافي: «**عَنْ أبي جَعْفَرٍ** عليه السلام **أَنَّهُ قَالَ: الإِبْقاءُ عَلَى العَمَلِ أَشَدُّ مِنَ العَمَلِ. قالَ: وَمَا الإِبْقاءُ عَلَى العَمَلِ؟ قالَ: يَصِلُ الرَّجُلُ بِصِلَةٍ وَيُنْفِقُ نَفَقَةً لِلّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فَكُتِبَ لَهُ سِرّاً ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُمْحى فَتُكْتَبُ لَهُ علانَيَةً ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُكْتَبُ لَهُ رِياءً**»[1].

إنّ الإنسان حتى نهاية حياته لا يأمن أبداً من شرّ الشيطان والنفس، وعليه أن لا يظنّ بأنه عندما أتى بعمل لوجه الله، من دون ملاحظة رضا المخلوق، أصبح في مأمنٍ من شرّ النفس الخبيثة. وإنه إذا لم يراقب العمل ولم يواظب عليه، فمن الممكن أن تجبره نفسه على إظهاره أمام الآخرين. وقد يتمّ الإظهار بالإيماء والتلويح، فمثلاً: إذا أراد أن يكشف عن صلاة الليل التي أتى بها للناس، التجأ إلى أساليب اللفّ والدوران، فيتحدّث عن حسن جوّ السَحَرِ أو رداءته وعن مناجاة الناس أو أذانهم في السحر، وضيّع عمله من جرّاء المكائد الخفيّة للنفس، وألغاه من الاعتبار.

يجب أن يكون الإنسان مثل الطبيب الرحيم، والمرافق الرؤوف يراقب نفسه، ولا يسمح لفلتان زمامها مِنْ يده، لأنها في لحظة من الغفلة تنفلت من يده وتقوده إلى الذل والهلاك. وعلى أي حال نستعيذ بالله من شرّ الشيطان والنفس الإمّارة. ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2][3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 296.
(2) سورة يوسف، الآية 53.
(3) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحَديث العشرون: النيَّة.

الدرس الخامس

العبادات أنواعها وشروطها

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يستنتج أنّ مراعاة الأحكام الشرعية للعبادات شرط لصحّتها.

2 . يستنتج أنّ مراعاة الآداب الظاهرية والمعنوية شرط لقبول العبادة وكمالها.

3 . يذكر نبذة عن كيفية عبادة وصلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وحالاتهم فيها.

أنواع العبادات في الإسلام

تنقسم العبادات في الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يختصّ بالأبدان كالصّلاة والصّوم.

القسم الثّاني: يختصّ بالأموال كالزّكاة والحقوق الواجبة المتعلّقة بالأموال.

القسم الثّالث: يختصّ بالأبدان والأموال كالحجّ والجهاد.

وتنقسم هذه العبادات بتقسيم آخر إلى ثلاثة أقسام أخر:

الأوّل: يتكرّر في كلّ يوم كالصّلوات الخمس.

الثاني: يتكرّر في كلّ سنة كالصّوم والزّكاة.

الثّالث: يلزم في العمر مرّة، وهو الحجّ لا غير.

فأمّا الجهاد فيجب بحسب الحاجة إليه وحسب ما يدعو إليه المعصوم عليه السلام أو نائبه وهو الولي الفقيه في عصرنا الحاضر. والعبادات في الإسلام كثيرة ومتنوعة، لذا سنقتصر في هذا الكتاب على نماذج منها[1].

أحكام العبادات وآدابها

إن للعبادات أحكاماً وآداباً ينبغي مراعاتها لكي تتحقق الثمرة من فرضها وجعلها هدفاً سامياً للخلقة الإنسانية. فأحكامها الشرعية هي الأحكام الفقهية والقواعد المذكورة في الكتب الفقهية من قبيل: كيفية الوضوء والتيمم، وبيان واجبات الصلاة وأركانها. ويجب

(1) الدروس التي اخترنا تناولها في هذا الكتاب هي: الصلاة والصيام وقراءة القرآن والدعاء وزيارة مشاهد الأولياء والتوسّل والحج. نظراً لأهمية هذه العبادات في حياة الإنسان المؤمن. وقد استثنينا العبادات ذات الطابع المالي البحت حيث تُطلب في مواردها الخاصة.

على كل مكلّف تعلّم هذه الأحكام وأداء عباداته الشرعية وفقها، فهي المعيار في الحكم على صحّتها من عدمها.

وأما آداب العبادة فتقسم إلى نوعين، ظاهرية وباطنية:

1. **آداب العبادة الظاهرية:** ذكرتها الكتب الفقهية بعنوان المستحبات، كما ذُكر بعضها في كتب الأخلاق. وهي من قبيل: الأذكار المستحبة عند الوضوء، أو استحباب التختم بالعقيق أو إحناء الرأس أثناء القيام والقراءة في الصلاة.
2. **آداب العبادة المعنوية:** وتسمّى أيضاً الآداب المعنوية للعبادة، ويُطلق عليها أحياناً أسرار العبادة فإنها تذكر عادةً في الكتب الأخلاقية والعرفانية، وهي أمور روحية باطنية مرتبطة بروح الإنسان، من قبيل: حضور القلب في الصلاة، والخشوع في الدعاء.

وإن مراعاة الآداب الظاهرية والآداب المعنوية للعبادة هي شرطٌ لقبول العبادة وكمالها.

وللتوضيح نقول: إن الدعاء مثلاً له أحكامٌ وآدابٌ ظاهرية وآداب باطنية أي معنوية، فمن أحكام الدعاء استحبابه ما لم يكن في طلب المحرّم، أو قصد الضرر للآخرين.. وأما آداب الدعاء الظاهرية فهي الهدوء والسكينة وعدم رفع الصوت إلى الحدّ المكروه، لأن الصوت العالي خلاف الأدب. وأما آداب الدعاء المعنوية فهي روح الدعاء، حيث يشعر الداعي بأنه في محضر الله عزّ وجلّ، وأن المدعوّ سبحانه مطّلعٌ عليه وهو خير الشاهدين.

وقد قلنا بأن مراعاة الأحكام الظاهرية للعبادات شرطٌ لصحّتها وأن مراعاة الآداب الظاهرية والمعنوية للعبادات هو شرطٌ لقبول الأعمال العبادية وكمالها. فصحّة الأعمال هو أمرٌ مختلفٌ عن مقبوليّتها من جانب الله عزّ وجل، فكم من عبادةٍ صحيحةٍ بحسب الظاهر والأحكام الشرعية ولكنها لا تساوي شيئاً عند ربّ العالمين، وليس ذلك سوى لأنها تفتقر إلى الحدّ الأدنى من مراعاة الآداب المعنوية للعبادة.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يَكْمُل المؤمن إيمانه حتّى يحتوي على مائة وثلاث خصال فعلٍ وعملٍ ونيّةٍ وظاهرٍ وباطنٍ. فقال أمير المؤمنين عليه السلام يا رسول الله ما يكون المائة وثلاث خصالٍ؟ فقال: يا عليّ من صفات المؤمن أن يكون جوّال الفكر جوهريّ الذّكر كثيراً علمه عظيماً حلمه...**»[1].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص179.

أهميّة التعرّف إلى الآداب المعنوية للعبادات

إنّ الآداب المعنوية للعبادات أي الأسرار الإلهية حقيقةٌ واقعية لا يصل إليها إلا فئة من الناس يصفهم القرآن الكريم بالمطهّرين: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[1]. حيث يقول العلامة الطباطبائي في تفسيرها: وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾... والمعنى: لا يمسّ الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلا المطهّرون أو لا يمسّ القرآن الذي في الكتاب إلا المطهّرون...

والمطهّرون - اسم مفعول من التطهير- هم الذين طهّر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب أو ممّا هو أعظم من ذلك وأدقّ وهو تطهير قلوبهم من التعلّق بغيره تعالى، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمسّ الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر.

فالمطهّرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهّرهم الله من البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2].

وفي الدر المنثور، عن ابن عباس عن النبي ﷺ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾[3] قال: «**عند الله في صحف مطهرة**» ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال: «**المقرّبون**»[4].

ولما كانت معارف وحقائق القرآن لا يحظى بها إلا المطهّرون، فكذلك العبادات لا يحظى بأسرارها ومعارفها إلا المطهّرون، وعندها تكون للعبادة لذّة وسرور، فلا تساوي لذّتها أي لذّة أخرى.

نحن نصلّي ولكنّنا لا نرى للصلاة أيّ تأثيرٍ ولا نحسّ بنورانيّتها، والسبب هو أننا نصلّي

(1) سورة الواقعة، الآية 79.
(2) سورة الأحزاب، الآية 33.
(3) سورة الواقعة، الآيتان 77 ـ 78.
(4) العلامة الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج19، ص137 و141، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1417هـ ط5.

دون معرفةٍ بأسرار الصلاة، في حين أن اللذّة تكمن في معرفة باطن الصلاة. وهنا تكمن أهمّية التعرّف إلى أسرار العبادات والآداب الباطنية لها. لأن هذه المعرفة هي التي تمكّننا من الحصول على ثمار العبادات النّفيسة التي إنّما كان تشريع العبادات بهدف امتلاك العابد لها ونيله لآثارها المباركة.

إن الدور الأساسي لمعرفة أسرار العبادات وآدابها المعنوية إنّما يرتبط بحقيقة النيّة التي يؤدّي الإنسان عباداته وفقها، فإن العبادة التي يأتي بها إنسانٌ عارفاً بأسرارها سوف تختلف حتماً على مستوى النية الباطنية عن تلك التي يأتي بها إنسانٌ آخر وهو غير ملتفتٍ إلى وجود حقيقةٍ وأسرارٍ للعبادة، حتى وإن كانت عبادتاهما لا تختلفان في أي شيء على مستوى الظاهر.

ومرجع هذا الاختلاف إنما ينبع من أن تصنيف العبادات بين أحكام ظاهرية وآداب باطنية ينطلق من حقيقة أن لكلّ عبادةٍ ظاهراً وباطناً، كما أسلفنا سابقاً: فالأحكام الواجبة والمستحبة تعيّن الشكل الظاهري لهذه العبادة أي قشرها، أما الإرادة والنية فهما يعيّنان باطن هذه العبادة ويعطيانها قيمتها أي حقيقتها.

فكما أن معرفة المكلّف بالأحكام الظاهرية للعبادة هو الأساس في أدائه لها بصورة صحيحة، كذلك فإن معرفته بأحكامها الباطنية هو الأساس في توجيه نيته نحو أدائها بحقيقتها الباطنية المطلوبة.

نبذة من عبادة النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام

يحتاج الإنسان في حياته دائماً إلى القدوة والمثل الأعلى فيجعله أمام عينيه، ليقتدي ويتأسّى به كي يتمكّن بذلك من الوصول إلى أهدافه وغاياته في هذه الحياة.

فكل صاحب غاية إذا أراد أن يسلك أسرع الطرق الموصلة إلى مراده فما عليه إلا أن يتّخذ لنفسه خليلاً أو قدوة لديه نفس الرغبات والتوجّهات لما للصحبة من تأثيرٍ كبيرٍ على همّة الإنسان وقوة عزيمته. ومن أراد أن تكون العبودية لله هي هدفه وبغيته دائماً في هذه الحياة ما عليه إلا أن يبحث عن المصداق الحقيقي والواقعي لهذه العبودية، لتكون

بمثابة المحفّز نحو العبادة والمثبّت له للوصول إلى العبودية الحقّة لله سبحانه تعالى. ونحن لو بحثنا عن النموذج الأمثل والأتم لأناسٍ تجلّت العبودية في وجودهم بأجلى وأعلى مراتبها لما وجدنا غير رسول الله محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1]. ونقرأ في زيارتهم عليهم السلام: «**اللّهمّ إنّي لو وجدت وسيلةً أقرب إليك من محمّد وأهل بيته الأخيار الأئمّة الأبرار عليهم السلام لجعلتهم شفعائي إليك**»[2]. وفيما يلي نستعرض نماذج من عبادات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبعض أهل بيته عليهم السلام:

1. عبادة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:

أعظم الرجال الذين عرفتهم البشرية في تجسيد العبودية لله تعالى هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى أن المسلم يشهد في صلاته يومياً: «أشهد أن محمداً عبده ورسوله» مقدّماً مقام العبودية على مقام الرسالة. ولكثرة عبادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لله تعالى واجتهاده وتعبه فيها، أنزل تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[3].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع، حتّى عوتب في ذلك فقال الله عزّ وجلّ:** ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[4] **بل لتسعد**»[5].

وقد عبّر صلى الله عليه وآله وسلم عن عشقه للصلاة والعبادة بالقول: «**يا أبا ذرّ جعل الله جلّ ثَنَاؤه قرّة عيني في الصّلاة وحَبّب إليّ الصّلاة كما حَبّب إلى الجائع الطّعام وإلى الظّمآن الماء وإنّ الجائع إذا أكل شبع وإنّ الظّمآن إذا شرب رَوِيَ وأنا لا أشبع من الصّلاة**»[6].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 21.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص423.
(3) سورة طه، الآية 2.
(4) سورة طه، الآيتان 1 ـ 2.
(5) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج17، ص286.
(6) م. ن، ج74، ص79.

وكان النبي ﷺ يكثر من قراءة القرآن الكريم في كل أحواله، وكان يركّز على تلاوته ليلاً لأمر الله تعالى له بذلك في سورة المزّمل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1].

وكان ﷺ دائم الدعاء والذكر لله تعالى، فنجد له أدعيةً في جميع الأحوال عند الصباح والمساء، وبعد كل صلاة، وعند السفر وفي الحرب... وأما الذّكر فقد كان ذاكراً على الدوام وقد ورد في ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله ﷺ يحمد الله في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ويقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً على كل حال**»[2].

أما صومه ﷺ فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام فيه: «**صام رسول الله ﷺ الدهر كلّه ما شاء الله، ثم ترك ذلك وصام صيام أخيه داود عليه السلام يوماً لله ويوماً له ما شاء الله ثم ترك ذلك فصام الاثنين والخميس ما شاء الله، ثم ترك ذلك فصام الاثنين والخميس ما شاء الله، ثم ترك ذلك وصام البيض ثلاثة أيام من كل شهر، فلم يزل ذلك صيامه حتى قبضه الله إليه**»[3].

2. عبادة أمير المؤمنين علي عليه السلام:

كانت عبادة أمير المؤمنين عليه السلام لله تعالى كعبادة رسول الله ﷺ في صلاته وخشوعه، حتى قيل إنه لم يقدر أحدٌ أن يصلّي صلاة رسول الله ﷺ إلا علي عليه السلام، ولا صلاة علي عليه السلام إلا علي بن الحسين عليه السلام.

رُوي عن إمامنا جعفر الصادق عليه السلام في حديث له عن جدّه علي عليه السلام أنه قال: «**والله ما أكل علي بن أبي طالب من الدنيا حراماً قطّ حتى مضى لسبيله، وما عرض له أمران قط هما لله رضاً، إلا أخذ بأشدّهما عليه في دينه**، (إلى أن قال) **وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليه السلام، ولقد دخل ابنه أبو جعفر عليه السلام عليه، فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفرّ لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه**

(1) سورة المزمل، الآيتان 1-2.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 503.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج10، ص437.

من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، قال أبو جعفر عليه السلام :«فلم أملك حين رأيته بتلك الحال من البكاء، فبكيت رحمةً له، وإذا هو يفكر، فالتفت إلي بعد هنيهة من دخولي وقال: يا بنيّ أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام، فأعطيته فقرأ منها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده متضجّراً وقال: «من يقوى على عبادة علي بن أبيطالب عليه السلام ؟»[1].

ويُروى أنه: «كان عليه السلام يفرش له بين الصفين والسهام تتساقط حوله وهو لا يلتفت عن ربه ولا يغير عادته ولا يفتر عن عبادته وكان إذا توجه إلى الله تعالى توجه بكليته وانقطع نظره عن الدنيا و ما فيها حتى أنه يبقى لا يدرك الألم لأنهم كانوا إذا أرادوا إخراج الحديد والنشاب من جسده الشريف تركوه حتى يصلي فإذا اشتغل بالصلاة وأقبل إلى الله تعالى أخرجوا الحديد من جسده ولم يحس فإذا فرغ من صلاته يرى ذلك فيقول لولده الحسن عليه السلام إن هي إلا فعلتك يا حسن ولم يترك صلاة الليل قط حتى في ليلة الهرير»[2].

وعن عروة بن الزبير، قال: «كنّا نتذاكر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمال أهل بدر وبيعة أهل الرضوان، فقال أبو الدرداء: ألا أخبركم بأقل القوم مالاً وأكثرهم ورعاً واجتهاداً في العبادة؟ قالوا: من؟ قال: علي بن أبي طالب عليه السلام، رأيته في حائط بني النجار يدعو، ثم انغمر في الدعاء، فلم أسمع له حسّاً وحركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، فذهبت لكي أوقظه لصلاة الفجر فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فلم يتحرك، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله علي بن أبي طالب عليه السلام. فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام : **«يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وقصته؟»**، فأخبرتها الخبر. فقالت عليها السلام : «**هي والله يا أبا الدرداء الغشوة التي تأخذه من خشية الله**». ثم أتوه بماء فنضحوا على وجهه فأفاق، ونظر إليّ وأنا أبكي. فقال عليه السلام : «**ما بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: بما أراه تنزله بنفسك. فقال عليه السلام : «كيف بك إذا رأيتني أدعى إلى**

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج46، ص75.

(2) الحسن بن محمد الديلمي، إرشاد القلوب،ج2، ص21 ،انتشارات الشريف الرضي، 1415 - 1374ش، ط 2.

الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ شداد وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار وأسلمتني الأحباب، ورفضني أهل الدنيا لكنت أشد رحمة بي بين يدي من لا تخفى عليه خافية»[1].

ولشدّة ارتباطه بالصلاة فقد ختم حياته عليه السلام وهو ساجدٌ في صلاة الفجر في محراب مسجد الكوفة.

3. عبادة السيدة الزهراء عليها السلام:

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رواية ذكر فيها مقام ومنزلة وعبادة السيدة الزهراء عليها السلام متى قامت في محرابها بين يديّ ربّها: «**... وأمّا ابنتي فاطمة فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين وهي بضعة منّي وهي نور عيني وهي ثمرة فؤادي وهي روحي التي بين جنبيّ وهي الحوراء الإنسيّة متى قامت في محرابها بين يدي ربّها جلّ جلاله زَهَرَ نورها لملائكة السّماء كما يَزهَر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عزَ وجلّ لملائكته يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة سيّدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي وقد أقبلت بقلبها على عبادتي أشهدكم أنّي قد آمنت شيعتها من النّار**»[2].

ويُروى أنها عليها السلام كانت تنهج في الصلاة من خيفة الله تعالى (والنهج هو تواتر النفس من شدّة الحركة)، وكانت تقوم حتى تتورّم قدماها[3].

4. عبادة الإمام الحسن عليه السلام:

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إن الحسن بن علي عليه السلام كان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عزّ وجلّ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار**»[4].

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج41، ص11.
(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج28، ص37.
(3) م. ن، ج81، ص 258.
(4) م. ن، ج81، ص 258.

5. عبادة الإمام الحسين عليه السلام:

وأما إمامنا الحسين عليه السلام ففي ليلة العاشر من محرّم طلب من الجيش الأموي أن يمهله تلك العشيّة قائلاً: «**إنّا نريد أن نصلّي لربّنا الليلة ونستغفره، فهو يعلم أني أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار**»[1]. وقد رُوي أنه عليه السلام كان إذا توضّأ تغيّر لون وجهه وارتعدت مفاصله، فسُئل عن ذلك، فقال: «**حقٌّ لمن وقف بين يديّ ذي العرش أن يصفرّ لونه وترتعد مفاصله**»[2].

كانت هذه نبذة يسيرة من عبادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيت العصمة عليهم السلام بقدر ما تتّسع لها هذه الأوراق، والمصادر التاريخية زاخرةٌ بشواهد على عباداتهم الزاكية والراقية لله تعالى...

(1) السيد ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، ص54، أنوار الهدى - قم - ايران، 1417، ط 1.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج77، ص 346.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - إنّ للعبادات أحكاماً وآداباً ينبغي مراعاتها لكي تتحقّق الثمرة من فرضها وجعلها هدفاً سامياً للخلقة الإنسانية ☐

2 - إنّ مراعاة الآداب الظاهرية والمعنوية للعبادة ليست شرطاً أساسياً لقبول العبادة وكمالها ☐

3 - الأحكام الشرعية للعبادات هي الأحكام الفقهية والقواعد المذكورة في الكتب الفقهية فقط ☐

4 - ليس واجباً على كل مكلّف تعلّم كافة الأحكام الفقهية وأداء عباداته الشرعية وفقها بل يكفي تعلّم المسائل الفقهية الضرورية فقط ☐

5 - افتقار العبادة إلى الحدّ الأدنى من مراعاة الآداب المعنوية للعبادة يؤدّي إلى بطلانها ☐

6 - إنّ القيام بآداب العبادة الباطنية والظاهرية لا يرتبط بالنية، بل يكفي العمل بتلك الآداب ولو ظاهرياً ☐

7 - العبادة التي يأتي بها الإنسان عارفاً بأسرارها سوف تختلف حتماً على مستوى النية الباطنية عن تلك التي يأتي بها آخر وهو غير ملتفت حتى إلى وجود حقيقةٍ وأسرارٍ للعبادة ☐

8 - الإرادة والنية في العبادة يعيّنان ظاهر العبادة ويعطيانها قيمتها الحقيقية والواقعية ☐

9 - يُمثّل المعصومون المثال الأتم الذي تجلّت العبودية الحقيقية في وجودهم بأجلى وأعلى مراتبها ☐

10 - من صفات المؤمن أن يكون جوّال الفكر جوهريّ الذّكر كثيراً علمه عظيماً حلمه ☐

المفاهيم الرئيسة

1. إن للعبادات أحكاماً وآداباً ينبغي مراعاتها لكي تتحقق الثمرة من فرضها وجعلها هدفاً سامياً للخلقة الإنسانية.
2. الأحكام الشرعية للعبادات هي الأحكام الفقهية والقواعد المذكورة في الكتب الفقهية. ويجب على كل مكلّف تعلّم هذه الأحكام وأداء عباداته الشرعية وفقها فهي المعيار في الحكم على صحّتها من عدمها.
3. آداب العبادة نوعان: ظاهرية وباطنية: الآداب الظاهرية ذُكرت في الكتب الفقهية وكتب الأخلاق بعنوان المستحبات، والآداب الباطنية أو الآداب المعنوية أو أسرار العبادة فإنها تذكر في الكتب الأخلاقية والعرفانية وهي أمور روحية باطنية مرتبطة بروح الإنسان.
4. إن مراعاة الآداب الظاهرية والآداب المعنوية للعبادة هي شرطٌ لقبول العبادة وكمالها.
5. صحّة الأعمال هو أمرٌ مختلفٌ عن مقبوليّتها من جانب الله عزّ وجل، فكم من عبادةٍ صحيحةٍ بحسب الظاهر والأحكام الشرعية ولكنها لا تساوي شيئاً عند ربّ العالمين، وليس ذلك سوى لأنها تفتقر إلى الحدّ الأدنى من مراعاة الآداب المعنوية للعبادة.
6. إن الدور الأساسي لمعرفة الآداب الباطنية للعبادات أي أسرارها إنّما يرتبط بحقيقة النيّة التي يؤدّي الإنسان عباداته وفقها، فإن العبادة التي يأتي بها إنسانٌ عارفاً بأسرارها سوف تختلف حتماً على مستوى النية الباطنية عن تلك التي يأتي بها آخر وهو غير ملتفت حتى إلى وجود حقيقةٍ وأسرارٍ للعبادة.
7. لو بحثنا عن النموذج الأمثل الأتم لأناسٍ تجلّت العبودية في وجودهم بأجلى وأعلى مراتبها لما وجدنا غير محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

للمطالعة

أثر العبادة

كل عبادة من العبادات وكل منسكٍ من المناسك الشرعية، فضلاً عن أن لها صورة أخروية وملكوتية، وبها يتم عمارة الجنة الجسمانية وقصورها، وتهيئة الغلمان والحور - طبقاً للبراهين والأحاديث - فإن لكل عبادة من العبادات أيضاً أثراً يحصل في النفس، مما يقوّي الإرادة شيئاً فشيئاً ويصل بقدرتها إلى حد الكمال.

لذلك كلّما كانت العبادات أشق كانت أرغب: «**أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا**». فالتنازل عن النوم اللذيذ في ليل الشتاء البارد، والانصراف إلى عبادة الحق المتعال، يزيد من قوة الروح وتغلبها على قوى الجسم، ويقوّي الإرادة. وإذا كان هذا في أول الأمر على شيءٍ من المشقة والعناء، فإن ذلك يخفّ تدريجاً كلّما واصل العبادة، وازدادت طاعة الجسم للنفس. إذ أننا نلاحظ أن أهل العبادة يقومون بالأعمال دون مشقة وتكلف. أما نحن فشعورنا بالكسل وبالمشقة ناشئ من أننا لا نبدأ بالعمل. فلو إننا بدأنا العمل وكررناه عدة مرات، لتبدلت مشقته إلى راحة، بل إن أهلها يلتذّون بها أكثر مما نلتذّ نحن بمشتهيات الدنيا. إذاً، الأمر يصبح عادياً بالتكرار. ولهذه العبادة ثمرات، منها: أنّ صورة العمل نفسه تصبح على قدر من الجمال في ذلك العالم لا يكون له نظير في هذا العالم، ونكون عاجزين عن تصوّر مثلها. ومنها: أن النفس تصبح ذات عزمٍ واقتدار، فتكون لها نتائج كثيرة، وقد سمعت واحدة منها. ومنها: أيضاً أنها تجعل الإنسان يأنس بالذكر والفكر والعبادة، فإن المجاز قد يقرّب الإنسان إلى الحقيقة، فيتوجّه القلب إلى مالك الملوك، وتحلّ المحبة لجمال المحبوب الحقيقي، ويخفّ تعلق القلب وحبه للدنيا والآخرة[1].

(1) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث السَادِس: من أصبح وأمسى والدنيا أو الآخِرة أكبر همّه.

الدرس السادس

حقيقة الصلاة وأنواعها

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرّف حقيقة الصلاة ويستنتج أنّها أهم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق.

2 . يدرك أهمية النوافل وفضلها.

3 . يبيّن أهمية وفضل صلاة الليل وآثارها المعنوية والمادية.

حقيقة الصلاة وأهميتها

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أول ما يحاسب به العبد الصلاة فإذا قُبلت قُبل منه سائر عمله، وإذا ردّت عليه ردّ عليه سائر عمله، فإذا صلّيت فأقبل بقلبك إلى الله عزّ وجلّ، فإنه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عز وجل في صلاته ودعائه، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين إليه وأيده مع مودّتهم إيّاه بالجنة**»[1].

لا يخفى سبب اختيار الصلاة من بين العبادات لاستهلال بياننا للأعمال العبادية وحقائقها وآدابها بها، فإن الصلاة هي عمود الدين، إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت ردّ ما سواها كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ عمود الدين الصّلاة وهي أوّل ما يُنظَر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحّت نُظِرَ في عمله وإن لم تَصِحَّ لم يُنظَر في بقيّة عمله**»[2].

الصلاة عمود الدين بمعنى أنها قوامه، وموضعها من الدين كموضع الرأس من الجسد. وهي أفضل الأعمال وأحبّها إلى الله سبحانه، وأفضل ما توسّل به المتوسّلون للتقرّب إليه، وهي معراج المؤمنين والعارفين وسفر العاشقين. والصلاة أوّل ما افترض الله سبحانه على الناس، وأول ما يجب تعلّمه من الفرائض، وأوّل ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم، وأوّل ما يُحاسب به، وآخر وصية للرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنّه كان من آخر وصاياه: «**الصلاة، الصلاة، الصلاة...**»[3].

---

(1) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه ج1، ص 208، تحقيق وتصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط 2، لا ت، باب الرغبة والرهبة في الصلاة، ح 626.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص34.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج7، ص51.

وللصلاة آثارها المعنوية العظيمة على الإنسان.

فهي مثل عين الماء الزلال تطهر المصلّي الذي يصلّي خمس مرات في اليوم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إنما مثل الصلاة فيكم كمثل السري (وهو النهر) على باب أحدكم يخرج إليه في اليوم والليلة يغتسل منه خمس مرات فلم يبق الدرن مع الغسل خمس مرات ولم تبق الذنوب مع الصلاة خمس مرات**»[1].

وليس في العبادات ما يضاهي الصلاة، فهي مرهمٌ إلهيٌّ جامعٌ يتكفّل بسعادة البشر، فإن تمام الصلاة بكل ما تحويه من ذكر وركوع وسجود وتوجّه، هو إذعان بالعبودية لرب العالمين حيث يلقي المصلّي جانباً الأنانية وعبادة النفس ويسلّم كيانه بأجمعه لله تعالى، ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]، فيقف المصلّي بين يدي الله متواضعاً ويهوي برأسه إلى تراب الذل والمسكنة ويعلن التسليم الكامل والإذعان والخضوع له تعالى.

وهذه الخاصّية للصلاة هي ما يعطيها موقعها المميّز بين سائر العبادات، فالصلاة بإمكانها أن تكرّس كيان الإنسان بأسره بدءاً من البعد الظاهري أي البدني وانتهاءً بالأبعاد الباطنية (كالعقلية والقلبية) في ربقة العبودية، فليس من عبادة أخرى تُعنى بجميع أبعاد وجود الإنسان الظاهرية والباطنية في برنامج يومي يغطي جلّ أوقات المكلّف غيرها. ولذا فإن الصلاة هي خير وسيلةٍ تربط الإنسان بربّه، وهذا هو السرّ في كون الصلاة «خير العمل».

وهذه الخاصّية نفسها هي ما يجعل الصلاة أكمل وسيلة للسير والسلوك إلى الله تعالى، وأهم وسيلة لبلوغ الهدف الأعلى للإنسانية.

عن الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّما أمروا بالصلاة لأنّ في الصلاة الإقرار بالربوبية**»[3]. وعن

(1) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، من لا يحضره الفقيه،ج1، ص 208، تحقيق وتصحيح علي أكبر غفاري، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، 1413 هـ، ط 2.

(2) سورة الأنعام، الآية 79.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص10.

الإمام الصادق عليه السلام قال: «**العبودية جوهر**[1] **كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية**»[2].

فضل وأهمية الصلاة في القرآن والسنة

نستشفّ من الآيات القرآنية الكريمة ومن الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة أهميةً وفضلاً ومقاماً عظيماً للصلاة، نورد هنا بعض النماذج:

1. الصلاة أفضل وسيلة لذكر الله تعالى:

إذ يشير الله سبحانه في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[3] إلى واحدة من أهم أسرار الصلاة، وهي أن الإنسان يحتاج في حياته في هذا العالم، إلى عمل يذكره بالله والقيامة ودعوة الأنبياء وهدف الخلق في فترات زمنية مختلفة، كي يحفظه من الغرق في دوامة الغفلة والجهل، وتقوم الصلاة بهذه الوظيفة المهمة.

فمع توزع الصلوات الواجبة على أوقات اليوم المختلفة فإن العبد يغسل بها غبار الغفلة الذي استقرّ على قلبه. ومن هنا يقول الله سبحانه لنبيّه موسى عليه السلام في أول الأوامر في بداية الوحي: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾، وفي آيات أخرى نقرأ: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[4] و﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[5].

فإذا جعلنا هذه الآيات الثلاث جنباً إلى جنب فسنفهم جيداً أن الصلاة تذكر الإنسان بالله، وذكر الله يجعل نفسه مطمئنة، ونفسه المطمئنة ستوصله إلى مقام العباد المخلصين والجنة الخالدة.

---

(1) بعض الروايات وردت بصيغة جوهر؛ العبودية جوهر كنهها الربوبية.

(2) منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، الباب الأول في العبودية، ص7، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1400هـ ط1.

(3) سورة طه، الآية 14.

(4) سورة الرعد، الآية 28.

(5) سورة الفجر، الآيات 27 - 30.

2. للصلاة صورة ملكوتية:

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**من صلّى الصلوات المفروضات في أول وقتها وأقام حدودها رفعها الملك إلى السماء بيضاء نقيّة، تقول: حفظك الله كما حفظتني استودعتني ملكاً كريماً. ومن صلاّها بعد وقتها من غير علّةٍ ولم يقم حدودها رفعها الملك سوداء مظلمة، وهي تهتف به: ضيّعك الله كما ضيّعتني، ولا رعاك الله كما لم ترعني**»[1].

من هنا يتبيّن أن للصلاة حقيقة، وهي تدعو للمصلي إذا أتى بها في أول وقتها ولاحظ آدابها، وإذا لم يصلّ الصلاة لوقتها ترتفع سوداء وهي تدعو عليه.

3. الصلاة أحب الأعمال إلى الله تعالى:

عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم وأحبّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ ما هو فقال: «**ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصّلاة ألا ترى أنّ العبد الصّالح عيسى ابن مريم عليه السلام قال** ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: «**أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ الصّلاة وهي آخر وصايا الأنبياء**»[3].

4. الصلاة أوثق سبب لقرب العبد من الله:

عن الإمام الرِّضَا عليه السلام: «**أقرب ما يكون العبد من الله عزّ وجلّ وهوَ ساجد وذلك قوله عزّ وجلّ** ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[4]»[5]، وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**الصّلاة قربان كلّ تقيّ**»[6].

---

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص123.
(2) الشيخ الكليني، الكافي ج 3، ص 264.
(3) م. ن.
(4) سورة العلق، الآية 19.
(5) م.ن، ج 3، ص 265.
(6) م. ن.

5. الصلاة سبب مغفرة الذنوب:

عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾[1] قال: «**صلاة المؤمن باللّيل تَذهَب بما عمل من ذنب بالنّهار**»[2].

وعنه عليه السلام قال: «**من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب**»[3].

6. للمصلي مقام عظيم:

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**للمصلّي ثلاث خصال: إذا هو قام في صلاته حفّت به الملائكة من قدميه إلى عنان السماء، ويتناثر البرّ عليه من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وملكٌ موكّلٌ به ينادي لو يعلم المصلّي من يناجي ما انفتل**»[4].

النوافل

تبيّن لنا أن الصلاة هي أفضل وسيلة للسير والسلوك والتقرّب إلى الله سبحانه، والصلوات تقسم إلى قسمين: واجبة، ومستحبة، فالصلوات الواجبة أو الفرائض هي من قبيل: الصلوات اليومية، وصلاة الآيات، وصلاة الميت، وصلاة الطواف الواجب..

وأمَّا الصلوات المستحبة أو النوافل فكثيرة، وأهمّها وأفضلها: الرواتب اليومية، وهي أربع وثلاثون ركعة على الشكل التالي: نافلة الظهر ثماني ركعات قبل فريضة الظهر، نافلة العصر ثماني ركعات قبل فريضة العصر، نافلة المغرب أربع ركعات بعد فريضة المغرب، نافلة العشاء ركعتان من جلوس تعدّان ركعة واحدة وتسمّى الوتيرة، ونافلة الصبح ركعتان قبل فريضة الصبح، ونافلة الليل إحدى عشر ركعة وغيرها...

(1) سورة هود، الآية 114.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 3، ص 266.
(3) م. ن.
(4) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج1، ص210.

أهمية النوافل

عن الفضيل: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[1]، قال عليه السلام: «**هي الفريضة**»، قلت: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[2] قال: «**هي النافلة**»[3].

وقد ورد التأكيد في الأحاديث الشريفة على أداء النوافل اليومية، وأنَّها مكمّلة للصلوات الواجبة، وأنَّ لها ثواباً وآثاراً في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[4].

إنّ من الأخطار الجسيمة على مستوى تربية النفس وتزكيتها أن لا يعي الإنسان أهميّة النوافل والمستحبّات في حياته فيتغافل عنها بحجة أنّها غير واجبة وأنّ الأمور المستحبّة تحتاج لوقتٍ وفراغٍ وأنّ هناك أموراً أهمّ من الانشغال بالنوافل، فهذا المنطق يحرم أصحابه من بركاتها العظيمة وآثارها التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي يسّرها الله للإنسان، وفتح له من خلالها أسباب قوّة الإيمان ومنعته وانعكاسات التجلّيات الإلهيّة الحقّة في قلبه، وصولاً إلى إدراك الحقائق والمعاني السامية للعبادة.

إن ضرورة تقديم الفرائض على النوافل في معراج الكمال والسير نحو الله تعالى أمرٌ لا نقاش فيه، بل ورد في الرواية رفض النوافل إذا أضرّت بالفرائض كما روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**إذا أضرّت النوافل بالفرائض فارفضوها**»[5]. ولكن هذا لا يعني مطلقاً ترك النوافل وحرمان النفس من بركاتها وفوائدها الجمّة. وعلى المرء أن يترصّد قلبه دائماً ولا يضيّع فرصة إقباله، ففي الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفّلوا، وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة**»[6].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية 9.
(2) سورة المعارج، الآية 23.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص269.
(4) سورة الإسراء، الآية 79.
(5) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص28.
(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص454.

آثار النوافل وفوائدها

أما فوائد النوافل وآثارها فكثيرة نذكر منها ما يلي:

1. **قربان يتقرّب به المؤمن إلى الله تعالى:** فالله لم يفرضها ولكن المؤمن يؤديّها عن محبةٍ وشوق وفي ذلك تعبير عن رغبته الصادقة بعبادة الله والتقرّب إليه: عن أبي الحسن عليه السلام قال: «**صلاة النوافل قربان كل مؤمن**»[1].
2. **تجبر الفرائض:** عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ العبد لترفع له من صلاته نصفها أو ربعها أو خمسها، وما يرفع له إلَّا ما أقبل عليه منها بقلبه، وإنَّما أمرنا بالنوافل ليتم لهم بها ما نقصوا من الفريضة**»[2].
3. **سبب محبة الله للعبد:** قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قال الله تعالى ما تحبَّب إلي عبدي بشيء، أحب إلي مما افترضته عليه، وإنَّه يتحبب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته**»[3].

فالنافلة وسيلة اتصال دائم بالله تعالى يعيش معها العبد المؤمن أجمل لحظات القرب من الله فيفيض عليه تعالى من فضله وكرمه ما يعجز المرء عن وصفه.

4. **محو السيئات:** عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ قال: «**صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب بالنّهار**»[4].

أهمية صلاة الليل

صلاة الليل من أهم النوافل التي لها أثر كبير في نيل مقام القرب الإلهيّ وتزكية النفس، فقد أمر تعالى بها نبيه الكريم صلى الله عليه وآله ووعده عليها بالمقام الرفيع قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص73.
(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج81، 238.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص352.
(4) م.ن، ج3، ص266.

فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[1]. وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وبهذه الصلاة أوصى الأنبياء والملائكة، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما زال جبرئيل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لن يناموا**»[3]، وفي وصيته صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام: «**عليك بصلاة الليل عليك بصلاة الليل عليك بصلاة الليل...**»[4].

فمن الطبيعي أن تكون شعار الأولياء ومنهاج الأصفياء وسبيل الأتقياء، فأهل الولاية المتربّون في مدرسة أهل البيت عليهم السلام هم أهل صلاة الليل والاستغفار بالأسحار. وعن مولانا الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**شيعتنا أهل الورع والاجتهاد وأهل الوفاء والأمانة وأهل الزهد والعبادة، أصحاب إحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهار، يزكّون أموالهم ويحجّون البيت ويجتنبون كل محرم**»[5].

كما قال عليه السلام: «**ليس من شيعتنا من لم يصلّ صلاة الليل**»[6].

وقد حثَّت الروايات الشريفة على صلاة الليل، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله جلّ جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتعبي من خدمكِ واخدمي من رفضك، وإنَّ العبد إذا تخلَّى بسيده في جوف الليل المظلم، وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال يا رب! يا رب! ناداه الجليل جلّ جلاله: لبيك عبدي، سلني أعطك، وتوكَّل عليّ أكفك، ثمَّ يقول جل جلاله لملائكته: ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلَّى في جوف هذا الليل المظلم، والبطَّالون لاهون، والغافلون ينامون، اشهدوا أني قد غفرت له**»[7].

(1) سورة الإسراء، الآية 79.
(2) سورة السجدة، الآيتان 16 ـ 17.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج8، ص154.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص79.
(5) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص57.
(6) م. ن، ج8، ص162.
(7) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج38، ص 99.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**شرف المؤمن صلاته بالليل**»[1].

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**يا سليمان!.. لا تدع قيام الليل، فإن المغبون من حرم قيام الليل**»[2].

فضل صلاة الليل وآثارها

ولصلاة الليل من الفضل والآثار المعنوية والمادية ما لا يمكن الإحاطة به، فهي من روح الله تعالى وتجلب رضاه وتستمطر رحمته وهي تمسّكٌ بأخلاق النبيين وهي شرف المؤمن، وهي المانعة من نزول العذاب وهي النور والأنيس في القبر، كما أنها تنفي السيئات، وتذهب بما عمل من ذنب بالنهار.. وغير ذلك مما روي من قبيل أنَّها تدرّ الأرزاق، وتذهب بالهمّ وتقضي الدين، وتبيّض الوجه وتحسّن الخلق والأخلاق وتبعد الداء من الأجساد وتصحّح البدن وتجلو البصر وتطيّب الريح...

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**صلاة الليل مرضاة الرب، وحب الملائكة، وسنَّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وراحة الأبدان، وكراهية الشيطان، وسلاح على الأعداء، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومونس وزائر في قبره إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلاً فوقه، وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجّة للمؤمن بين يدي الله تعالى، وثقلاً في الميزان، وجوازاً على الصراط، ومفتاحاً للجنة، لأن الصلاة تكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، وتقديس، وتعظيم، وقراءة دعاء، وإن أفضل الأعمال كلّها الصلاة لوقتها**»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 488.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج8، ص160.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج84، ص 161.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «**قيام الليل مصحّة البدن، ورضا الرب، وتمسّك بأخلاق النبيين، وتعرّض لرحمته**»[1].

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كذب من زعم أنه يصلّي صلاة الليل وهو يجوع، إن صلاة الليل تضمن رزق النهار**»[2].

وعنه عليه السلام قال: «**صلاة الليل تحسّن الوجه، وتحسّن الخلق، وتطيّب الريح، وتدرُّ الرزق، وتقضي الدين، وتُذهب بالهمّ، وتجلو البصر**»[3].

وعنه عليه السلام أيضا قال: «**إنّ في اللّيل لساعة ما يُوافقها عبد مسلم يصلّي ويدعو الله فيها إلّا استجيب له في كلّ ليلة قلت أصلحك الله فأيّ ساعة هي من اللّيل قال إذا مضى نصف اللّيل في السّدس الأوّل من النّصف الباقي**»[4].

أسباب الحرمان من صلاة الليل

إن كثيرين يحبون أن ينالوا شرف قيام الليل وأداء هذه النافلة المباركة ويتشوقون إلى ذلك، لكن سرعان ما تراهم لا يبادرون إلى ما أحبّوه، ويبقى هذا الحب في عالم النفس وحديثها دون أن يترجم بالفعل والخارج فكأن شيئاً حال بينهم وبين تحقيق مطلوبهم ولقاء محبوبهم، فما هو ذلك الشيء الذي أوجد حاجزاً أو شكّل مانعاً؟

والجواب: أنه ليس أمراً واحداً وإنما جملة من الأمور لكنها تنتمي إلى أصل واحد يسمّى الذنب على اختلاف أنواعه وأشكاله.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الرجل يذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم**»[5].

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج8، ص150.
(2) م. ن، ص158.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج59، ص268.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص447.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص272.

وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام لرجل شكى من حرمانه صلاة الليل: «**أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك**»[1].

وفي حديث آخر: «**إن الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل فإذا حُرِم صلاة اللّيل حرم بها الرزق**»[2].

ومن الموانع رذيلة العجب، فإن الإنسان إذا قدر على التخلص من سائر الذنوب وبقيت له آفة العجب والرضا عن النفس فهي كافية للحؤول بينه وبين التوفيق للتهجد والقيام بالليل.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: «**إن من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده فيتهجّد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين نظراً مني له وإبقاءً عليه فينام حتى يصبح فيقرأه وهو ماقت لنفسه، زار عليها، ولو أخلي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله من ذلك العجب، فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه عند حد التقصير فيتباعد مني عند ذلك وهو يظن أنه يتقرّب إليّ**»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص450.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج8، ص160.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص60.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - السر في جعل الصلاة خير الأعمال كونها كغيرها من العبادات التي أمرنا الله تعالى بها ☐

2 - الصلاة هي إذعان بالعبودية لربّ العالمين حيث يُلقي المصلّي جانباً الأنانية وعبادة النفس ويُسلّم كيانه بأجمعه لله تعالى ☐

3 - الصلاة أكمل وسيلة للسير والسلوك إلى الله تعالى، والسبب في ذلك أنها تجلٍّ لحالة العبودية من جهة العبد، وتجلٍّ للربوبية من جهة الله سبحانه وتعالى ☐

4 - الصلاة تُحقّق العبودية للإنسان بشكل جزئي ويتجلّى فيها أحياناً الإقرار لله بالوحدانية ☐

5 - أداء الصلاة بكل آدابها وشرائطها ترتفع إلى السماء سوداء مظلمة وتلف وتضرب بوجه صاحبها ☐

6 - من الأخطار الروحية على مستوى تربية النفس وتزكيتها أن يعي الإنسان أهميّة النوافل والمستحبّات فيُحرم من بركاتها العظيمة وآثارها

7 - صلاة الليل من أهم الواجبات التي لها أثر كبير في نيل مقام القرب الإلهيّ وتزكية النفس ☐

8 - تُعتبر النوافل قربان يتقرّب به المؤمن إلى الله تعالى حيث إنّها تجبر الفرائض وتمحو السيئات ☐

9 - من أسباب الحرمان من صلاة الليل الذنوب على اختلافها، والرذائل الأخلاقية ☐

10 - تُعتبر النوافل الطريق الأمثل والأكمل لأداء الصلاة ولولاها لم تُقبل للإنسان صلاة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. ليس في العبادات ما يضاهي الصلاة، فهي مرهمٌ إلهيٌّ جامعٌ يتكفّل بسعادة البشر، فإن تمام الصلاة بكل ما تحويه من ذكر وركوع وسجود وتوجّه، هو إذعان بالعبودية لرب العالمين حيث يلقي المصلّي جانباً الأنانية وعبادة النفس ويسلّم كيانه بأجمعه لله تعالى.
2. الصلاة أكمل وسيلة للسير والسلوك إلى الله تعالى، والسبب في ذلك أنها تجلٍّ لحالة العبودية من جهة العبد، وتجلٍّ للربوبية من جهة الله وتعالى. يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّما أمروا بالصلاة لأنّ في الصلاة الإقرار بالربوبية**».
3. تعطي الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة أهميةً وفضلاً عظيماً للصلاة، فهي أفضل وسيلة لذكر الله تعالى، لها صورة ملكوتية، هي أحب الأعمال إلى الله تعالى، هي أوثق سبب لقرب العبد من الله، هي سبب مغفرة الذنوب.
4. من الأخطار الجسيمة على مستوى تربية النفس أن لا يعي الإنسان أهميّة النوافل والمستحبّات فيُحرم من بركاتها العظيمة وآثارها التي لا تحصى، والتي يسّرها الله للإنسان، وفتح له من خلالها أسباب قوّة الإيمان ومنعته.
5. فوائد النوافل وآثارها كثيرة، منها: هي قربان يتقرّب به المؤمن إلى الله تعالى، إنّها تجبر الفرائض، انها سبب محبة الله للعبد، وانها تمحو السيئات.
6. صلاة الليل من أهم النوافل التي لها أثر كبير في نيل مقام القرب الإلهيّ وتزكية النفس، فقد أمر تعالى بها نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ووعده عليها بالمقام الرفيع وقد حثت الأحاديث الشريفة كثيراً عليها.
7. لصلاة الليل من الفضل والآثار المعنوية والمادية ما لا يمكن الإحاطة به، فهي من روح الله تعالى وتجلب رضاه وهي تمسّكٌ بأخلاق النبيين، وهي المانعة من نزول العذاب وهي النور والأنيس في القبر، كما أنها تنفي السيئات، وتدرّ الأرزاق،
9. من أسباب الحرمان من صلاة الليل الذنوب على اختلافها، والرذائل مثل العجب.

للمطالعة

خلق الله الإنسان لنفسه سبحانه

أيها العزيز! استيقظ وانتبه وافتح أذنيك، وحرّم نوم الغفلة على عينيك، واعلم أن الله خلقك لنفسه كما يقول في الحديث القدسي: «**يا ابنَ آدَمَ خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ لأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لأَجْلِي**»[1] واتّخذ من قلبك منزلًا له، فأنت وقلبك من النواميس والحرمات الإلهية، والله تعالى غيور، فلا تهتك حرمته وناموسه إلى هذا الحدّ، ولا تدع الأيادي تمتدّ إلى حرمه وناموسه. احذر غيرة الله، وإلا فضحك في هذا العالم بصورة لا تستطيع إصلاحها مهما حاولت. أتهتك في ملكوتك وفي محضر الملائكة والأنبياء العظام ستر الناموس الإلهي؟ وتقدم الأخلاق الفاضلة التي تخلَّق بها الأولياء إلى الحق، إلى غير الحق؟ وتمنح قلبك لخصم الحق؟ وتشرك في باطن ملكوتك؟ كن على حذر من الحق تعالى فإنه مضافاً إلى هتكه سبحانه لناموس مملكتك في الآخرة ـ وفضحه لك أمام الأنبياء العظام والملائكة المقرّبين، سيفضحك في هذا العالم ويبتليك بفضيحة لا يمكن تلافيها... وبتمزيق عصمة لا يمكن ترقيعها.

إنّ الحق تعالى «**ستّارُ**» ولكنه غيور أيضاً... إنه «**أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**» ولكنه «**أَشَدُّ المَعَاقِبِيَن**» أيضاً يستر ما لم يتجاوز الحد. فقد تؤدي هذه الفضيحة الكبرى ـ لا سمح الله ـ إلى تغليب الغيرة على الستر، كما سمعت في الحديث الشريف.

فارجع إلى نفسك قليلاً، وعد إلى الله، فالله رحيم، وهو يبحث عن ذريعة لإفاضة الرحمة عليك. إذا أنبت إليه، فإنه يستر بغفرانه معاصيك وعيوبك الماضية، ولن يطلع عليها أحداً ويجعلك صاحب فضيلة، ويظهر فيك الأخلاق الكريمة، ويجعلك مرآة لصفاته تعالى ويجعل إرادتك فعّالة في ذلك العالم كما أن إرادته نافذة في جميع العوالم[2].

(1) مهذب الدين أحمد، المنهج القويم، ج 5، ص 516.
(2) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث الثاني: الرياء.

الدرس السابع

الآداب المعنوية العامة للصلاة (1)

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن كيفية المحافظة على العبادة من تصرّف الشيطان.
2. يستنتج أنّ التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية من أهمّ آداب العبادة.
3. يشرح كيف يكون الخشوع شرطاً في العبادة وكيفيّة تحقّقه.

سوف نشرع ابتداءً من هذا الدرس في شرح وبيان الآداب المعنوية للعبادات، ونستهلّها مع الآداب المعنوية العامة للصلاة في هذا الدرس والذي يليه، وفقاً لما أورده إمامنا الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «الآداب المعنوية للصلاة»[1].

مقدمة

في سورة المؤمنون المباركة قُرن الفلاح بعدّة أمورٍ أهمّها الصلاة، التي تبدأ السورة بذكرها أولاً، ثم وبعد ذكر تسع صفاتٍ أساسية للمؤمنين تعود إليها مجدداً ولكن هذه المرة بلحنٍ آخر أشدّ تأكيداً على أهمية هذه الفريضة لما تمتلكه من خصوصيات لا نجدها في غيرها من الفرائض والأحكام. ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾[2] إلى قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾[3]. يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ المراد بالمحافظة على الصلاة رعاية صفات كمالها على ما ندب إليه الشرع»[4]. فالمحافظة على الصلاة تبدأ من رعاية شروطها وآدابها الظاهرة منها والباطنة.

والملفت في هذه السورة المباركة أنها ذكرت أن الصفة الأولى للمؤمن الحقيقي هي الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظة عليها، فالبدء كان بالصلاة وبها كان الانتهاء، لأنّ

---

(1) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان 1-2.

(3) سورة المؤمنون، الآية 9.

(4) العلامة الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن،ج20، ص17، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1417هـ، ط 5.

الصلاة أهمّ رابطة بين الخالق والمخلوق، وخير وقايةٍ من الذنوب.

«والخلاصة، إنّ الصلاة إن أقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعاً. وجديرٌ بالذكر أنّ الآيتين الأولى والأخيرة تضمّنت كلّ واحدة منها موضوعاً يختلف عن الآخر، فالآية الأولى تضمّنت الصلاة بصورةٍ مفردة، والأخيرة بصورة جماعية. الأولى تضمّنت الخشوع والتوجّه الباطني إلى الله. هذا الخشوع الذي يعتبر جوهر الصلاة، لأنّ له تأثيراً في جميع أعضاء جسم الإنسان، والآية الأخيرة أشارت إلى آداب وشروط صحّة الصلاة من حيث الزمان والمكان والعدد، فأوضحت للمؤمنين الحقيقيين ضرورة مراعاة هذه الآداب والشروط في صلاتهم»[1].

فكما سبق فإن للصلاة شروطاً ظاهريةً وآداباً معنويةً قلبيةً لا بدّ من مراعاتها حتى تثمر هذه العبادة تحقّق عبودية المصلّي للربّ المتعال. ونبدأ بالأدب الأول من الآداب المعنوية العامة:

المحافظة على الصلاة من تصرّف الشيطان

من الآداب المعنوية المهمّة والتي لها دورٌ مهمٌّ في العبادات بشكلٍ عامٍّ والصلاة بشكلٍ خاصٍّ، الحفاظ على العبادة من التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية.

إن للإنسان جسداً وروحاً وقلباً، ولكلٍّ منها غذاؤه المناسب لينمو ويتكامل بشكلٍ صحيحٍ، فللجسد غذاءٌ مادّيٌّ لا يمكن أن ينمو من دونه، ولهذا الغذاء مواصفاتٌ وشروطٌ من الجودة والسلامة لا بدّ منها، كما لا بدّ من خلوّه من كل ما ينافي صحّة الجسد وإلا غدا ضعيفاً معتلّاً لا بدّ من علاجه.

وكذلك للروح والقلب غذاؤهما المناسب لكي يكونا في عافيةٍ وصحّةٍ وسلامةٍ. وغذاء الروح والقلب هو العلوم والمعارف الإلهية والفضائل الأخلاقية والعبادات الشرعية، فبها يتكامل الإنسان ويترقّى في مدارج الرقيّ ومن دونها لا ينال أيّ كمالٍ ممكنٍ.

ولهذه الأغذية الروحية من معارف وفضائل وعبادات، شروطٌ ومعايير صحّةٍ لكي تغدو

(1) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج10، ص423، لا.م، لا.ن، لا.ت، لا.ط.

مفيدةً للإنسان، وهي أن تُعدّ بيد أولياء الله وتكون تحت رعايتهم ووفق توجيهاتهم وأن تخلو ممّا يشوبها. فإن فُقدت هذه الشروط وخالط الأغذية ما يشوبها فقدت صلاحيتها وانقلبت فائدتها ضرراً وأصبحت نتيجتها سمّاً على الروح والقلب.

وما ينافي سلامة الأغذية الروحية والقلبية ويشوبها هو التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية. فكم من طلّاب علمٍ لم يستفيدوا من غذاء العلم الإلهي بل ازدادوا في المفاسد الأخلاقية؟!

وكم من أهل العبادة ومن الأفراد الذين سعوا في تصفية أنفسهم وتزيينها بفضائل الأخلاق فانتهت بهم جهودهم إلى العجب والتكبّر وسوء الظنّ بعباد الله.. إلى غير ذلك من الظلمات النفسية؟!

ولم يكن ذلك سوى بسبب أن تعلّمهم وعباداتهم وسعيهم لتزكية أنفسهم كان مشوباً بأهواء النفس وتصرّفات الشيطان اللعين ولم يتناولوا الأغذية الروحية والقلبية المناسبة الخالصة من كل رجسٍ ودنسٍ، والمعجونة بيد أولياء الله عزّ وجلّ.

وهنا يتّضح لنا أهمية سلامة العبادة من تصرّفات الشيطان وأهواء النفس الأمّارة باعتبار أن العبادة وأداء المناسك والعبادات الإلهية هي أحد الأغذية المعنوية المهمّة للروح والقلب.

كيف يسلم الغذاء الروحي من التصرّفات الشيطانية وأهواء النفس الأمّارة؟

من الأمور المهمّة في المساعدة على سلامة الغذاء الروحي والقلبي وصفائه من التصرّفات الشيطانية ما يلي:

1. ينبغي أن يكون الغذاء الروحي مأخوذاً من النبع الصافي للإسلام وهذا النبع هو: الرسول محمد وآل بيته عليهم السلام.
2. أن يكون الإنسان في سلوكه طالبا لله، ويضع حب النفس وعبادتها الذي هو منشأ المفاسد كلّها وأمّ الأمراض الباطنية تحت قدميه. وبغير ذلك لا يحصل الخلاص من تصرّف الشيطان الذي هو مقدّمةٌ للإخلاص بحقيقته.

3. على الإنسان المؤمن أن لا ييأس من القضاء على تصرّفات الشيطان، فاليأس من روح الله رأس كل برودةٍ وفتورٍ ومن الكبائر.
4. على الإنسان أن يواظبَ بكمال المواظبة والدقّة على حاله كطبيبٍ رفيقٍ ورقيبٍ شفيقٍ، وأن يفتّش بالدقّة عن عيوب مسيره وسلوكه إلى الله تعالى، وأن لا يخلّي نفسه على رسلها آناً ما، فربما يسقط في الهاوية في لحظة غفلة.
5. على السالك إلى الله اللجوء إلى الربّ الرحيم في خلواته والتضرّع والاستكانة إليه، فإنه بحاجة إليه وإلى توفيقه في سلوكه المعنوي بل في جميع شؤونه.

التوجّه إلى عز الربوبية وذلّ العبودية

أحد أهم آداب العبادات ومنها عبادة الصلاة، بل هو أدبٌ لازمٌ لرحلة الإنسان المعنوية بأسرها فلا يستقيم سيرٌ أو سلوكٌ من دونه، هو أدب التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية. فما هو هذا الأدب وما سبب أهمّيته؟ يمكن اختصار حقيقة هذا الأدب بعبارةٍ بسيطةٍ، وهي أن يدرك الإنسان عظمة الله وكبريائه وجبروته، وفي مقابل ذلك يدرك ذلّته وفقره وحاجته ومسكنته أمام عزّة الله وغناه.

أهمية التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية

لهذا التوجّه والإدراك أهمّيته القصوى في حركة الإنسان المعنوية بحيث يمكننا القول بأن إنسانية الإنسان تقاس بمقدار قوّة هذا الإدراك. فإن كانت حركة الإنسان المعنوية تسير باتجاه تحقّق إنسانية الإنسان مقتدياً بالإنسان الكامل، فإن هذه الحركة تكون صحيحةً وموصلةً إلى الهدف المنشود وهو الكمال الإنساني. وهذه الحركة إنما تتحقق بقدر امتلاك الإنسان لهذا الإدراك ووعيه له وتجلّيه فيه.

والعكس صحيحٌ أيضاً ، فكلّما كان الإنسان مستغرقاً في حبّ ذاته وعشقها، وأنانيّاً لا يرى أكثر من أفق نفسه، و بعيداً عن معرفة عظمة الله وعزّته، كان بعيداً عن كمال الإنسانية. وفي الواقع فإن حب النفس ورؤيتها هو أكبر وأضخم الحجب وأظلمها، تلك الحجب التي تحول ما بين الإنسان وما بين كماله الحقيقي ومقام القرب الإلهي. وما لم يخرج الإنسان

من حجاب حب النفس ورؤيتها فإنه لا سبيل له للسير والسلوك الحقيقيين. فالانتصار على هذا الحجاب وخرقه هو أول الطريق وأول شرط للسلوك الحقّ إلى الله تعالى.

فجهاد النفس ورياضتها لا تنجح ولا تؤتي أكلها إذا لم يعرف الإنسان نفسه ويقدّرها التقدير الواقعي، ويدرك مدى ذلّها أمام ربّ العالمين الغني العزيز الذي يتّصف بجميع الصفات الكمالية.

وإن أي سيرٍ وسلوكٍ للإنسان سابقين على خرق حجاب الأنا والأنانية محكومان بالبطلان، فهما لا يكونان في سبيل الله تعالى وباتجاه قربه، بل يكونان رحلة من النفس إلى النفس كمن يحوم حوم نفسه، كما في الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الظالم يحوم حوم نفسه والمقتصد يحوم حوم قلبه والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه**»[1].

أمّا إن خرق هذا الحجاب وأدرك حقيقة نفسه الذليلة ووسم ناصيته بسمة العبودية التي هي حقيقته المطلقة وأدرك عظمة المعبود فإنه يخطو ويسير على الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى.

وكلّما كانت النفس مرتفعةً متكبّرةً، وكلما أدام الإنسان النظر إليها، كلّما كان الشعور بعزّة الله وغناه وعظمته ناقصاً بل وقد يختفي هذا الشعور تماماً في بعض الحالات كما كانت حالة فرعون الذي أخذته العزّة بالإثم فقال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[2] والعياذ بالله.

ونجد هذا المعنى في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «**العبودية جوهر كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية**»[3].

فمن سعى بخطوة العبودية وأدرك ذلّة النفس وفقرها وصل إلى عزّ الربوبية. وهنا يأتيه تأييد الله عزّ وجلّ. فعندما يترك العبد التصرّفات النفسية ويسلّم حكومة وجوده كلّها إلى الحق، ويخلّي بين البيت وصاحبه (قلب المؤمن عرش الرحمن)، فحينئذٍ يكون المتصرّف في الدّار صاحبها فتصير تصرّفات العبد إلهيّة، ويكون بصره بصراً إلهياً وينظر

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج23، ص214.
(2) سورة النازعات، الآية 24.
(3) منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، الباب الأول، في العبودية، ص 7.

نظرةٌ إلهية، ويكون سمعه إلهيّاً فيسمع بسمع الحق تعالى.

وهذا ما يشير إليه الحديث المشهور: «**... وإنه (العبد) ليتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته**»[1].

إذاً، كلّما قوي في النفس الشعور بذلّ العبودية وعزّ الربوبية زادت الروحانية في العبادة كالصلاة وغيرها، وأدرك الإنسان حقيقة العبودية وسرّ العبادة، فعلى الإنسان الذي يريد الوصول إلى الله تعالى ومعرفته أن يهاجر من بيت النفس إلى الله ورسوله ويسلّم كيانه إلى الله تعالى، وبذلك يكون قد خطا الخطوة الأولى في روحانيّة العبادة.

الخشوع

يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[2]. من الآداب العامّة اللازمة في الصلاة وغيرها من العبادات الخشوع، وهو يعني، الخضوع التام للحق تعالى الممزوج بالحب له أو الخوف منه جلّ وعلا. وهو يحصل من إدراك عظمة الجلال والجمال وسطوتهما وهيبتهما.

أما لماذا يكون الخضوع ممزوجاً تارةً بالحب وأخرى بالخوف؟ السبب في ذلك أن القلوب السالكة إلى الله تعالى بحسب الفطرة مختلفة، فمنها عشقيٌّ ومن مظاهر الجمال وتكون مفطورةً على التوجّه إلى جمال المحبوب، وهي تدرك على الدوام الجمال في الأشياء وتدرك أصله في جمال الجميل المطلق، فأصحاب هذه القلوب تغشاهم هيبة الجمال وعظمته ويأخذهم الخشوع حيال جمال المحبوب.

وبعض القلوب خوفيّ، ومن مظاهر الجلال، وهي تدرك على الدوام العظمة والكبرياء والجلال، وخشوعها يكون من الخوف، ومن تجلّي الأسماء القهرية والجلالية عليها، كما كان حال النبي يحيى على نبيّنا وآله عليهم السلام.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص352.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان 1-2.

فالخشوع يكون ممزوجا تارةً بالحب وأخرى بالخوف والوحشة، مع الالتفات إلى أنه في كل حبٍّ وحشة، وفي كل خوفٍ حبّ.

كيفية تحصيل الخشوع

من أجل تحصيل الخشوع في العبادات ولا سيّما في الصلاة لا بدّ للعابد من سلوك طريق العلم والإيمان، فإن كان الخشوع ناتجاً عن إدراك عظمة العظيم المطلق وهيمنة هذه العظمة على قلب الإنسان سواء كان قلبه عشقيّاً أم خوفيّاً، فإن إدراك هذه العظمة لمن هم أمثالنا يتأتّى عن طريق العلم بها وإيصال هذا العلم إلى القلب لتحقيق الإيمان بها.

ومن المعلوم أن الإيمان هو غير العلم، فهناك فرقٌ بينهما. والدليل على ذلك أن الشيطان كما يشهد له الله تعالى عالمٌ بالمبدأ والمعاد ومع ذلك فهو كافر، لأنه يقول: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1] فهو إذاً يعترف بالحق تعالى وخالقيته، ويقول أيضاً: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[2] فيعتقد بالمعاد، وهو كذلك عالمٌ بالكتب والرسل والملائكة، ومع ذلك كله خاطبه الله سبحانه بلفظ الكافر.

فإذاً، يمتاز أهل العلم من أهل الإيمان فليسوا سواء، إذ أن العلم بمفرده لا يوجد خشوعاً في القلب، وكلّ فردٍ يدرك ذلك، فمع كوننا معتقدين بالمبدأ والمعاد، ومع اعتقادنا بعظمة الله وجلاله وجماله فإننا لا نتذوّق طعم الخشوع في قلوبنا. وما ذلك إلا لأن ما اعتقد به العقل لم يصل إلى القلب ولم ينطوِ على الإيمان به.

ومع أننا نصلّي كلّ يومٍ خمس مرات ومنذ سنين عديدةٍ من عمرنا، إلّا أننا لم نستشعر الخشوع في صلاتنا رغم أن الله تعالى يقول في كتابه المجيد مادحاً المؤمنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[3] فجعل الخشوع في الصلاة من حدود الإيمان وعلائمه. فمن لم يكن خاشعاً في الصلاة فهو خارج زمرة أهل الإيمان طبقاً لما قاله ذات الحق المقدس تعالى شأنه.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 12.
(2) سورة الأعراف، الآية 14.
(3) سورة المؤمنون، الآيتان 1 - 2.

وعن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال «**إِذَا كُنْتَ دَخَلْتَ فِي صَلَاتِكَ فَعَلَيْكَ بِالتَّخَشُّعِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى صَلَاتِكَ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ** ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾»[1].

وبما أن صلواتنا ليست مشفوعةً بالخشوع، فإن ذلك ناجمٌ إمّا من نقصٍ في إيماننا أو فقدانه. فالعلم بالله وأسمائه وصفاته وسائر المعارف الإلهية الظاهر منا، مغايرٌ لواقع إيماننا.

من هنا نستنتج أنه لتحصيل الخشوع في الصلاة ينبغي لنا أن نعمل على تحقيق الإيمان في ما نعتقد به عقلاً، ويمكننا أن نختصر خطوات تحقيق الخشوع على النحو التالي:

خطوات تحصيل الخشوع

1. على العابد أن يحصّل الخشوع بنور العلم أي أن يتعرّف إلى العقائد الحقّة المتعلّقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته، والتي توجب الاعتقاد بكونه صاحب العظمة المطلقة التي لا تقارن بعظمة أيّ عظيمٍ في هذا العالم مهما علا شأنه، وتستوجب بالتالي الاعتقاد بأنه الوحيد الذي يستحقّ الخضوع والذي لا يمكننا الحضور في محضره إلا ونحن مغمورون بحالة الخشوع بشكلٍ حتميٍّ وتلقائيٍّ، حيث إن هذه هي الحالة النفسية الطبيعية التي ترافقنا حين الحضور لدى شخصٍ نعتقد بعظمته.
2. على العابد أن يذكّر القلب على الدوام بالعقائد الحقّة وبعظمة الله ويعمل بمقتضى هذه الاعتقادات حتى يؤمن القلب بهذه الحقائق ويدخل الخشوع شيئاً فشيئاً إلى قلبه.
3. على السالك أن يدرك أنه لن يتمكّن بدايةً من تحصيل حالة الخشوع في جميع صلاته من أوّلها إلى آخرها ولذلك عليه أن لا ييأس بل أن يفهم أن الأمر ممكنٌ جدّاً مع الممارسة والمجاهدة القلبية.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص300.

4. كما عليه أن يعلم أن تحصيل الخشوع لا يكون بالفتور بل يحتاج إلى جدٍّ، وكلّما كان المطلوب أعظم - وهو القرب من الله - فهو أحرى بالجد. لذلك عليه بالمثابرة فهو وإن شعر بالضيق في بداية طريق سعيه إلى الصلاة وامتلاك حالة الخشوع، إلا أنه وبعد مدّة يحصل له الأنس بها واللذّة التي لا تقاس بها لذّات هذه الدّنيا.
5. على السالك أن لا يقنع بما وصل إليه بل عليه أن يطلب المزيد دائماً ويعتبر نفسه ناقصاً فلا يُبتلى بالعجب.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - إنّ للصلاة شروطاً ظاهريةً وآداباً معنويةً قلبيةً لا بدّ من مراعاتها لكي تحقّق عبودية المصلّي لله تعالى ☐

2 - الحفاظ على العبادة من التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية لا دور مهماً له في العبادات ☐

3 - غذاء الروح والقلب هو العلوم والمعارف الإلهية والفضائل الأخلاقية والعبادات الشرعية ☐

4 - بقاء العلوم والمعارف الإلهية تحت يد أولياء الله وبُعدها عن التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية يفقدها صلاحيتها الروحية والمؤثّرة في سلوك العابد ☐

5 - لتسلم الأغذية الروحية من التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية يجب أن تأخذ من النبع الصافي للإسلام وهو القرآن الكريم ☐

6 - أدب التوجّه الدائم إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية في العبادات أدبٌ لازمٌ لرحلة الإنسان المعنوية ☐

7 - كلّما ضعف في النفس الشعور بذلّ العبودية وعزّ الربوبية أدرك الإنسان حقيقة العبودية وسرّ العبادة ☐

8 - الخشوع يعني الخضوع التام للحقّ تعالى الممزوج بالحبّ له أو الخوف منه جلّ وعلا ☐

9 - الخشوع حالة روحيّة يحصل عليها السالك مباشرة من دون الحاجة إلى الممارسة والمجاهدة القلبية ☐

10 - التعرّف إلى العقائد الحقّة المتعلّقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وتذكير القلب على الدوام بها والعمل بمقتضاها خطوة أولى في طريق تحصيل الخشوع ☐

المفاهيم الرئيسة

1. إن للصلاة شروطاً ظاهريةً وآداباً معنويةً قلبيةً لا بدّ من مراعاتها حتى تثمر هذه العبادة تحقّق عبودية المصلّي للربّ المتعال.
2. من الآداب المعنوية المهمّة والتي لها دورٌ مهمٌّ في العبادات بشكلٍ عامٍّ والصلاة بشكلٍ خاصٍّ، الحفاظ على العبادة من التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية.
3. هناك عدّة أمور مساعدة لتسلم الأغذية الروحية من التصرّفات الشيطانية والأهواء النفسية: أن تكون مأخوذةً من النبع الصافي للإسلام، أن يكون الإنسان في سلوكه طالباً لله، أن لا ييأس من القضاء على تصرّفات الشيطان، أن لا يخلّي نفسه على رسلها آناً ما، أن يلجأ إلى الربّ الرحيم في خلواته لنيل توفيقه في سلوكه المعنوي.
4. التوجّه إلى عز الربوبية وذلّ العبودية أحد أهم آداب العبادات ومنها عبادة الصلاة، بل هو أدبٌ لازمٌ لرحلة الإنسان المعنوية بأسرها فلا يستقيم سيرٌ أو سلوكٌ من دونه.
5. كلّما قوي في النفس الشعور بذلّ العبودية وعزّ الربوبية زادت الروحانية في العبادة كالصلاة وغيرها، وأدرك الإنسان حقيقة العبودية وسرّ العبادة.
6. من الآداب العامّة اللازمة في الصلاة وغيرها من العبادات الخشوع، وهو يعني، الخضوع التام للحق تعالى الممزوج بالحب له أو الخوف منه جلّ وعلا.
7. لتحصيل الخشوع في الصلاة ينبغي لنا أن نعمل على تحقيق الإيمان في ما نعتقد به عقلاً من المعارف الإلهية.
8. هناك خطوات عدّة لتحصيل الخشوع: التعرّف إلى العقائد الحقّة المتعلّقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وتذكير القلب على الدوام بها والعمل بمقتضاها، عدم اليأس من تحصيل حالة الخشوع الممكن جدّاً مع الممارسة والمجاهدة القلبية والجد والمثابرة، وعلى السالك أن لا يقنع بما وصل إليه بل عليه أن يطلب المزيد دائماً ويعتبر نفسه ناقصاً فلا يُبتلى بالعجب.

للمطالعة

في بيان أنّ العلم يغاير الإيمان

اعلم أنّ الإيمان غير العلم بالله ووحدانيته وسائر الصفات الكمالية الثبوتية والجلالية السلبية، والعلم بالملائكة والرسل والكتب ويوم القيامة. وما أكثر من يكون له هذا العلم ولكنه ليس بمؤمن. الشيطان عالم بجميع هذه المراتب بقدر علمنا وعلمكم، ولكنه كافر. بل إن الإيمان عمل قلبي، وما لم يكن ذلك فليس هناك إيمان. فعلى الشخص الذي علم بشيءٍ عن طريق الدليل العقلي أو ضروريات الأديان، أن يسلّم لذلك قلبه أيضاً، وأن يؤدّي العمل القلبي الذي هو نحوٌ من التسليم والخضوع، ونوع من التقبل والاستسلام ـ عليه أن يؤدي ذلك ـ لكي يصبح مؤمناً.

وكمال الإيمان هو الاطمئنان. فإذا قوي نور الإيمان تبعه حصول الاطمئنان في القلب، وجميع هذه الأمور هي غير العلم. فمن الممكن أن يدرك العقل بالدليل شيئاً لكنّ القلب لم يسلم بعد، فيكون العلم بلا فائدة. مثلاً أنتم أدركتم بعقولكم أن الميت لا يستطيع أن يضرّ أحداً، وأن جميع الأموات في العالم ليس لهم حس ولا حركة بقدر ذبابة، وأن جميع القوى الجسمانية والنفسانية قد فارقته ولكن حيث إن القلب لم يتقبّل هذا الأمر ولم يسلم أمره للعقل، فإنكم لا تقدرون على مبيت ليلةٍ مظلمةٍ واحدةٍ مع ميت!!

وأما إذا سلّم القلب أمره للعقل، وتقبّل هذا الحكم منه، فلن يكون في هذا العمل ـ أي المبيت مع الميت ـ أي إشكال بالنسبة إليكم، كما أنه وبعد عدّة مرات من الإقدام، يصبح القلب مسلّماً، فلن يبقى عنده بعدها بأس أو خوف من الميت.

إذاً، أصبح معلوماً أن التسليم - وهو من حظ القلب - غير العلم الذي هو من حظ العقل[1].

(1) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث الثاني: الرياء.

الدرس الثامن

الآداب المعنوية العامة للصلاة (2)

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن كيف تكون الطمأنينة شرطاً من شروط الصلاة المعنوية.
2. يستدلّ على أنّ النشاط والبهجة من الشروط الأساسية للصلاة المعنوية.
3. يوضح أنّ التفهيم من شروط الصلاة المعنوية وكيفية تحقّقه.

نتابع بيان الآداب المعنوية العامّة للصلاة وفقاً لما أورده إمامنا الخميني قدس سره في كتابه «الآداب المعنوية للصلاة»[1]، ونصل الى الأدب الرابع منها وهو أدب الطمأنينة:

أدب الطمأنينة

من الآداب المعنوية الهامّة للعبادات - ولا سيّما التي يطغى فيها طابع الذِّكر كالصلاة - أدب الطمأنينة. وأداء الصلاة أو أي عبادة أخرى بحال الطمأنينة يعني أن يؤدّيها العابد وهو في حالٍ من سكينة القلب واطمئنان البال.

وهذا يعني أن يكون قلب الإنسان هادئاً مطمئناً غير مضطربٍ لأي سببٍ من الأسباب، وساكناً غير متزلزلٍ بأي عاملٍ من العوامل. أمّا لماذا يعتبر هذا الأدب في غاية الأهمية وما هي فائدته بالنسبة للعبادة؟

لنجيب عن هذا السؤال علينا أن ندرك أولاً أن القلب هو مركز التأثّر في الإنسان وهو المستهدف من العبادة، فهو المقصود منها وهو الذي تروم العبادة تغييره وتشكيله على صورة العبودية وجعله منفعلاً بها ومتّحداً بحقيقتها. فإذا ما تمّ للقلب هذا الأمر وأصبح عابداً حقيقياً وتمكّنت العبادة منه غدا جميع وجود الإنسان عابداً لله تعالى.

فإن القلب هو أمير البدن وهو مركز الباطن أيضاً وصورة الباطن تتشكّل بحسب حقيقة القلب وصورته، والجوارح الخارجية للإنسان إنّما تتحرّك بإمرة القلب وبحسبه.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «**...إنّ الله تعالى ما فرض الإيمان على جارحة من جوارح الإنسان إلا وقد وُكِلَتْ بغير ما وُكِلَتْ به الأخرى فمنها قلبه الذي يعقل به**

(1) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى.

ويفقه ويفهم ويحلّ ويعقد ويريد وهو أمير البدن وإمام الجسد الّذي لا تُورَدُ الجوارح ولا تصدر إلّا عن رأيه وأمره ونهيه...»[1].

وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن لنا أن نفهم إحدى علل تكرار العبادات كالصلاة اليومية مثلاً، حيث إن تكرارها وترديد أذكارها وإعادة أورادها يهدف إلى زيادة أثرها في قلب الإنسان وتعميقه فينفعل بها ويتّحد بروح العبادة ويسري هذا الأثر إلى كلّ باطنه ثم إلى أعضائه الخارجية، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام: «**فاجعل قلبك قبلةً للسانك لا تحرّكه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضا الإيمان**»[2].

فإذا كان هذا هو الواقع فيمكن لنا أن نستنتج أهمّية كون القلب في حالٍ من الطمأنينة عند العبادة، لأن القلب المتزلزل المضطرب لا يمكن له أن ينفعل بالعبادة مهما بلغت وعظمت.

ويمكننا لتوضيح الصورة أن نشبّه القلب المتزلزل بالأرض المهتزّة والمتزلزلة التي نريد أن نشيد فيها بنياناً، فهل يمكننا ذلك في هذه الحال من الاضطراب والاهتزاز؟ أم أن جميع جهود البناء وكلّ الموارد والمواد التي سنستثمرها سوف تذهب سدىً وكأنها هباءٌ منثور؟ إن الحلّ الوحيد لهذه المشكلة يكمن في البحث عن أرضٍ ثابتةٍ صلبةٍ تثمر فيها جهودنا بنياناً مرصوصاً.

والأمر سيّان بالنسبة للقلب فلكي ينفعل ويتأثّر بالعبادة وتؤتي فيه العبادة أكلها لا بد من أن يكون ساكناً، هادئاً ومطمئناً فينتقل هذا الأثر بالتدريج وعلى أثر تكرار العبادة من القلب إلى الجوارح ويظهر عليها.

---

(1) العلاّمة المجلسي، بجار الأنوار، ج66، ص74. وعن محمّد بن سنان عن بعض أصحاب عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال سمعته يقول لرجل اعلم يا فلان إنّ منزلة القلب من الجسد بمنزلة الإمام من النّاس الواجب الطّاعة عليهم ألا ترى أنّ جميع جوارح الجسد شرط للقلب وتراجِمة له مُؤَدّية عنه، الأذنان والعينان والأنف واليدان والرّجلان والفرج، فإنّ القلب إذا همَ بالنَظر فتح الرَجل عينيه، وإذا همَ بالاستماع حرّك أذنيه وفتح مسامعه فسمع، وإذا همَ القلب بالشّم استنشق بأنفه فأدّى تلك الرّائحة إلى القلب، وإذا همَ بالنّطق تكلّم باللّسان، وإذا همَ بالحركة سعت الرجلان، وإذا همَ بالشّهوة تحرّك الذّكر، فهذه كلُها مؤدّية عن القلب بالتّحريك وكذا ينبغي للإمام أن يطاع للأمر منه» العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج58، ص250.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل،ج5،ص397.

ومثالٌ على ذلك ترديد الذكر الشريف: «لا إله إلا الله» فإذا قاله إنسانٌ مع سكينةٍ في قلبه وباطمئنانٍ من لبّه وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف، حينئذ يتعلّمه القلب ويتكلّم به شيئاً فشيئاً ويلهج به، ثم يعقب ذلك أن يتبع اللسان الظاهر القلب في ذكره وينقاد خلفه في ترديده.

أما إذا ردّد الإنسان نفس هذا الذكر الشريف بلا سكونٍ في القلب ولا طمأنينةٍ منه ومع عجلةٍ واضطرابٍ وتشتّتٍ، فلن يحصل منه أيّ تأثيرٍ فيه ولن يتجاوز الذّكر حدّ اللّسان والسمع الظاهريين إلى اللسان والسمع الباطنيين الإنسانيين، ولا تتحقّق حقيقته في باطن القلب، ولا يصير صورةً كماليةً له غير ممكنة الزوال. ومن هنا يتّضح لنا أهمية أدب الطمأنينة في تحقيق العبادات لأهدافها ولا سيّما الصلاة.

النشاط والبهجة في العبادة

ومن الآداب القلبية للصلاة وسائر العبادات كما له نتائج حسنةٌ في التكامل الروحي، أن يجتهد الإنسان السالك إلى الله بقدم العبودية في أن تكون عبادته مصحوبةً بنشاطٍ وبهجةٍ في قلبه وفرحٍ وانبساطٍ في خاطره، وأن يحترز احترازاً شديداً من الإتيان بالعبادة مع الكسل وإدبار النفس. لأنه إذا أجبر النفس على العبادة حين الكسل والتعب، فسيحصد آثاراً سيئةً هي عكس المرجوّ من العبادة.

وقد ذكرنا أن الهدف من العبادة هي انفعال قلب الانسان بها وبتبعه باطنه وصيرورة العبودية صورةً باطنية للقلب. فإذا ما أكره إنسانٌ ما نفسه على العبادة فلن يحصل المطلوب. ليس هذا فحسب بل وسيتولّد في نفسه نفورٌ من العبادة وقد ينتج منه في بعض الحالات انصرافٌ تامٌّ عن ذكر الحق وعبادته والعياذ بالله.

والآن نضيف بأن واحدةً من أسرار العبادات ونتائجها المرجوّة هي امتثال القوى الظاهرية والباطنية للإنسان لأحكام القلب وأوامره، وذلك بأن تطيعه وتترك التمرّد والعصيان والأنانية وتذوب إرادتها في إرادته وتتم هزيمة النفس الأمّارة بالسوء فتقوى بالنتيجة إرادة الإنسان. ولكي يحصل هذا الأمر لا بد من أداء العبادة مع بهجةٍ وإقبالٍ

ورغبةٍ في نفس العابد، كي تحصل له حالة المحبة والعشق لذكر الحق ولمقام العبودية، ويحصل له الأنس.

وكما أن الأطباء يعتقدون بأن الطعام إذا أكل في حال السرور والبهجة يكون أسرع في الهضم، كذلك فإن الطب الروحي يشترط بأن يتغذّى الإنسان بالأغذية الروحانية في حالٍ من البهجة والاشتياق، محترزاً عن الكسل والتكلّف حتى تظهر آثارها في القلب والباطن أسرع.

النشاط والبهجة في الكتاب والسنة

وفي القرآن الكريم إشاراتٌ إلى هذا الأدب، فقد قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾[1]. وقد فسرّت الآية: ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾[2] بأن المراد من سكارى كسالى.

وفي الروايات الشريفة إشارةٌ أيضاً إلى هذا الأدب، وهذه بعضها:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**يا عليّ إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تُبَغِّض إلى نفسك عبادة ربّك**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة**»[4].

وهنا حديثٌ مهمٌّ عن العسكري عليه السلام: «**إذا نشطت القلوب فأودعوها وإذا نفرت فودّعوها**»[5].

فهذا الحديث يشير إلى الإنسان السالك بأن يعامل نفسه برفقٍ ومداراةٍ فيراعي أحوالها من الفتور والنشاط، فلا يكرهها إذا فترت عن العبادة لينفّرها منها، وأن يقبل عليها إذا نشطت.

---

(1) سورة التوبة، الآية 54.
(2) سورة النساء، الآية 43.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص87.
(4) م. ن، ص86.
(5) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص60.

ونختصر المطلب فنقول على العابد أن لا يحمّل نفسه أكثر من طاقتها وما لا يتناسب مع حالها. بل عليه أن يكون كالطبيب الحاذق فيقيس نبضها ويتعامل معها وفقاً له.

وهذا الأمر يختصّ بالشباب وبحديثي العهد بالسلوك المعنوي أكثر من غيرهم من الذين تجاوزوا مرحلة الشباب أو قطعوا مراتب في السير والسلوك، فهؤلاء حريٌّ بهم أن لا يرخوا العنان لأنفسهم التي قد تكون اعتادت على الكسل والفتور بل عليهم أن يزيدوا من مجاهداتهم لأنفسهم شيئاً فشيئاً حتى ترتاض وتنصاع لأوامر القلب وتقوى إراداتهم الموافقة لإرادة الله تعالى.

وما ورد في الأحاديث الشريفة من الحثّ على العبادة والمواظبة عليها والجدّ والاجتهاد فيها إنّما هو موجّهٌ إلى هؤلاء.

بينما نجد نوعاً مختلفاً من الأحاديث الموجّهة إلى الشباب حول موضوع العبادة، منها ما ورد في حديثٍ لأبي عبد الله عليه السلام حيث قال: «**اجتهدت في العبادة وأنا شابٌّ فقال لي أبي يا بنيّ دون ما أراك تصنع فإن الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً رضي منه اليسير**»[1].

وأحد الفروق بين الفئتين إنما يرجع إلى تميّز فترة الشباب باستعار نار الشهوة، فما لم يعامل الشباب أنفسهم بالرفق والمداراة ولم يعطوا أنفسهم حقوقها، فربّما يُطلق عنان الشهوات في أنفسهم بسبب التعرّض للضغط والكبت الزائدين.

ولهذا فإن من الأمور التي تساعد الشاب على العبادة بنشاطٍ وعلى السلوك إلى الله تعالى والقرب منه الزواج، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من تزوّج فقد أحرز نصف دينه**»[2].

وليس صحيحاً كبت الإنسان والشاب بالخصوص، لشهوات النفس التي تقتضيها الطبيعة الإنسانية، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «**إن جماعةً من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء؟ إني آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس مني، وأنزل الله:** ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص87.
(2) م. ن، ج5، ص328.

لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[1]»[2].

وإجمالاً فإن الميزان في مراعاة هذا الأدب يكمن في التفات الإنسان إلى أحوال نفسه فيسلك بها بما يناسب قوّتها وضعفها، فإذا كانت قويّةً في العبادات ومقبلةً عليها فعليه أن يجدّ ويجتهد في العبادة. مع ملاحظة الفارق بالنسبة إلى من تجاوز مرحلة الشباب فعليه أن يشمّر عن ساعد الهمّة ويروّض نفسه على العبادة وبالتدريج حتى يحصل له الأنس الذي لا يبدله أصحابه بأيّ شيءٍ من هذا العالم مهما عظمت قيمته.

التفهيم

من الآداب المعنوية في العبادات - وخصوصاً العبادات الذّكرية - التفهيم، وهو يعني إفهام القلب الأذكار والأوراد وأسرار العبادات وحقائقها، حتى ينفتح لسان القلب بالنطق بها، وهو المطلوب الحقيقي كما أشرنا مراراً في السابق. وهذا الأدب مهمٌّ جداً وخاصّة بالنسبة إلى المبتدئين.

ولكن كيف يتمّ ذلك؟

على الإنسان أن يعامل قلبه في بادئ الأمر كما يعامل طفلاً يتولّى مسؤولية تعليمه النطق، فيعلّمه كلاً من الأذكار والأوراد والحقائق وأسرار العبادات بغاية الدقّة والعناية، ويفهمه الحقيقة التي أدركها في كلٍّ منها على قدر مرتبته.

فمثلاً إذا لم يكن في مرتبة فهم معاني القرآن والأذكار وأسرار العبادات فعليه أن يفهم قلبه المعنى الإجمالي الذي باستطاعة أيٍّ كان إدراكه، وهو أن القرآن كلام الله وأن الأذكار مذكِّرات بالحق تعالى والعبادات إطاعة لأمر الربّ.

وأما إن كان في مرتبة فهم المعاني الظاهرية الصورية للقرآن والأذكار، فيفهم قلبه بكل عنايةٍ هذه المعاني الصورية من الوعد والوعيد والأمر والنهي وعلم المبدأ والمعاد بالمقدار الذي أدركه.

(1) سورة المائدة، الآيتان 87 - 88.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج20، ص22.

وإن كُشفت له حقيقةٌ من حقائق المعارف، أو كُشف له سرٌّ من أسرار العبادات، فيعلّم القلب ذاك المكشوف بجدٍّ واجتهاد. أما النتيجة المرجوّة من أدب التفهيم والتي تعطيه أهمّيته الفائقة فهي أنه بعد مدّةٍ من المواظبة، ينطلق لسان القلب الذي شبّهناه بالطفل المتعلّم للنطق، فيصبح القلب بنفسه ذاكراً ومتذكّراً.

ففي أوّل الأمر كان القلب متعلّماً واللسان الظاهريّ هو أداة المعلّم أي الإنسان صاحب القلب، وكان القلب يتبع اللّسان الظاهري في الذّكر. ولكن عندما يتعلّم القلب الذّكر وينطق لسانه به يصبح الأمر معكوساً، فيكون القلب ذاكراً أوّلاً ويتبعه اللسان الظاهري في الذّكر والحركة.

وهنا نقف عند سرٍّ جديدٍ من أسرار تكرار الأذكار والأدعية ودوام الذّكر والعبادة، وهو انطلاق لسان القلب الذي تأثّر بالعبادة وفهم معانيها. وقد أُشير إلى هذا المعنى في الأحاديث الشريفة كما ورد عن الصادق عليه السلام أن عليّاً عليه السلام قال في بيان بعض آداب قراءة القرآن: «**ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة**»[1]. وأيضاً عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال لأبي أسامة: «**يا أبا أسامةَ ارعوا قلوبكم بذكر الله عزَ وجلّ واحذروا النّكْت**»[2].

وقد قلنا سابقاً أنه ونتيجةً لتكرار العبادات تصبح قوى النفس والقوى الظاهرية مؤتمرةً بأوامر القلب وتابعةً له، وهنا نقول أنه نتيجةً لرعاية أدب التفهيم وبعد مدّةٍ من المواظبة، يصبح اللسان الظاهري تابعاً للسان القلب وناطقاً بنطقه.

وفي الواقع إن هذه النتيجة هي علامةٌ لنجاح الإنسان في تفهيم وتعليم قلبه معاني الأذكار والعبادات. فعندما ينطق لسان القلب يرتفع تعب تعليم الذّكر ومشقّته والملل عن المعلّم ويحصل النشاط والفرح بتحقّق الغاية. وذلك كشأن الإنسان الذي يعلّم طفلاً النطق والكلام، فما دام الطفل لم ينطق، فإن المعلم يكون في تعبٍ وملالة، فإذا انطلق لسان الطفل وأدّى الكلمة التي علّمه إياها ارتفعت ملالة المعلم. فإذا انطلق لسان القلب

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص207.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص167.

بالذّكر والحقائق بيسرٍ وسهولةٍ، بلا مشقّة أو مللٍ، ردّدها لسانه الظاهري أيضاً بنشاطٍ وبهجةٍ وفرح. فيكون القلب قائداً واللسان تابعاً له.

وقد كان الأئمة عليهم السلام يراعون هذا الأدب كما في الحديث أن الصادق عليه السلام كان في صلاته فغشي عليه فلمّا أفاق سُئل عن سببه فقال عليه السلام: «**ما زلت أردد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها**»[1].

إذاً، مراعاة أدب التفهيم يقتضي بتلقين القلب للأذكار، وعدم الاقتصار على الذكر الظاهري فإن الذّكر اللساني رغم أهمّيته - كونه أداةً للتعليم - ولكن الذّكر القلبي هو الأهم، لأن القلب هو محور العبادات. لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر: «**يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خيرٌ من قيام ليلةٍ والقلب ساه**»[2].

(1) الشيخ البهائي العاملي، مفتاح الفلاح، ص372، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان، لا.ت، لا.ط.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص74.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - معنى الطمأنينة في الصلاة أن يؤدّيها العابد وهو في حالٍ من سكينة القلب واطمئنان البال ☐

2 - من العوامل المؤثّرة في طمأنينة القلب كون القلب منصرفاً نحو الانشغالات الدنيوية ☐

3 - القلب العابد حقيقة لله هو أن يصير جميع وجود الإنسان عابداً متأثّراً بالله تعالى ☐

4 - القلب هو مركز التأثّر في الإنسان وهو المستهدف من العبادة التي تبغي تشكيله على صورة العبودية وجعله متّحداً بحقيقتها ☐

5 - إذا أدّيت العبادة مع إقبال قلب ورغبة في نفس العابد فإنّها تكون سبباً لتقوية إرادة الإنسان وعزيمته ☐

6 - أحد أسرار العبادات هي امتثال القوى الظاهرية والباطنية للإنسان لأحكام القلب وأوامره ☐

7 - الميزان في مراعاة أدب النشاط والبهجة يكمن في التفات الإنسان إلى أحوال نفسه فيسلك بها بما يناسب قوّتها وضعفها ☐

8 - أدب التفهيم يعني إفهام القلب الأذكار والأوراد وأسرار العبادات وحقائقها ☐

9 - مراعاة أدب التفهيم يقتضي تلقين القلب للأذكار، والاقتصار على الذكر الظاهري فقط ☐

10 - إن علامة نجاح تلقين القلب للأذكار أن ينطلق اللسان الظاهري بالذكر بكلّ يسرٍ وسهولة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. من الآداب المعنوية الهامّة للعبادات أدب الطمأنينة. وأداء الصلاة بحال الطمأنينة يعني أن يؤدّيها العابد وهو في حالٍ من سكينة القلب واطمئنان البال.
2. القلب هو مركز التأثّر في الإنسان وهو المستهدف من العبادة وهو أمير البدن والجوارح الخارجية للإنسان إنّما تتحرّك بإمرته.
3. أحد أسرار العبادات هي امتثال القوى الظاهرية والباطنية للإنسان لأحكام القلب وأوامره، وذلك بأن تطيعه وتترك التمرّد والعصيان والأنانية وتذوب إرادتها في إرادته وتتم هزيمة النفس الأمّارة بالسوء فتقوى بالنتيجة إرادة الإنسان. ولكي يحصل هذا الأمر لا بد من أداء العبادة مع بهجةٍ وإقبالٍ ورغبةٍ في نفس العابد.
4. الميزان في مراعاة أدب النشاط والبهجة يكمن في التفات الإنسان إلى أحوال نفسه فيسلك بها بما يناسب قوّتها وضعفها، فإذا كانت قويّةً في العبادات ومقبلةً عليها فعليه أن يجدّ ويجتهد في العبادة. مع ملاحظة الفارق بالنسبة إلى من تجاوز مرحلة الشباب فعليه أن يشمّر عن ساعد الهمّة ويروّض نفسه على العبادة.
5. من الآداب المعنوية في العبادات أدب التفهيم، وهو يعني إفهام القلب الأذكار والأوراد وأسرار العبادات وحقائقها، حتى ينفتح لسان القلب بالنطق بها، وهذا الأدب مهمٌّ جداً وخاصّة بالنسبة إلى المبتدئين.
6. مراعاة أدب التفهيم يقتضي بتلقين القلب للأذكار، وعدم الاقتصار على الذكر الظاهري فإن الذّكر اللساني رغم أهمّيته - كونه أداةً للتعليم - ولكن الذّكر القلبي هو الأهم، لأن القلب هو محور العبادات. وعلامة نجاح هذا التلقين أن ينطلق اللسان الظاهري بالذكر بكل يسرٍ.

للمطالعة

الذكر التام

إنَّ ذكر الحق والتذكّر لذاته المقدّس من صفات القلب، وإنّ القلب إذا تذكّر ترتبت عليه ـ القلب ـ جميع الفوائد المذكورة للذكر، ولكن الأفضل أن يعقب الذكر القلبي، الذكر اللساني. وإن أفضل وأكمل مراتب الذكر كافّة هو الذكر الساري في نشآت مراتب الإنسانية، والجاري على ظاهر الإنسان وباطنه، سرّه وعلنه.

فيكون الحق سبحانه مشهوداً في سرّ الوجود، وتكون الصورة الباطنية للقلب والروح، صورة تذكّر المحبوب. ويطغى على الأعمال القلبية والقالبية - الظاهرية - التذكّر لله سبحانه. وتنفتح الأقاليم السبع الظاهرية، والممالك الباطنية، على ذكر الحق، وتتسخّر لتذكّر الجميل المطلق. بل لو أنّ حقيقة الذكر تحوّلت إلى صورة باطنية للقلب، وانفتحت مملكة القلب على يديه(الذكر) لجرى حكمه في كل الممالك والأقاليم - القوى الجسمية الظاهرية والباطنية - ولكانت حركة وسكون العين واللسان واليد والرجل، وأفعال كل القوى والجوارح مع ذكر الحق.

ولم تقم - القوى الظاهرية والباطنية في جسم الإنسان - بإنجاز ما يخالف الوظائف الشرعية المقررة. فتكون حركاتها وسكناتها مبدوّة ومختومة بذكر الحق، وتَنْفُذُ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ ﴾[1] في جميع أطراف المملكة ـ جسم الإنسان بما فيه القوى الظاهرية والباطنية[2].

(1) سورة هود، الآية 41.

(2) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحَديث الثَّامِن عشَر: الذّكر.

الدرس التاسع

حضور القلب في العبادة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر أهمّية أدب حضور القلب ومحوريّته في العبادات والصلاة خاصّة.
2. يبيّن الموانع التي تحول دون حضور القلب في العبادة والصلاة.
3. يشرح كيفيّة إزالة الموانع لتحصيل حضور القلب في العبادة.

معنى حضور القلب

قال الامام الصادق عليه السلام: «**اذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرك عظمة الله عز وجل واذكر وقوفك بين يديه، قال تعالى: هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردّوا الى الله مولاهم الحق... وقف على قدم الخوف والرجاء**»[1]. فحضور القلب إذاً هو إفراغه من أي شيءٍ يشغله عن الله تعالى وعظمته.

وقد ورد في جامع السعادات: «حضور القلب: وهو أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابسٌ له ومتكلّمٌ به، حتى يكون العلم مقروناً بما يفعله وما يقوله، من غير جريان الفكر في غيرهما. فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكرٌ لما هو فيه من غير غفلةٍ عنه، فقد حصل حضور القلب. ثم حضور القلب قد يُعبّر عنه بالإقبال على الصلاة والتوجّه، وقد يُعبّر عنه بالخشوع بالقلب..»[2].

والمراد من حضور القلب في الصلاة هو أن يكون مشغولاً وملتفتاً إلى حال الصلاة ومتوجّهاً إلى الله في أفعاله وأقواله وغيرها ومفرّغاً فكره عما سوى الحق[3].

(1) منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، الباب التاسع والثلاثون، في افتتاح الصلاة، ص87.

(2) ملا محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج3، ص259، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر / تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، دار النعمان للطباعة والنشر، لا.ت، لا.ط.

(3) راجع السيد عبد الحسين دستغيب، صلاة الخاشعين، دار التعارف، ص 35.

أهمّية حضور القلب في الروايات

قد يكون هذا الأدب هو لبّ الآداب المعنوية للصلاة وقطب الرّحى فيها، وعنوانه دليلٌ على ذلك فلطالما أشرنا في السابق إلى أن القلب هو المحور في العبادات، وأنّه هو الذي تبتغي العبادة تغييره والتأثير فيه وتشكيله على صورة العبودية وتحويله إلى عابدٍ حقيقي. فأيّ أهمّيّةٍ لهذا الأدب؟ وما هو السرّ في ذلك؟

إن رعاية حضور القلب في العبادات ولا سيّما في الصلاة، هو أحد أهم الآداب القلبية قاطبةً، إذ ليس للعبادة من دونه روحٌ أو معنىً. وهو مفتاح قفل الكمالات وباب أبواب السعادات وقلّما اهتُمّ بشيءٍ من الآداب كهذا الأدب في الأحاديث الشريفة.

ومثالٌ على ذلك ما ورد عن رسول الله محمّدٍ ﷺ: «**من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيءٍ من الدنيا غفر الله له ذنوبه**»[1].

وعنه ﷺ: «**إن من الصلاة لما يُقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر وإن منها لما تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيُضرب بها وجه صاحبها وإنما لك في صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك**»[2]. وعنه أيضاً ﷺ قال: «**لا يقبل الله صلاة عبد لا يَحضُر قلبه مع بدنه**»[3].

وعن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنهما قالا: «**إن ما لك من صلاتك إلا ما أقبلت عليه فيها فإن أوهمها كلّها أو غفل عن آدابها لُفّت فضُرب بها وجه صاحبها**»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أحرمت في الصلاة فأقبل إليها، لأنك إن أقبلت أقبل الله إليك وإن أعرضت أعرض الله عنك، فربّما لا يرفع من الصلاة إلا ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبل المصلّي إليها وإن الله لا يعطي الغافل شيئاً**»[5].

---

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج81، ص249.
(2) م. ن، ص260.
(3) م. ن، ص 242.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص363.
(5) م. ن، ص 266.

نتائج حضور القلب وآثاره

وللإضاءة أكثر على أهمية هذا الأدب نذكّر بما مرّ سابقاً من أن العبادات والمناسك والأذكار والأوراد إنما تنتج نتيجةً كاملةً إذا صارت صورةً باطنيةً للقلب، وتخمّر باطن الإنسان بها، وتصوّر قلب الإنسان بصورة العبودية وخرج عن الهوى والعصيان. وكذلك ما ذكرناه من أن أسرار العبادات وفوائدها أن تتقوّى إرادة النفس وتتغلّب النفس على القوى الطبيعية فتصبح مسخّرةً لها ولسلطنتها.

ونضيف الآن وبشكلٍ أكثر تفصيلاً أن من نتائج العبادات المهمّة أن تصبح إرادة النفس الملكوتية نافذةً في ملك البدن بحيث تكون القوى الظاهرية بالنسبة إلى النفس كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

ويعقب ذلك نتيجةٌ مهمّةٌ أخرى وهي أن تغدو مملكة البدن بجميعها، ظاهرها وباطنها، مسخّرةً تحت إرادة الله، وتكون القوى الملكوتية والملكية للنفس من جنود الله، وتكون كلها كملائكة الله. ويترتّب على هذه النتيجة أن تصبح النفس مرتاضةً بعبادة الله بالتدريج، وتنهزم جنود إبليس بشكل نهائي وتنقرض، ويكون القلب مع قواه مسلّمين للحق.

وجميع النتائج المذكورة لن تتمّ ما دام القلب غير حاضرٍ في محضر العبادة حضوراً كاملاً وقائماً فيه، وما دام يتقلّب غافلاً بعيداً عنه.

فإذا كان القلب في وقت العبادة غافلاً وساهياً لا تكون عبادته حقيقيةً بل تشبه اللهو واللعب، ولا يحصل لمثل هذه العبادة أثرٌ في النفس البتة، ولا تتجاوز العبادة من الصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت. فتكون عبادتنا قشراً بلا لبٍّ وصورةً بلا باطن، فتزول مع زوال قشور هذه الدنيا الفانية ولا يتبقّى منها أي أثرٍ يصحب الإنسان لدى انتقاله من دار الفناء إلى دار البقاء حيث لا يبقى إلا ما كان حقيقياً[2].

(1) سورة التحريم، الآية 6.

(2) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى، الفصل الثامن في بيان حضور القلب.

موانع حضور القلب

بعد أن بيّننا أهمّية حضور القلب لتحصيل فوائد العبادة ينبغي أن نوضح سبيل تحصيله، ولكن لا بدّ أولاً من التعرّف إلى الموانع والعوائق التي تحول دون تحقّق حضور القلب، فإنّ إزالتها يجعل طريق إحراز هذا الأدب الفائق الأهمية سالكةً ومعبّدةً.

وموانع حضور القلب في العبادات هي كلّ ما يستدعي غفلة القلب عن محضر العبادة ويذهله عن معاني حركات وأذكار وطقوس العبادات ويسرح به بعيداً عن الحضور في موعد لقاء المعبود عزّ وجلّ.

وتنشأ الموانع إمّا من أمورٍ خارجيةٍ عن طريق الحواسّ الظاهرية، وإمّا من أمورٍ باطنيةٍ عمدتها عقبتان رئيستان، هما الخيال وحبّ الدنيا.

ونعني بالموانع الناشئة من أمورٍ خارجيةٍ كلّ ما يرد إلى ذهن الإنسان عن طريق الحواسّ الظاهرية كأن يسمع أو يرى في حال العبادة شيئاً فيتعلّق ذهنه به، فينشغل به خياله ويتشتّت خاطره فيذهل بالكلّية عن عبادته، وإن كان قائماً في الصلاة مثلاً، فلا يلتفت إلّا وقد ختمها مسلّماً دون أن يعي ممّا قاله فيها حرفاً واحداً!

وقد نظنّ للوهلة الأولى أن حلّ هذه المشكلة يكمن في أن يعزل المصلّي نفسه عن كل ما يمكن أن يتسرّب إليه عن طريق الحواس، فيصلّي في غرفةٍ خاليةٍ من أيّ شيءٍ وأحدٍ، ولكن الواقع أن هذا حلٌّ جزئيٌّ وهو غير ذي فاعليةٍ حقيقية طالما أن المشكلة الأساسية هي في ما تولّده هذه المحسوسات في خيال الإنسان وتنتجه من تخيّلاتٍ وأوهام، وما تصرف الذهن إليه من أفكارٍ وليس فقط في استقبال الذهن لها، والذي قد يحدث في لحيظاتٍ قليلةٍ سرعان ما تنقضي.

بل ربما يقود خلوّ الغرفة المصلّي إلى خيالاتٍ من نوعٍ آخر أشدّ تشتيتاً له وإبعاداً للقلب من محضر الصلاة، فالحلّ إذاً يكمن في امتلاك القدرة للسيطرة على قوّة الخيال لدى الإنسان وهي في الواقع إحدى المانعين الباطنيين.

أما بالنسبة للموانع الناشئة من عوامل باطنيةٍ فهما كما ذكرنا قوّة الخيال لدى الإنسان وحبّ الدنيا المتمكّن من قلبه:

1. الخيال:

قوّة الخيال أو المتخيّلة، وهي قوّة موجودةٌ لدى كلّ إنسان بشكلٍ طبيعيٍّ ولها فوائدها العظمى بالنسبة إليه، فمن دونها مثلاً لا يتمكّن الإنسان من الذهاب إلى مكانٍ ما لأنه لا يمتلك القدرة على تخيّل وتصوّر الطريق إليه. ولكن المشكلة تقع عندما يعمل الخيال في غير مكانه ووقته المناسبين وهو ما يحدث تلقائياً وبشكلٍ دائمٍ، لأنه وكما يقال إن طائر الخيال بطبيعته فرّار.

فمن شدّة انتقالها من خيالٍ إلى آخر ومن صورةٍ إلى أخرى تمّ تشبيه هذه القوة بالطائر الذي لا يعرف استقراراً فتجده يطير باستمرارٍ من غصنٍ إلى آخر، ومن شجرةٍ إلى أخرى.

وكون الخيال مولّداً دائماً للخيالات والصور هو أمرٌ لا يُبتلى به أهل الدنيا فقط، بل حتى أولئك الذين تعلّقت قلوبهم بالآخرة، فهم لا ينجون من هذه المصيبة الناشئة من طبيعة وخصائص قوّة الخيال.

والذي ينجو من هذه المصيبة هو ذلك الذي يروّض هذه القوّة والتي كما سنبيّن لاحقاً، هي قوّةٌ قابلةٌ للترويض ويمكن لصاحبها السيطرة عليها بمجاهدةٍ خاصّةٍ.

ومن المهم أن نعلم أن تحصيل سكون الخاطر وطمأنينة النفس أثناء العبادة لن يحصل بغير التمكّن من السيطرة على الخيال وبذلك نكون قد قضينا على مانعٍ خطيرٍ يمنع من حضور القلب في العبادة.

2. تعلّق القلب بالدنيا:

المانع الثاني هو تعلّق القلب بالحيثيّات الدنيوية وحبّه للدنيا الذي هو رأس الخطايا والأمراض الباطنية، وهو شوك طريق أهل السلوك ومنبع المصيبات. وما دام القلب متعلّقاً، ومنغمساً في حب الدنيا فالطريق لإصلاح القلوب مسدودٌ، وباب جميع

السعادات مغلقٌ في وجه الإنسان. والسبب في ذلك أن القلب يتوجّه إلى محبوبه بمقدار تمكّن حبّه منه:

فإن كانت الدنيا هي محبوبته وقد استحوذت عليه فإنها تأخذ بشغافه وعنايته في كافّة حالاته وهنيهاته، وتشغله بفتنتها في كل أوانٍ، فينصرف عن كلّ ما سواها بما في ذلك العبادة والحضور في الصلاة موعد الثناء على ربّ العزّة المتعال. وهذا الإنسان ليس له من العبادة والعبودية نصيب.

وإن كان حب الدنيا قد خالط قلبه ولكنه لم يستحوذ عليه بالكلّية فإنه قد ينشغل عن محبوبته بأمورٍ أخرى ولكن ما أن يزول الانشغال فإنه يطير إليها على عجلٍ، وفي أغلب الأحيان يكون وقت الصلاة بالنسبة لهذا الإنسان موعداً ليلتقي محبوبته الدنيا حيث يترك سائر انشغالاته وينصرف إليها، فلا يجني من صلاته غير الخسران لأن: «**ما لك من صلاتك إلا ما أقبلت عليه فيها فإن أوهمها كلها أو غفل عن آدابها لفّت فضرب بها وجه صاحبها**»[1].

أما أولئك الذين تذوّقت قلوبهم لذّة حب المحبوب المطلق، والذين يرون جمال محبوبهم عزّ وجلّ في كل شيء فإنهم ينتظرون موعد لقائهم به ويأتون بالصلاة بآدابها وتحضر قلوبهم فيها بلا كلفةٍ لأنها لا تروم سواه.

كيفية تحصيل حضور القلب

بعد أن عرفنا موانع حضور القلب أثناء العبادة وتبيّن لنا أن عمدتها عاملان رئيسان، هما تشتّت الخيال وحب الدنيا، ننتقل الآن لتوضيح كيفيّة إزالة هذين العاملين. وذلك لأن بقاءهما عني عدم إقبال القلب على الصلاة والعبادة واستمرار غفلته، ممّا يعني أن صلاة الإنسان لن تكون مقبولةً من جانب الحق المتعال، في الوقت الذي تعتبر فيه الصلاة الميزان في قبول أعمال الإنسان أو ردّها عليه، نعوذ بالله من ذلك وسوء عاقبته.

1. السيطرة على قوة الخيال:

لا يمكن لنا الحديث عن إزالة قوة الخيال، فهو كما أصبح واضحاً قوّةٌ طبيعيةٌ ولازمةٌ للإنسان، ولكن علينا الحدّ من كونها مانعةً لحضور القلب في العبادة، ولذلك نكون بصدد

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص363.

السيطرة على هذه القوّة. وقوّة الخيال هي كسائر قوى الإنسان الظاهرية والباطنية قابلةٌ للتربية والترويض والتهذيب والتدريب.

فعين الإنسان مثلاً قابلةٌ للتدريب حيث يمكن للمتدرّب بنحوٍ خاص أن ينظر إلى قرص الشمس ساعاتٍ عديدة دون أن يغمض جفنه، بينما لم يكن بمقدوره النظر سابقاً لثوانٍ قليلةٍ. كما يمكن برياضةٍ خاصّةٍ أيضاً لمرتاضٍ أن يحبس أنفاسه مدّةً طويلةً غير معتادةٍ، بل ويمكن وبرياضةٍ خاصّةٍ للبعض أن يتحكّم بدقّات قلبه فيبطئها مثلاً.

وكذلك القوى الباطنية هي قابلةٌ للتربية وللتدريب وكمثالٍ عليها التدريبات الذهنية لامتلاك الكثير من القدرات المختلفة كتقوية الشخصية أو الطلاقة في الكلام أو تنمية الذاكرة...

ومن ضمن هذه القوى الباطنية القابلة للتدريب قوّة الخيال، بحيث يصبح طائر الخيال إثر الرياضة الخاصّة طيّعاً في قبضة صاحبه لا يتحرّك إلا بإرادته واختياره. والرياضة الخاصّة لهذا التطويع هو مبدأ العمل بالخلاف. وتطبيق هذا المبدأ في الصلاة يقتضي:

أولاً: أن يقرّر الإنسان أن يحفظ خياله أثناء صلاته ويسيطر عليه، ويجعل تحقيق هذه السيطرة هدفاً له.

ثانياً: أن يبقى المصلّي مركّزاً على هدفه أثناء الصلاة، وبمجرّد أن يلحظ تحرّكاً لخياله خارج أذكار الصلاة ومعانيها يوقفه فوراً ويردّه إلى الصلاة.

ثالثاً: أن يبقى ملتفتاً إلى حال خياله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها، ويترصّده ولا يدعه بحاله أبداً.

رابعاً: أن يدرك أن السيطرة على الخيال لن تتمّ بتدريبٍ واحدٍ بل يلزم المواظبة كما هو شأن كل تدريبٍ من أي نوعٍ كان. كما عليه أن لا يتوقّع أن يتمكّن في بداية الأمر من حفظ خياله تماماً في كامل الصلاة بل عليه أن يدرك أنه سيحقّق هذا الهدف بالتدريج، فيمكن أن يحفظه أولاً في عشر الصلاة مثلاً ثم تزداد هذه النسبة شيئاً فشيئاً حتى يحفظه فيها كاملةً آخر المطاف.

خامساً: ينبغي للإنسان أن لا ييأس في كل أحواله، فإن اليأس هو منبع كلّ ضعفٍ ووهنٍ ومكمنٍ للشيطان والوهم. بل عليه أن يجعل كلّ اعتماده على الله عزّ وجلّ، وأن يرفع يده تماماً أثناء مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه، ويتوجّه إلى مسبّب الأسباب، ويتضرّع إليه في خلواته، ويطلب إصلاح حاله منه تعالى، فإنه لا ملجأ دون ذاته المقدسة.

وتبقى الإشارة إلى أن المنشأ الأساسي والمغذّي الأساسي لقوّة الخيال هو حب الدنيا والانشغال بزينتها وسفاسفها، لذا ينبغي قطع هذه الشجرة الملعونة وتجفيف هذا النبع الملوّث، السامّة مياهه.

2. علاج حب الدنيا:

عندما يكون قلب الإنسان مختلطاً بحب الدنيا، وليس له مقصدٌ ولا مقصودٌ غير تعميرها، فلا محالة أن يكون هذا الحب مانعاً من فراغ القلب وحضوره في ذلك المحضر القدسيّ، وعلاج هذا المرض المهلك والفساد المبيد هو العلم والعمل النافعان:

أ. العلم النافع:

التفكّر في ثمرات هذا المرض الذي هو مصدر الأمراض والمفاسد الأخلاقية، وفي نتائجه والمقارنة بينها وبين مضارّه ومهالكه الحاصلة منه. فكم هي محدودةٌ ومحكومةٌ بالفناء والزوال الفوائد الدنيوية التي قد يجنيها الإنسان المحب للدنيا؟ في مقابل ما يسببه حبّها من ضررٍ له!! ويكفي لتبيان فداحة هذا الضرر ما ورد في الكافي

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**رأس كل خطيئة حب الدنيا**»[1].

فيكفي لهذه الخطيئة العظيمة المهلكة أنها منبع جميع الخطايا وأساس جميع المفاسد. فبقليلٍ من التأمّل يدرك الإنسان أن جميع المفاسد الخُلقية والعملية توشك أن تكون من ثمرات هذه الشجرة الخبيثة. فما يحدث في هذه الدنيا من فسادٍ كالقتل والنهب والظلم والفجور والفحشاء والسرقة، إلا وهو بواسطة هذه الموبقة العظيمة. كما أن الفقر والذلّة

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص315.

والطمع والحرص والاستعباد والتملّق والبغض والحقد والجور وقطع الرحم والنفاق وسائر الأخلاق الفاسدة وليدة أم الأمراض هذه.

وحب الدنيا مانعٌ من الفضائل المعنوية، فالشجاعة والعفّة والسخاء والعدالة وطمأنينة النفس وسكون الخاطر وسلامة القلب والكرامة والحرية وعزّة النفس، وكذلك المعارف الإلهية والتوحيد في الأسماء والصفات والأفعال والذات وطلب الحق ورؤية الحق، جميعها متضادّةٌ مع حب الدنيا.

فعن الإمام الصادق عليه السلام «**الدنيا بمنزلة صورةٍ رأسها الكبر وعينها الحرص وأذنها الطمع ولسانها الرياء ويدها الشهوة ورجلها العجب وقلبها الغفلة وكونها الفناء وحاصلها الزوال، فمن أحبّها أورثته الكبر، ومن استحسنها أورثته الحرص، ومن طلبها أوردته إلى الطمع، ومن مدحها ألبسته الرياء، ومن أرادها مكّنته من العجب، ومن اطمأنّ إليها أولته الغفلة، ومن أعجبته متاعها أفنته، ومن جمعها وبخل بها ردّته إلى مستقرّها وهي النار**»[1].

والأحاديث في ذمّ حب الدنيا كثيرةٌ، فإذا ما أدرك المُبتلى به هول مخاطره، عليه أن ينهض بهمّةٍ ليعمل على اقتلاع جذور هذا الحب من قلبه بالعمل النافع.

ب. العمل النافع:

إن طريق علاج حب الدنيا هو مبدأ العمل بالضدّ. فكلّ محبٍّ للدنيا لديه نمطٌ من التعلّق بها، فالبعض يحبّ المال والثروة وتكديس الخيرات وادّخار النفائس، وعلاج هذا الشخص يكون بأداء الحقوق المالية الشرعية الواجبة وبالصدقة المستحبّة، فيعطي ممّا يحبّ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[2]. فإن من أسرار الصدقات تقليل التعلّق بالدنيا.

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص105.
(2) سورة آل عمران، الآية 92.

وإن كان هذا الأمر ثقيلاً على نفسه بادئ الأمر فليعلم أن السبب هو استحكام حب المال في قلبه، وليستمرّ في إنفاقه حتى يقضي على هذا الحب شيئاً فشيئاً.. وقد يصبح العطاء لديه لذّة كما كانت لذّة التملّك وجمع الأموال.

وهكذا، على كلّ إنسان أن يشخّص مورد ابتلائه بحب الدنيا، وفي أيّ الأمور يتجلّى هذا الحب في حياته ويقوم على العمل بخلاف هواه ومضادّة مشتهيات نفسه والثبات على هذه المجاهدة الفترة الكافية من الزمن للتخلّص من أمّ الأمراض هذه واقتلاعها من جذورها، وأن يحرص على مراقبة نفسه دائماً لئلّا يتسلّل هذا المرض الخبيث إليها مجدّداً.[1]

(1) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى، الفصل الثامن في بيان حضور القلب.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - أحد أهم الآداب القلبية في الصلاة رعاية حضور القلب فيها ☐

2 - حضور القلب في الصلاة هو أن يكون المصلي مشغولاً وملتفتاً إلى حال الصلاة، ومتوجّهاً إلى الله في أفعاله وأقواله ومفرّغاً فكره عمّا سوى الحق ☐

3 - من نتائج العبادات المهمّة أن تُصبح إرادة النفس الملكوتية غير نافذة في ملك البدن بحيث تكون القوى الظاهرية بالنسبة إلى النفس كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى ☐

4 - إذا أصبحت النفس مرتاضة بعبادة الله تعالى انهزمت جنود إبليس وصار القلب مسلِّماً قواه للحقّ تعالى ☐

5 - أكّدت الأحاديث الشريفة على أهمّية حضور القلب في العبادات فهو قفل الكمالات وباب أبواب السعادات ☐

6 - موانع حضور القلب هي كلّ ما يستدعي غفلة القلب عن محضر العبادة وانشغاله عن معانيها الحقيقية ☐

7 - تنشأ الموانع إمّا من أمورٍ خارجةٍ عن طريق الحواسّ الظاهرية، وإمّا من أمورٍ باطنيةٍ عمدتها عقبتان رئيستان، هما الخيال وحبّ الدنيا ☐

8 - حبّ الدنيا هو تعلّق القلب بالحيثيّات الدنيوية الموصلة إلى الآخرة ورغبة القلب فيها ☐

9 - من العوامل المؤثّرة في السيطرة على قوّة الخيال هي التركيز على الهدف من عبادة الله سبحانه وتعالى ☐

10 - علاج مرض حبّ الدنيا يكمن في العلم والعمل النافعين والتفكّر في آثاره السلبية والمهلكة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. إن رعاية حضور القلب في العبادات ولا سيّما في الصلاة، هو أحد أهم الآداب القلبية قاطبةً، إذ ليس للعبادة من دونه روحٌ أو معنىً.
2. من نتائج العبادات المهمّة أن تغدو مملكة البدن بجميعها، ظاهرها وباطنها، مسخّرةً تحت إرادة الله، ويترتّب على هذه النتيجة أن تصبح النفس مرتاضةً بعبادة الله بالتدريج.
3. ما دام القلب غير حاضرٍ في محضر العبادة حضوراً كاملاً وقائماً فيه، وما دام يتقلّب غافلاً عن الله. فستكون العبادة قشراً بلا لبٍّ وصورةً بلا باطن.
4. موانع حضور القلب تنشأ إمّا من أمورٍ خارجيةٍ عن طريق الحواسّ الظاهرية، وإمّا من أمورٍ باطنيةٍ عمدتها عقبتان رئيستان، هما الخيال وحبّ الدنيا. وينبغي إزالتهما لتحصيل حضور القلب.
5. للسيطرة على قوّة الخيال لا بد من تدريبها من خلال: جعل تحقيق هذه السيطرة هدفاً للإنسان، التركيز على الهدف أثناء الصلاة، الالتفات إلى حال خياله في الصلاة بأكملها، المواظبة على التدريب والسعي للهدف بالتدريج، عدم اليأس، وجعل كلّ اعتماده على الله عزّ وجلّ.
6. علاج مرض حب الدنيا يكمن في العلم والعمل النافعين:

أ. التفكّر في ثمرات هذا المرض الذي هو مصدر الأمراض والمفاسد الأخلاقية، وفي نتائجه والمقارنة بينها وبين مضارّه ومهالكه الحاصلة منه.

ب. العمل النافع: وهو مبدأ العمل بالضدّ.

للمطالعة

بيان بعض أسرار العبادة وتجسيم الأعمال

اعلم أنّ لكلٍّ من الأعمال الحسنة والأفعال العبادية صورةً باطنيةً ملكوتية، وأثراً في قلب العابد. أما الصورة الباطنية فهي التي تعمّر العوالم البرزخية والجنة الجسمانية، لأن أرض الجنة قاعٌ خاليةٌ من كلّ شيء كما ورد في الحديث، وأن الأذكار والأعمال موادّ إنشاءٍ وبناءٍ لها. كما ورد في الحديث أيضاً. وإنّ الآيات الكثيرة من الكتاب الشريف الإلهي، تدلّ على تجسّم الأعمال مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾[2]. والأخبار الدالّة على تجسّم الأعمال والصور الغيبية الملكوتية مذكورة في أبواب مختلفة. ونحن نكتفي بذكر بعضها:

روى الصدوقُ رحمه الله بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَنْ صَلّى الصَّلَواتِ المَفْروضاتِ في أَوَّلِ وَقْتِهَا وَأَقَامَ حُدودَها، رَفَعَهَا المَلَكُ إِلَى السَّماءِ بَيْضاءَ نَقِيَّةً تَقولُ: حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، اسْتَوْدَعَنِي مَلَكٌ كَرِيمٌ. وَمَنْ صَلاّها بَعْدَ وَقْتِهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَمْ يُقِمْ حُدودَها، رَفَعَهَا المَلَكُ سَوْداءَ مُظْلِمَةً وَهِيَ تَهْتِفُ بِهِ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي وَلاَ رَعَاكَ اللهُ كَمَا لَمْ تَرْعَنِي**»[3].

ويُستفاد من هذا الحديث الشريف مضافاً إلى تحقّق الصورة الملكوتية للعمل، حياة الصورة الملكوتية وشؤونها الحياتية أيضاً، وهذا ضربٌ من البرهان على تجسّم الأعمال. والأخبار تدلّ على أنّ لجميع الموجودات حياة ملكوتية، وأنّ عالم الملكوت كلّه حياة وعلم. ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ ﴾[4][5].

---

(1) سورة الزلزلة، الآيتان 7 - 8.
(2) سورة الكهف، الآية 49.
(3) الصدوق، الأمالي، ص256.
(4) سورة العنكبوت، الآية 64.
(5) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحَديث السَابع وَالعشرون: حضور القلب.

الدرس العاشر

الآداب المعنوية للطهارة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعدّد مراتب الطهارة.
2. يبيّن الآداب المعنوية للتوجّه إلى الماء والتراب.
3. يذكر الآداب المعنوية للوضوء.

الطهارة في القرآن الكريم

إنّ الارتباط بالله عزّ وجلّ والتقرّب إليه لا بدّ له من مراحل متدرّجة. فعندما يريد إنسانٌ ما أن يزور أميراً أو ملكاً - وهو شخصيّة من شخصيّات هذه الدنيا الفانية - فإن اللقاء به لا يتحقّق مباشرةً بل هناك وسائط مختلفة يتدرّج الإنسان من خلالها للقائه، فكيف بلقاء ملك الملوك؟!.. فمن يأتي إلى مصلّاه وهو في أدنى درجات التهيؤ النفسي للصلاة - التي هي موعد لقاء المؤمن مع الله - من الطبيعي أن لا يأتي بالصلاة كما يحب الله سبحانه وتعالى ويرضى.

إنّ جوهر الصلاة عملية قلبية وهي معراج المؤمن ووسيلته في التقرّب إلى الله. وجميع الآثار الدنيوية والأخروية متوقّفةً على كون الصلاة ومقدماتها صحيحةً. وقد جعلت طهارة البدن والثياب شرطاً في صحّة الصلاة، وأولى خطوات التقرّب إليه تعالى، ومن مقدماتها الأساسية، فما هو سرّ ذلك؟

إنّ ما يقرّبنا إلى الله تعالى في الواقع هو التجافي عن دار الدنيا، والإنسان لا يمكنه الوصول إلى الله عز وجل ما دام متعلقاً بالدنيا. فدنيا الإنسان من منصبٍ ومالٍ وحبٍّ للنفس تحجبه عن الوصول إلى الله عزّ وجلّ، وما لم يتطهّر الإنسان من هذه التعلّقات لن يستطيع أن يصل إلى لقاء الله عز وجل.

فالاستفادة من القرآن الكريم ذلك الفيض الإلهي الذي أنزله تعالى وكما يشير القرآن الكريم نفسه لا يشمل إلا المطهّرين: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ

﴿ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[1]. فالمطهّرون هم فقط الذين ينهلون من معارف القرآن، والمطهرون الواقعيون هم الأئمة عليهم السلام: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2]. فلا يصل إلى أسرار القرآن وأعماقه إلا المطهّرون، والأئمة عليهم السلام هم الذين يعرفون عمق وحقيقة القرآن، وتلامذتهم ينهلون من معارف القرآن أيضاً، كلٌّ حسب طهارته.

القرآن الكريم يعتبر الطهارة سرّ العبادات، وما هذه التعاليم والإرشادات القرآنية إلا لتطهير الإنسان، وليس المقصود من الطهارة، الطهارة الظاهرية فحسب. وإذا كان الإنسان يتصوّر أن الوضوء بالماء وغسل ظاهر بدنه يطهّره طهارة ظاهرية فقط، فهذا غير صحيح لأن الطهارة تحصل بالتيمّم بالتراب أيضاً، لأن ضرب اليدين على الأرض ومسح الوجه بهما يطهّر الإنسان طهارةً معنوية، ففي سورة المائدة آيةٌ تبيّن هذا المعنى للطهارة: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].

ومن هنا يتبيّن أن المقصود من الطهارة التي يريدها الله عز وجل هي الطهارة الداخلية، أي الطهارة من الأنانية وحب الذات. ذلك أنه ليس للإنسان عدوٌّ أكبر من العدو الداخلي، أي النفس، وليس هناك خبثٌ أكبر من خبث النفس، ولهذا جاءت العبادات لإنقاذ الإنسان من الأمراض النفسية، وكل تعاليم الدين الحنيف جاءت لتطهير الإنسان، فالإنسان يصلّي ويصوم ويجاهد من أجل أن يتطهّر، ويستشهد من أجل أن يطهر، ويتحمّل الصعوبات وويلات الحرب من أجل أن يكون نقياً وخالصاً من الغرور.

إذاً، ما دامت حقيقة الصلاة هي العروج إلى مقام القرب وبلوغ مقام الحضور بين يديّ الحق جلّ وعلا، فإن تحقيق هذا الهدف يستلزم طهارةً أسمى من الطهارة الشكلية

(1) سورة الواقعة، الآيات 77 - 79.
(2) سورة الأحزاب، الآية 33.
(3) سورة المائدة، الآية 6.

الظاهرية. ولا يمكن للإنسان السالك الارتقاء بهذا العروج ما لم يزل الموانع والقذارات أولاً ليتسنّى له الاتّصاف بالطهارة وتحصيل الطهور.

مراتب الطهارة

يقول الإمام الخميني قدس سره في مراتب الطهارة المعنوية في كتابه الآداب المعنوية للصلاة:

«فأوّل مرتبة للطهارة هي الاستنان بالسنن الإلهية وإطاعة أوامر الحق. والمرتبة الثانية هي التحلي بفضائل الأخلاق وفواضل الملكات. والمرتبة الثالثة هي الطهور القلبي الذي هو عبارة عن تسليم القلب للحق. وبعد هذا التسليم يصبح القلب نورانياً، بل يكون بذاته من عالم النور ودرجات النور الإلهي. وتسري نورانية القلب إلى سائر الأعضاء والجوارح والقوى الباطنة وتصبح كل المملكة نور، ونور على نور حتى يصل الأمر إلى حيث يصبح القلب إلهياً لاهوتياً وتتجلى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظاهر. وفي هذه الحالة، تفنى العبودية كلياً وتختفي وتظهر الربوبية وتتجلى. فيعرض على قلب السالك في هذه الحالة الطمأنينة والأنس، ويصبح العالم كله محبوبه وتأخذه الجذبات الإلهية وتغفر خطاياه وزلاته، وتستتر في ظل التجليات الحبية، وتحصل له بدايات الولاية ولياقة الورود إلى محضر الأنس. ومن بعدها منازل لا يتناسب ذكرها وهذه الأوراق»[1].

إذاً، فللطهارة مراتب يتمّ في كل مرتبةٍ منها إزالة موانع وأخباث وقذارات معيّنة، وهي على الشكل التالي:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث والنجاسات الظاهرية، وهذا يتمّ عبر مراعاة الأحكام الشرعية الواردة في الكتب الفقهية المعتبرة. وهذه هي الطهارة الظاهرية.

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 71. الفصل الثاني، في الإشارة إلى مراتب الطهور، ترجمة السيد عباس نور الدين، الطبعة الأولى، بيروت،2009.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والمعاصي. فما دام الإنسان مبتلىً بالمعاصي فلا يمكن أن يقترب إلى الله تعالى، ويترقّى إلى المراتب الأخرى من مراتب الطهارة. لذلك يقول تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1][2]. والمعاصي إنما تطهّر بماء التوبة النصوح حيث يتوب العبد إلى بارئه ويعزم على ترك الذنوب وعدم الإتيان مطلقاً بما ينافي إرادة الله عز وجل.

المرتبة الثالثة: تخلية الباطن من أرجاس الأخلاق الفاسدة. ورجس هذه الأخلاق أشدّ من رجس قذارات المرتبتين السابقتين، وإزالته أصعب. والتطهير في هذه المرتبة يكون بإزالة الملكات الأخلاقية السيئة وتبديلها بالملكات الأخلاقية الحسنة. وحصول هذا التطهير يتمّ بالعلم النافع والارتياض الشرعي الصالح.

المرتبة الرابعة: وفيها يتم تطهير القلب، وبصلاحه يصلح الإنسان وبفساده يفسد. وقذارة القلب ونجاسته عبارة عن تعلّقه بغير الله تعالى وتوجّهه إلى نفسه وإلى العالم، ومنشأ هذه القذارة حب الدنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة وحبّ النفس الذي هو أمّ الأمراض. وتطهيره يكمن في طرد الأغيار منه وتسليمه إلى صاحبه وهو الله تعالى كما ورد في الحديث: «**قلب المؤمن عرش الرحمن**»[3].

وما دامت جذور حب الدنيا وحب النفس متغلغلة ومتجذّرة في قلب الإنسان، فلن يحصل فيه أثرٌ لحب الله تعالى. أما إن اقتلع هذان الحبّان من قلب الإنسان وسلِّم القلب إلى صاحبه فحينها يصبح قلباً نورانياً وتحصل فيه آثار العبادة.

وهناك مراتب ومقامات أخرى للطهارة ليس هنا محلّ بحثها، ولكن لا ينبغي إنكارها، فإن أعظم النجاسات المعنوية إنكار مقامات أهل الله، وما دام الإنسان مبتلى بهذه الآفة (إي إنكار مقامات العارفين) لا يتقدّم في طريقه إلى الله تعالى. لذا علينا ألا نقنع

---

(1) سورة المطفّفين، الآية 14.

(2) الرين: الرَّيْنُ الطَّبَعُ والدَّنَسُ والرَّيْن الصَّدأُ الذي يعلو السيفَ والمِرآة ورَانَ الثوبُ رَيْناً تَطَبَّعَ والرَّيْنُ كالصَّدَإ يَغْشى القلب ورَانَ الذَّنْبُ على قلبه يَرِينُ رَيْناً ورُيُوناً غلب عليه وغطاه، وفي التنزيل العزيز ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي غَلَبَ وطَبَعَ وخَتَم.

(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج55، ص39.

بالحدّ الذي نحن فيه فإن الوقوف على الحدود والقناعة في المعارف من العقبات المانعة من التقدّم. كما ينبغي الالتفات إلى أن الوصول إلى المراتب العالية من الطهارة مرهون بتخطي المراتب الأدنى منها.

الآداب المعنوية للتوجّه إلى الماء

ورد في الآداب المعنوية للتوجّه إلى الماء رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يبيّن فيها هذه الآداب بشيءٍ من التفصيل فيقول: «**إذا أردت الطهارة والوضوء فتقدّم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله فإن الله قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ودليلاً على بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهّر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غير. قال الله تعالى:** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾[1]. **وقال الله تعالى:** ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2].

«**فكما يحيي به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب الطاعات. وتفكّر في صفاء الماء ورقّته وطهارته وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وأت بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء يؤدّي كل شيء حقّه ولا يتغير معناه، معتبراً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل المؤمن المخلص الخالص كمثل الماء، ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهوراً وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء**»[3]. في هذا الحديث يبيّن الإمام عليه السلام عدّة آدابٍ عند التوجّه إلى الماء للتطهر، ينبغي للسالك إلى الله أن يراعيها، ويلتزم بأحكامها إذا ما أراد أن يتلمس نورانية الطهارة والدخول في سلك المتأدبين بآدابها المعنوية والروحية. ويمكن أن نلخّصها في ما يلي: على المتوضئ:

(1) سورة الفرقان، الآية 48.
(2) سورة الأنبياء، الآية 30.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج77، ص339.

1. استحضار رحمة الله:

أن يستحضر حين التوجّه إلى الطهارة والوضوء رحمة الله تعالى، ويتفكّر في التشابه بين تطهير رحمة الله لذنوب العباد وبين تطهير الماء للنجاسات الظاهرة. وأن يتفكّر أيضاً في السبب الذي من أجله جُعل الماء مطهّراً للنجاسات الظاهرية حيث إن ظهور الرحمة الواسعة الإلهية فيه أكثر من سائر الموجودات. لأن الماء هو أحد المظاهر العظيمة لرحمة الحق وقد جعله الله عزّ وجلّ سبباً لحياة الموجودات ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

2. تطهير الجوارح من الآثام:

أن يعمل على تصفية الأعضاء والجوارح من الآثام والشوائب، من خلال تفكّره في صفاء الماء ورقّته، أثناء أدائه للفرائض والسّنن الإلهية. فينتقل من صفاء الماء إلى تصفية الأعضاء، فيصفّيها بأداء الفرائض والسنن الإلهية، ويرقّق الأعضاء برقة الفرائض والسنن، ويخرجها من غلظة المعصية، لتسري الطهارة والبركة في جميع الأعضاء كما يقول الإمام الخميني قدس سره[2]. فتبدأ الآثار الباطنية بالظهور تدريجيّاً وتتفجّر ينابيع الأسرار الإلهية وتنكشف للإنسان لمحةٌ من أسرار العبادة.

3. الإخلاص لله:

أن يجعل تعامله مع الله تعالى خالصاً صافياً كصفاء الماء من جميع الشّرك، وأن يتأمّل في كون قلبه - في بداية خلقه مثل الماء في وقت نزوله من السماء- طاهراً لولا تصرّف الشيطان والأهواء فيه، فيبتعد عن تلويثه بالشرك وبالمعاصي. يقول الإمام الخميني قدس سره: «يلزم للسالك إلى الله أن يكون خالصاً من تصرّف الطبيعة، ولا يكون لكدورتها وظلمتها طريقٌ إلى قلبه. وتكون جميع عباداته خالية من جميع أنواع الشرك الظاهري والباطني[3].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 30.

(2) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 74.

(3) الشرك على نحوين، ظاهري وعلني كأن يجاهر إنسان به بوجود شريك للباري عزّ وجل، وآخر خفي وغير ظاهر، كالرياء والكبر وغيرها من الأمراض القلبية التي ترجع إلى ضعف الإيمان بالتوحيد وأحياناً فساده في النفس.

وكما أن الماء في وقت نزوله من السماء طاهرٌ وطهورٌ لم تمتدّ إليه يد تصرّف القذارات، كذلك السالك بالنسبة لقلبه الذي نزل من سماء عالم غيب الملكوت طاهراً ومنزّهاً، فلا يتركه يقع تحت تصرّف الشيطان والطبيعة ويتلوّث بالقذارات[1]».

4. حسن المعاشرة:

أن يجعل طريقة امتزاج الماء بالأشياء مثالاً له في معاشرة خلق الله، معتبراً بقول رسول الله ﷺ: «**مثل المخلص كمثل الماء**»[2]. فإن الماء حين يسكب في إناءٍ مثلًا يأخذ شكله دون أن تتبدّل حقيقته. وعلى الإنسان المؤمن أن يبقى على صفائه وفطرته رغم معاشرته للناس، وعليه أن يحرص على أن لا يتأثّر بعاداتهم السيّئة. يقول الإمام الخميني قدس سره بهذا الشأن: «السالك إلى الله في نفس الوقت الذي يعاشر كل طائفةٍ من الناس بالمعروف ويرد الحقوق الخلقية، ويتعامل مع كل واحد ويعامله بما يناسب حاله. فهو في الوقت نفسه لا يتجاوز الحقوق الإلهية، ولا يهمل معناها وهو العبادة والعبودية والتوجّه إلى الحق»[3].

5. التقوى واليقين:

وفي النهاية على المتوضئ أن يلتفت إلى مسألة في غاية الأهمية وتعتبر من أعمدة وأسس الطهارة الباطنية، وهي تطهير القلب بالتقوى واليقين عند تطهير جوارحه بالماء، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام في الحديث.

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 75.
(2) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج77، ص339.
(3) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 75.

الآداب المعنوية للوضوء[1]

الآداب المعنوية للوضوء عديدة ومتنوعة:

الأول: ينبغي أن يكون وقوفه للوضوء وقوف في مقام الحمد والشكر لله حيث أذن له ربّ العزة والسلطان بالحضور وهو الآن في مقام تحصيل مقدمات التشرّف لينال هذا الشرف.

الثاني: إذا أخذ غرفة من الماء ليتوضأ فليتفطّن أنه كما يغسل ظاهره بالماء الظاهر الذي هو سبب الحياة لكل حي، كذلك ليغسل باطنه بالعلم وهو الموجب لحياة القلوب والأرواح فينوّر به قلبه وروحه كما في الحديث: «**العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء**»[2]. وليغسل[3] يديه من العيوب ومن حوله وقوته، وليعلم أنه لا حول له ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. كما ويرمز غسل اليد إلى غسل يده عما نهى عنه الشارع وبالخصوص المنهيات التي تتحقق باليد كالسرقة والتعدّي والغصب وأمثالها. ويعني صبّ الماء باليمنى على اليسرى أنه لا بد له من بسط اليد في البذل والعطاء والإيثار في سبيل رضا الله تعالى، ولا يمسك يده. قال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾[4].

الثالث: إذا تمضمض فليقل: «**اللهم لقّني حجّتي يوم ألقاك وأطلق لساني بذكرك**». ومعنى تلك المضمضة التي يطهّر بها فمه من فضول الطعام أنه يطهّر فمه ولسانه من الذكر القبيح ومن فضول الكلام «وفضول الكلام يميت القلب». ومما يجري على لسانه ويخرج من فمه ممّا يمقته الله ويدخله النار كما قال ﷺ: «**وهل يَكُبُّ النّاس على مناخِرهم في النّار إلّا حَصائِدُ ألسنتهم**»[5]. فليزيّن لسانه بذكر الله وتلاوة القرآن.

---

(1) للمزيد من التفاصيل مراجعة الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 143 – 145، ترجمة السيد احمد الفهري، الطبعة الثانية، سنة 1986، مراجع وحواشي الفصل الخامس من المقالة الثانية: في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية.

(2) منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 16.

(3) الغسل المقصود هنا هو غسل اليدين قبل مباشرة الوضوء.

(4) سورة آل عمران، الآية 92.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص115.

الرابع: ثم يستنشق، وحقيقته إخراج الكبر والتعالي من دماغه كما يخرج بالاستنشاق فضولات الدماغ من طريق أنفه وينقي مجراه.

الخامس: ثم يغسل وجهه ويتوجّه إلى أن ذلك يرمز إلى بياض الوجه وتحصيل ماء الوجه عند الله سبحانه فيتذكّر قصوره وتقصيره وخجلته وسواد وجهه ويستجير بالله من أن يلقاه سبحانه بهذه الحالة، كما يحكيها تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾[2]. وليستح من الله تعالى لمّا رآه حيث نهاه ولمّا توجّه إلى غير مولاه، وقد ورد في الحديث أنه يقول عند غسل وجهه: «**اللهم بيّض وجهي يوم تسودّ الوجوه ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ الوجوه**».

السادس: ليتذكّر عندما يغسل اليدين أن باطنه غسل الأيدي من رؤية الأسباب، وأيضاً هو غسل اليد عن الخلق وتفويض الأمر إلى الله والاستعداد للتمسّك بذيل المحبوب (الله تعالى) وقرع بابه كما قال الإمام علي عليه السلام: «**لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة**»[3] في وصفه لأهل الذكر وعباد الله. وليتذكر أيضاً موقف القيامة وتطاير الكتب وأحوال الناس في ذاك الوقت كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾[4] ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾[5] فيقول عند غسله اليمنى: «**اللهم أعطني كتابي بيميني والخلد في الجنان بيساري وحاسبني حساباً يسيراً**». ويقول عند غسله اليسرى: «**اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ولا تجعلها مغلولة إلى عنقي وأعوذ بك من مقطعات النيران**».

السابع: ليمسح رأسه من الخضوع لغير الله ومن الكبرياء العارضة له إذ عدّ نفسه شيئاً، وليقل: «**اللهم غشّني برحمتك وبركاتك وعفوك ومغفرتك**».

---

(1) سورة الزمر، الآية 60.
(2) سورة عبس، الآيتان 40-41.
(3) نهج البلاغة، ص343.
(4) سورة الاسراء، الآية 71.
(5) سورة الحاقة، الآية 25.

الثامن: ويمسح رجليه من المشي إلى دار الغربة وأرض المذلّة (الدنيا)، ويطهّرها أيضاً عن المشي بالكبر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾[1]. ويمشي بقدم العبودية والهوان ليصدق عبوديته للرب الرحمن. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾[2].

وعليه التصميم على الثبات في طريق الجهاد وميدان الجهاد الأصغر والأكبر والمشي على الصراط المستقيم، ويقول بلسانه: «اللهم ثبّت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني»[3].

(1) سورة الإسراء، الآية 37.

(2) سورة الفرقان، الآية 63.

(3) بتصرف، راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 143 – 145. ترجمة السيد احمد الفهري، الطبعة الثانية، سنة 1986، مراجع وحواشي الفصل الخامس من المقالة الثانية: في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - جوهر الصلاة عملية قلبية وهي معراج المؤمن ووسيلته في التقرّب إلى الله ☐

2 - جعلت طهارة البدن والثياب شرطاً أساسياً ووحيداً في صحة الصلاة وقبولها ☐

3 - إنّ الإنسان يمكنه الوصول إلى الله عزّ وجلّ ما دام قلبه متعلّقاً بالدنيا بشرط عدم الإخلال بعباداته ☐

4 - شُرّعت العبادات بشكل أساس من أجل إنقاذ الإنسان من الأمراض النفسية وتطهيره روحيّاً ☐

5 - تطهير الظاهر من النجاسات الظاهرية عبر مراعاة الأحكام الشرعية هو نهاية مراتب الطهارة ☐

6 - منشأ الأخلاق الفاسدة والذنوب والمعاصي هو حبّ الدنيا وحبّ النفس ☐

7 - من الآداب المعنوية للطهارة البدنية أن يتفكّر في التشابه بين تطهير رحمة الله لذنوب العباد وبين تطهير الماء للنجاسات الظاهرة ☐

8 - يعتبر القرآن الكريم الطهارة سرّ العبادات، وما هذه التعاليم والإرشادات القرآنية إلّا من أجل تطهير ظاهر الإنسان ☐

9 - الطهارة الظاهرية هي تطهير النفس والجوارح من المعاصي والذنوب ☐

10 - لكل حركة من حركات الوضوء آداب معنوية، ينبغي أن يستحضرها المتوضئ في حينها ☐

المفاهيم الرئيسة

1. إنّ جوهر الصلاة عملية قلبية وهي معراج المؤمن ووسيلته في التقرّب إلى الله، وقد جعلت طهارة البدن والثياب شرطاً في صحّة الصلاة، وأولى خطوات التقرّب إليه تعالى.
2. إنّ ما يقرّبنا إلى الله تعالى في الواقع هو التجافي عن دار الدنيا، لأن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى الله عز وجل مادام متعلقاً بالدنيا.
3. الطهارة التي يريدها الله عز وجل هي الطهارة الداخلية، أي الطهارة من الأنانية وحب الذات. ذلك أنه ليس للإنسان عدوٌّ أكبر من العدو الداخلي.
4. جاءت العبادات لإنقاذ الإنسان من الأمراض النفسية، وكل تعاليم الدين الحنيف جاءت لتطهير الإنسان.
5. للطهارة مراتب يتمّ في كل مرتبةٍ منها إزالة موانع وقذارات معيّنة، وهي على الشكل التالي: الأولى: تطهير الظاهر من النجاسات الظاهرية عبر مراعاة الأحكام الشرعية، الثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والمعاصي بماء التوبة النصوح، الثالثة: تخلية الباطن من أرجاس الأخلاق الفاسدة ويتم بالعلم النافع والارتياض الشرعي. الرابعة: تطهير القلب من تعلّقه بغير الله تعالى.
6. الآداب المعنوية للتوجه إلى الماء: أن يستحضر المتوضئ حين التوجّه إلى الطهارة والوضوء رحمة الله تعالى، ويتفكّر في التشابه بين تطهير رحمة الله لذنوب العباد وبين تطهير الماء للنجاسات الظاهرة، أن يعمل على تصفية الأعضاء والجوارح من الآثام والشوائب، أن يجعل تعامله مع الله تعالى خالصاً صافياً كصفاء الماء من جميع الشّرك، أن يجعل طريقة امتزاج الماء بالأشياء مثالاً له في معاشرة خلق الله، وأن يطهّر القلب بالتقوى واليقين عند تطهير جوارحه بالماء.
7. لكل حركة من حركات الوضوء آداب معنوية، وينبغي أن يستحضرها المتوضئ في حينها.

للمطالعة

في الإشارة إلى بعض أمانات الحق

ولا بد من معرفة أنّ الحق تبارك وتعالى، قد وهبنا كافّة القوى والأعضاء الظاهرية والباطنية، وبسط لنا بساط الرحمة والنعمة في مملكتنا الظاهرية والباطنية، ووضعها كلّها تحت قدرتنا لتسخيرها، وائتمننا عليها بلطفه ورحمته، وهي - هذه العطايا- طاهرة ونظيفة من كل القذارات الصورية والمعنوية وكذلك ما أنزل علينا من عالم الغيب كان بعيداً عن الشوائب والعناصر الغريبة، فإذا أرجعنا هذه الأمانات لدى لقائنا بالذات المقدس، من دون أن تصير ممزوجة مع عالم المادة، وقذارات المُلك والدنيا، كُنَّا أُمناء على الأمانة التي أودعت عندنا، وإن لم نحافظ على طهارة هذه الأمانات، غدونا من الخائنين والخارجين عن الإسلام الحقيقي، وملّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحديث المشهور إنّ (قَلْبَ المُؤمن عَرْشُ الرحْمن)، وفي الحديث القدسي المعروف «**لا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي وَلكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِيَ المُؤْمِنِ**»[1]. فإنّ قلب المؤمن عرش الحق المتعالي، وسرير سلطنته وسكنى ذاته المقدّس، وإنّه سبحانه صاحب هذا البيت، فالالتفات إلى غير الحق خيانة للحق، والحب لغير ذاته الأقدس ولغير أوليائه الذين يُعتبر حبّهم حبّه سبحانه، خيانة لدى العرفاء.

وإنّ ولاية أهل بيت العصمة والطهارة، ومودّتهم، ومعرفة مرتبتهم المقدّسة، أمانة من الحق سبحانه. كما ورد في الأحاديث الشريفة في تفسير الأمانة في الآية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] بولاية أمير المؤمنين عليه السلام. كما أن غصب خلافته وولايته، خيانةٌ لتلك الأمانة وأن رفض المتابعة للإمام علي عليه السلام مرتبة من مراتب الخيانة. وفي الأحاديث الشريفة.

إنّ الشيعي هو الذي يتّبع أمير المؤمنين عليه السلام اتّباعاً كاملاً وإلاّ فإن مجرد دعوى التشيّع من دون الاتباع لا يكون تشيّعاً[3].

---

(1) الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، ج 7، ص 234.

(2) سورة الأحزاب، الآية 72.

(3) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث التاسِع والعشرون: وصيّة النبي لعلّي بخصال، فصل: في الإشارة إلى بعض أمانات الحق.

الدرس الحادي عشر

الآداب المعنوية للّباس والوقت والقِبلة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يبيّن آداب مطلق اللباس وسرّ طهارته أثناء العبادة.

2 . يبيّن الآداب المعنوية لوقت الصلاة.

3 . يبيّن الآداب المعنوية لمكان الصلاة.

لما كانت قلوب البشر ضعيفةً خائرةً تهتزّ كأوراق الأشجار لأرقّ نسيمٍ يهبّ وتفقد استقرارها، وجب على الإنسان مراعاة حال القلب والمحافظة عليه حتى في الأمور العادية كارتداء الملابس. وللملابس آدابٌ ينبغي مراعاتها في كلّ الأوقات وليس وقت العبادة فقط.

اللباس وتأثيره المعنوي على النفس

هناك تأثيرٌ متبادلٌ بين ظاهر الإنسان وباطنه، فجميع الأعمال الصورية الظاهرية التي يقوم بها الإنسان لها في الباطن أثرٌ، ولكلٍّ من أخلاقه الباطنة آثارٌ في ظاهره وباطنه أيضاً، وكذلك لكلٍّ من المعتقدات التي يؤمن بها. ومثالٌ على تأثير المعتقدات في الباطن والظاهر، الإيمان بالله تعالى. فالإيمان به سبحانه وأنه هو المتصرّف في الوجود وأنه هو أعلم بكلّ شيء، يوجب كثيراً من الكمالات النفسية والأخلاقية، مثل التوكّل والاعتماد على الحق وقطع الطمع من المخلوق. كما يوجب كثيراً من الأعمال الصالحة وترك الكثير من الأعمال القبيحة. وهكذا سائر العقائد والمعارف.

ومثال آخر على تأثير الظاهر في الباطن، اللباس. فللألبسة الفاخرة جدّاً تأثيرٌ في النفوس، حيث توقع صاحبها في الكبر واحتقار الآخرين والغرور والعجب. وكذلك للألبسة الحقيرة والرديئة جدّاً تأثيرٌ في النفوس، فقد يسقط من اعتبار الإنسان واحترامه عند الآخرين، وإذا لبسها الإنسان ليشتهر بالزهد والقداسة، فقد يقع في التكبّر والغرور والعجب فضلاً عن الرياء وغير ذلك من المفاسد الباطنية. وبعض الناس يقلّد الأجانب في لباسه فينعكس ذلك على باطنه بحيث يمكن أن يصبح قلبه محبّاً لهم ومبغضاً لأعدائهم.

وبكلمة أخرى: إن لباس الشهرة سواء في جانب الإفراط (اللباس الفاخر) أو التفريط (اللباس الرديء) من الأمور التي تؤثّر على القلوب الضعيفة وعلى سلوكها وأخلاقها، وقد وردت رواياتٌ عديدةٌ في هذا المجال نذكر بعضها فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى بعض أوليائه: قل للمؤمنين لا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تأكلوا كأعدائي ولا تمشوا كأعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي**»[1]. وعنه عليه السلام: «**إن الله يبغض شهرة اللباس**»[2]. ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من لبس ثياب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثياب الذلّ يوم القيامة**»[3].

لذلك ينبغي للإنسان الطالب للحق والساعي للارتقاء المعنوي أن يجتنب -عند اختياره مادة اللباس وشكله - ما يؤثّر سلباً في الروح، ويخرج القلب عن استقامته، ويورث الغفلة عن الحق تعالى، ويجعل توجّهات الروح دنيوية.

يقول الإمام الخميني قدس سره بشأن اللباس: «اتّضح أن للباطن في الظاهر وللظاهر في الباطن تأثيراً، أنه لا بدّ للانسان الطالب للحق والارتقاء الروحاني أن يحترز في انتخاب مادة اللباس وهيئته مما يكون له تأثير السوء في الروح ويخرج القلب عن الاستقامة ويغفله عن الحق ويجعل وجهة الروح دنيوية. ولا يتوهّم أن تسويل الشيطان وتدليس النفس الأمّارة إنما هو في اللباس الفاخر الجميل فقط أو في التجمّل والتزين فحسب، بل اللباس البالي الذي لا قيمة له ربما يسقط الإنسان من درجة الاعتبار، ومن هذه الجهة لا بدّ للإنسان أن يحترز من لباس الشهرة بل من مطلق المشي على خلاف المعتاد والمتعارف. كما أنه لا بدّ أن يحترز من الألبسة الفاخرة التي تكون مادتها وجنسها غالية الثمن، وتكون هيئتها وخياطتها جالبة للأنظار ويشار اليها بالبنان، لأن قلوبنا ضعيفة وغير ثابتة بشكل ملحوظ، فبمجرد التميّز والتعيّن تزلّ وتنحرف عن الاعتدال»[4].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص248
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج6، ص444.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج76، ص314.
(4) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص97.

اللباس وطهارته الظاهرية والباطنية

الصلاة هي مقام العروج والحضور في المحضر المقدّس لله تعالى، وعلى الإنسان السالك مراعاة آداب الحضور في محضر الله تعالى، ومن هذه الآداب الطهارة، ومنها أيضاً طهارة اللباس. ولأن للطهارة جنبتين ظاهرية وباطنية كما ذكرنا، فإن لطهارة اللباس أيضاً جنبتين كل واحدة منها مسؤولة عن صحّة بعدٍ من أبعاد العبادة والصلاة. فقد جعلت طهارة اللباس الظاهري من شرائط صحّة الصلاة الظاهرية، وكذلك جعلت طهارة اللباس الباطني من شرائط قبول الصلاة الباطنية. فما هو المقصود باللباس الباطني؟

اللباس الظاهري المتعارف هو الذي يستر بدن الإنسان، وهذا البدن يشكّل ساتراً ولباساً للبدن الباطني أي النفس والروح. لذلك فإن سرّ جعل طهارة اللباس الظاهري شرطاً لصحّة الصلاة، هو دفع المصلّي للاهتمام بطهارة اللباس الباطني (النفس والروح) والوعي بأهمية هذه الطهارة، لأن طهارة النفس والروح أولى بالطهارة من هذا البدن الخارجي الذي لا يشكّل في الواقع للإنسان سوى القشر الخارجي، بعكس ألبسة الباطن كالقلب مثلاً الذي يشكّل جوهر الإنسان وحقيقته.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «... ففي أدب الحضور مخاطر كثيرة لا يجوز للسالك أن يغفل عنها لحظة واحدة. ولا بد له أن يجعل طهارة اللباس الذي هو ساتر للقشر بل قشر القشر وسيلة لطهارة الألبسة الباطنية، وليعلم أنه كما أن هذا اللباس الصوري(1) ساتر وهو لباس للبدن الملكي(2)، فإن نفس البدن ساتر للبدن البرزخي، والبدن البرزخي موجود الآن ولكنه في ستر البدن الدنيوي وحجابه. والبدن البرزخي ساتر ولباس وحجاب للنفس، وهي ساترة للقلب والقلب ساتر للروح...»[3].

(1) أي اللباس المؤلف من قماش وخيطان.
(2) البدن الملكي هو جسد الإنسان.
(3) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة،ص102.

مراتب طهارة اللباس الباطني

وطهارة اللباس الباطني على مراتبٍ:

1. **طهارة الأعمال من المعاصي:** فالمرتكب للمعاصي يلوّث نفسه وروحه فلا تتمكن من الحضور في محفل الأنس بالله. والطهارة هنا إنما تتحقّق بماء التوبة النصوح والتحلّي بالتقوى حتى يخلص من أدران المعاصي كلّها وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾[1].
2. **طهارة النفس من الأخلاق الذميمة:** فالأخلاق الرذيلة والصفات النفسية القبيحة تلوّث باطن الإنسان وتبعده عن محضر الحق.

وجميع المفاسد الأخلاقية تعود في الأصل إلى العجب وحبّ النفس والتكبّر والتفاخر والتعصّب التي هي صفات الشيطان. وكلٌّ واحد منها مبدأ لكثيرٍ من الذمائم الأخلاقية ورأس كثيرٍ من الخطيئات. يقول الله تعالى في كتابه الكريم مبيناً ومحذراً: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾[2]. والطهارة هنا تتحقّق بمجاهدة النفس وتزكيتها وبالعلم النافع من أجل اقتلاع كلِّ هذه الأدران من النفس.

3. **طهارة القلب من التعلّقات:** فالقلب حرم الرحمان ولا ينبغي أن يسكن هذا الحرم سوى الله سبحانه وتعالى، فلا ينشغل بغيره ولا يقبل على أحد سواه. في الحديث عن رَسُول الله ﷺ أنه قال: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرّحمن**»[3]. وفي الحديث أيضاً: «**أنّ قلب المؤمن عرش الرّحمن**»[4]، وروي في الحديث القدسيّ: «**لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن**»[5].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 26.
(2) سورة الأعراف، الآية 27.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص39.
(4) م.ن، ج55، ص39.
(5) م. ن.

ولتطهير القلب مراتب، نشير إلى بعضها هنا:

أ. **التطهير من حبّ الدنيا:** الذي هو رأس كلّ الخطيئات ومنشأ جميع المفاسد، فما دام الإنسان محبّاً للدنيا لن تتيسّر له محبّة الله تعالى للقاعدة القرآنية: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1]، ولن يستشعر حلاوة عبادة الله عزّ وجلّ، لأن القلب منشغلٌ بمعبودٍ آخر. وهذه المرتبة من الطهارة تحصّل من خلال الاستزادة من العلم الإلهي والمجاهدة الروحية والتفكّر في الآخرة والاعتبار من زوال وفناء الدنيا.

ب. **التطهير من الاعتماد على الخلق:** والوثوق بما لديهم الذي هو في الحقيقة من أنواع الشرك الخفيّ. ويحصل هذا التطهير بالتوحيد الفعلي للحق جلّ وعلا. ولا يكفي الاعتقاد العقلي بأنه لا مؤثّر في الوجود إلا الله، بل ينبغي أن يصبح اعتقاداً قلبياً والانتقال من حد العلم إلى حد الإيمان من خلال تنبيه القلب وتلقينه هذه الحقيقة. والعمل بمقتضيات هذا الاعتقاد في حياة الإنسان اليومية، حتى يصل إلى قطع الطمع من الخلق والاعتماد في كل أحواله على صاحب التأثير الوحيد في الكون أي الله عزّ وجلّ.

الآداب القلبية للستر واللباس

يقول الإمام الصادق عليه السلام في الآداب القلبية للستر واللباس: «**أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى وأنعمه الإيمان**»[2]. «**قال الله عزّ وجلّ:** ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[3]. **وأما اللباس الظاهر فنعمةٌ من الله يستر عورات بني آدم وهي كرامةٌ أكرم الله بها عباده ذرّية آدم ولم يكرم غيرهم، وهي للمؤمنين آلةٌ لأداء ما افترض الله عليهم. وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك فيها إلى العجب والرياء والتزيّن والمفاخرة والخيلاء، فإنها من آفات الدين وموروثة القسوة في**

(1) سورة الأحزاب، الآية 4.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص324.
(3) سورة الأعراف، الآية 26.

القلب، فإذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته وألبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة. واعتبر بفضل الله عزّ وجلّ حيث خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة وفتح أبواب التوبة والإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء. ولا تـفضح أحداً حيـث ستـر الله عليك أعظم منه واشتغل بعيب نفسك، واصفح عمّا لا يعنيك حاله وأمره واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك ويتّجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله تعالى ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل عن الآفات، خائضٌ في رحمة الله عزّ وجلّ يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان وما دام ناسياً لذنوبه جاهلاً لعيوبه راجعاً إلى حوله وقوّته لا يفلح إذاً أبداً»[1].

آداب وقت الصلاة

إن أهل معرفة الله ليس لهم أوقاتٌ مخصوصةٌ لعبادة الله تعالى، بل هم دائماً في عبادة، فكلّ الأوقات أوقات عبادةٍ عندهم، فهم في حالة حضورٍ دائمٍ، لا يفارقون الذكر والتفكّر والمراقبة لحظةً واحدةً، ولا يختارون على المناجاة مع الحق شيئاً، ويعتبرون أن العزّة والشرف والفضيلة كلّها في تذكّر الحق ومناجاته، لذا فهم يواظبون على أوقات الصلاة وينتظرونها بشغفٍ وشوقٍ، ولا يرون العبادات الإلهية تكليفاً وكلفة.

وعلى الإنسان السالك إلى الله أن يتّخذهم قدوةً، وأن يحافظ بقدر الإمكان على أوقات الصلاة، فيترقّب أوقات فضيلتها فإن فيها نوراً ليس في غيرها من الأوقات. كما ينبغي له أن يقلّل فيها من الاشتغالات القلبية، بل أن يقطعها أيضاً. وهذا لن يتحقّق للإنسان إلا بتنظيم وقته، بمعنى أن يحفظ للصلاة وقتاً خاصّاً لا يزاحمها فيه عملٌ آخر ولا تكون فيه للقلب تعلّقاتٌ أخرى، كي يتمكّن من تهدئة القلب وتحضيره للدخول في محفل الأنس بذكر الله.

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص324.

وهنا بعض الأحاديث ومنها ما قد ذكرناه في درسٍ سابقٍ، والتي تشير إلى مدى اهتمام أولياء الله عليهم السلام بأوقات الصلاة، لعلّ التدبّر فيها وتذكّرها يؤدّي إلى اليقظة والانتباه من نوم الغفلة:

فعن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّها قالت: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحدّثنا ونُحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء**»[1].

وروي أن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كان إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيُقال له: «مالك يا أمير المؤمنين»؟ فيقول عليه السلام: «**جاء وقت الصلاة وقت أمانةٍ عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها**»[2].

ويُروى أن الحسين عليه السلام كان إذا توضّأ يتغيّر لونه وتضطرب مفاصله فقيل له في ذلك فقال: «**حقٌّ لمن يقف بين يدي ذي العرش أن يصفرّ لونه وترتعد مفاصله**»[3].

ومن الآداب المعنوية للوقت كما يقول الإمام الخميني قدس سره، والتي ينبغي على المصلي مراعاتها، أن يقارن ضعفه وعجزه مع عظمة الله سبحانه وتعالى حتى يستشعر القلب الخوف فتتصاغر نفسه وعبادته في عينيه. وعليه أن يتأمّل في سعة رحمة الله حيث سمحت لعبدٍ ضعيفٍ مثله بالدخول إلى هذا المحضر المقدّس رغم ما به من علل وآفات فيؤدّي هذا التأمّل إلى استشعار القلب للرجاء والأمل. وعند ذلك يستعدّ للحضور في محضر الذات المقدّسة بخطى الخوف والرجاء والرغبة والرهبة.

وعلى الإنسان أن يحذر من رؤية نفسه لائقةً لهذا الحضور أو أن يحسب أنه أهلٌ للقيام بالعبادة والعبودية، بل عليه أن يعلم أن الإذن للعبادة والعبودية إنما هو فقط بفضل شمول رحمة الله ولطفه عزّ وجلّ. وعندما يضع الإنسان ذلّته نصب عينيه وحين يدرك أنه وعبوديته ليسا شيئاً مذكوراً، عندها يتلطّف الحق تعالى به ويرفعه ويقبله في محضره المقدّس[4].

---

(1) ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد بن زين الدين، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية،ج1، ص 324، تحقيق وتصحيح مجتبى العراقي، قم، دار سيد الشهداء للنشر، 1405هـ، ط 1.

(2) م. ن.

(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص339.

(4) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص124-125.

آداب استقبال القبلة

لاستقبال القبلة أيضاً كما بقية أفعال الصلاة آدابٌ معنوية ينبغي مراعاتها والالتفات إليها. فالمصلي الحقيقي عندما يقف مستقبلاً القبلة لأداء الصلاة فإن هذا الاستقبال بالنسبة له يعني أمرين:

الأول: أنه صرف وجهه الظاهر عن كل الأمور المشتّتة في هذا العالم.

الثاني: أنه وجّه وجهه إلى الكعبة التي هي أم القرى ومركز الأرض.

والهدف الأساسي لاستقبال القبلة في الصلاة والتوجّه نحو النقطة المركزية والإعراض عن الجهات المتفرّقة، هو إيقاظ الفطرة وتخليصها عن الحجب والشواغل الدنيوية إيذاناً ببدء مرحلة الانقطاع الكامل إلى الله. فالإنسان بفطرته يفرّ من النقص ويتوق نحو الكمال دائماً. وهذه الفطرة مغروسة في أعماق كل البشر دون استثناء.

ودور الأنبياء والأولياء عليهم السلام إنّما هو إخراج الناس من الاحتجاب بالكمال الموهوم، وتخليص نور فطرتهم من ظلمات الجهل وتعريفهم بالكمال والكامل الحقيقي، وهو الله تعالى الذي هو الكمال بلا نقص، والجمال بلا عيب، ونور النور، والخير المطلق. وإن كلّ كمالٍ وجمالٍ وخيرٍ وعزّةٍ وعظمةٍ ونوريّةٍ وفعليّةٍ وسعادةٍ موجودةٍ في دار التحقّق إنّما هي من نور جمال تلك الذات المقدّسة.

وعندما يفهم القلب هذه الحقيقة فإنه يتوجّه تلقائياً نحو القبلة الحقيقية أي الحق تعالى، وينفر من كلّ ما عداه: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]. وإفهام القلب هذا المعنى يتمّ بالتلقين، فيكرّر السالك في نفسه عند توجّهه لاستقبال القبلة هذه الحقيقة وسوف تستقرّ شيئاً فشيئاً في قلبه. والإمام الصادق عليه السلام يبيّن آداب الاستقبال فيقول:

«إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، استفرغ قلبك عن كلّ شاغلٍ يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرّك عظمة الله تعالى واذكر وقوفك بين يديه: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾[2] **وقِف على قدمي الخوف والرجاء»**[3].

---

(1) سورة الانعام، الآية 79.

(2) سورة يونس، الآية 30.

(3) منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، الباب39، في افتتاح الصلاة.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - إنّ كلّ الأعمال الصورية والظاهرية التي يقوم بها الإنسان لها في الباطن أثرٌ ☐

2 - لمادة اللباس التي يختارها الطالب للحق الساعي للارتقاء تأثير سلبي في الروح والقلب ☐

3 - من مراتب طهارة اللباس الظاهري طهارة الأعمال من المعاصي بماء التوبة النصوح والتحلّي بالتقوى ☐

4 - جعلت طهارة اللباس الظاهري من شرائط قبول الصلاة الظاهرية، وكذلك جعلت طهارة اللباس الباطني من شرائط صحة الصلاة الباطنية ☐

5 - طهارة النفس من الأخلاق الذميمة لا تتحقّق بمجاهدة النفس وتزكيتها، بل بالعلم النافع فقط ☐

6 - لتطهير لباس القلب مراتب منها المجاهدة الروحية والتفكّر في الآخرة والاعتبار من زوال وفناء الدنيا ☐

7 - على الإنسان السالك أن يحافظ على أوقات الصلاة كي يتمكّن من تهيئة القلب للحضور في محفل الأنس بذكر الله ☐

8 - ينبغي للساك أن يعلم أن الإذن بعبادة الله والعبودية له تعالى إنّما هو بفضل شمول رحمة الله ولطفه عزّ وجلّ بعباده ☐

9 - الهدف الأسمى لاستقبال القبلة في الصلاة هو إيقاظ الفطرة وتخليصها عن الحجب والشواغل الدنيوية إيذاناً ببدء مرحلة الانقطاع الكامل إلى الله تعالى ☐

10 - من آداب استقبال القبلة استفراغ القلب عن كلّ شاغلٍ يشغله عن الله تعالى ويعاين بسرّه عظمة الله تعالى ويذكر وقوفه بين يديه تعالى في الآخرة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. هناك تأثيرٌ متبادلٌ بين ظاهر الإنسان وباطنه، فجميع الأعمال الظاهرية التي يقوم بها الإنسان لها في الباطن أثر.
2. ينبغي للإنسان الطالب للحق والساعي للارتقاء المعنوي أن يجتنب - عند اختياره مادة اللباس وشكله - ما يؤثّر سلباً في الروح، ويخرج القلب عن استقامته، ويورث الغفلة عن الحق تعالى، ويجعل توجّهات الروح دنيوية.
3. جعلت طهارة اللباس الظاهري من شرائط صحّة الصلاة الظاهرية، وكذلك جعلت طهارة اللباس الباطني من شرائط قبول الصلاة الباطنية.
4. طهارة اللباس الباطني على مراتبٍ كعدد الألبسة الباطنية: أولاً: طهارة الأعمال من المعاصي، ثانياً: طهارة النفس من الأخلاق الذميمة، ثالثاً: طهارة القلب من التعلّقات الدنيوية ومن الاعتماد على الخلق.
5. على الإنسان السالك أن يحافظ على أوقات الصلاة، فيترقّب أوقات فضيلتها ويقلّل فيها من الاشتغالات القلبية، بل يقطعها أيضاً.
6. على الإنسان أن يحذر من رؤية نفسه لائقةً للعبادة أو أن يحسب أنه أهلٌ للقيام بالعبادة والعبودية، بل عليه أن يعلم أن الإذن للعبادة والعبودية إنما هو فقط بفضل شمول رحمة الله ولطفه عزّ وجلّ.
7. الهدف الأساسي لاستقبال القبلة في الصلاة، هو التوجّه نحو النقطة المركزية والإعراض عن الجهات المتفرّقة، إيذاناً ببدء مرحلة الانقطاع الكامل إلى الله.

للمطالعة

دور التقوى في تحصيل هدف العبادة

إنّ الخوف والفزع من الحق المتعالي يوجب خشية النفس وتقواها، وهي بدورها تبعث على قبول آثار الأعمال أكثر.

وتفصيل هذا الإجمال هو أنّه لكلّ الأعمال الحسنة أو السيئة تأثيراً في النفس. فإذا كانت تلك الأعمال من سنخ العبادات والمناسك كان التأثير هو خضوع القوى الطبيعية للقوى العقلية، وقاهرية ملكوتية النفس على المُلك، وانقياد الناحية الطبيعية للإنسان لناحيته الروحانية حتى يبلغ الأمر إلى الجذبة الروحية والوصول إلى المقصود الأصلي. وكلّ عملٍ يبعث على مثل هذا التأثير أكثر، وينجز هذه الخدمة أحسن، لكان أصوب، ولترتّب عليه المقصود الأصلي بشكلٍ أفضل. وكلّ شيءٍ له دور في هذا التأثير، فهو متكفّلٌ لصواب العمل. وغالباً ما يكون هذا هو المقياس لأفضلية الأعمال. ويمكن أن يكون الحديث المعروف «**أفْضَلُ الأعْمالِ أحمَزُها**»[1] مندرجاً تحت هذا المقياس أيضاً.

وبعد تبيّن هذه المقدمة، لا بد أن نعرف بأن التقوى تزكّي النفس وتطهّرها من الدنس والقذارات. وطبعاً إذا كانت صفحة النفس ناصعة، وطاهرة من حجب المعاصي وكدرها، كانت الأعمال الحسنة مؤثّرة أكثر، وإصابتها للهدف المبتغى أدق، وتَحقُّق السّر الكبير للعبادات الذي هو ترويض الجانب المادي للإنسان، وقهر ملكوته على مُلكه ونفوذ الإرادة الفاعلة للنفس بصورة أفضل.

فالخشية من الحق سبحانه، التي لها التأثير التام في تقوى النفوس هي من العوامل الكبيرة لإصلاح النفوس، وذات دور في إصابة العمال وحسنها وكمالها[2].

(1) مجد الدين ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر،ج 1 ص 440 طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم - ايران، 1364 ش، ط 4.

(2) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحَديث العشرون: النيّة.

الدرس الثاني عشر

أفعال الصلاة وآدابها المعنوية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يبيّن الآداب المعنوية المختلفة للقيام في الصلاة.

2 . يشرح الآداب المعنوية المختلفة للركوع في الصلاة.

3 . يبيّن الآداب المعنوية المختلفة للسجود في الصلاة.

حقيقة أفعال الصلاة

إنّ هدف الأنبياء العظام وتشريع الشرائع والأحكام ونزول الكتب السماوية وخصوصاً القرآن الشريف، هو نشر التوحيد والمعارف الإلهية وقطع جذور الكفر والشرك. وسرّ التوحيد سارٍ وجارٍ في جميع العبادات القالبية والقلبية أي في ظاهر العبادات وباطنها، بل إنّ أداء العبادات عبارةٌ عن إجراء التوحيد من باطن القلب إلى ظاهر البدن وهذا ما سبقت الإشارة إليه.

وللسالك إلى الله مهمّةٌ لا يجوز له الغفلة عنها مطلقاً في جميع مقامات السلوك، بل هذه المهمّة هي غاية السلوك ولبّ لبابه. وهي أن لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكر الحق ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة الله وتوحيده.

وفي الصلاة التي هي العبادة الجامعة يتجلّى التوحيد في أفعالها حيث إنه السرّ فيها، فالقيام إشارةٌ إلى التوحيد الأفعالي، بينما الركوع إشارةٌ إلى التوحيد الصفاتي، والسجود إشارةٌ إلى التوحيد الذاتي. وهذه الأفعال الثلاثة هي عمدة أحوال الصلاة، وسائر الأعمال والأفعال مقدّمات ومعدّات لها[1].

يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أن عمدة أحوال الصلاة ثلاثة، وسائر الأعمال والأفعال مقدّماتها ومعدّات لها، الأول: القيام. والثاني: الركوع. والثالث: السجود. وأهل المعرفة يرون هذه الثلاثة إشارة إلى التوحيدات الثلاثة، ونحن ذكرنا تلك المقامات في كتاب سر الصلاة على حسب الذوق العرفاني»[2].

---

(1) للمزيد من الاطلاع راجع كتاب سّر الصلاة حيث يشرح الإمام الخميني قدس سره العلاقة بين الأفعال الثلاثة وكل من التوحيد الأفعالي والصفاتي والذاتي في فصول: في أسرار القيام،في بعض أسرار الركوع، في سر السجود.

(2) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الخامس في نبذة من آداب الركوع وأسراره، الفصل الثاني، في آداب الانحناء الركوعي.

ويقول أيضاً: «اعلم أن أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التوحيد الأفعالي، كما أن الركوع عندهم إشارة إلى التوحيد الصفاتي والسجود إلى التوحيد الذاتي، ويأتي بيانهما في محلّهما»[1].

قوام الصلاة

إن الصلاة التي هي معراج المؤمن وقربان أهل التقوى، متقوّمةٌ بأمرين أوّلهما مقدّمة للآخر:

الأول: ترك رؤية النفس وإرادتها الذي هو باطن التقوى.

الثاني: إرادة الله وطلب الحق وهو حقيقة المعراج والقرب.

ولهذا ورد في الروايات الشريفة: «**الصلاة قربان كل تقيّ**»[2]، فغاية السلوك هو طلب لقاء الله تعالى والقرب منه وهذه حقيقة كون الصلاة معراجاً.

وهذان الأمران يحصلان في الأفعال الثلاثة للصلاة أي القيام والركوع والسجود بالتدريج:

ففي القيام يتمّ ترك رؤية فاعلية النفس ورؤية فاعلية الحق وقيّومية الحق المطلق. فلا يرى المصلي لنفسه دخالة في الإتيان بالفعل بل يرى الفعل من الله تعالى ولا يرى أن قيامه في الصلاة هو من نفسه وفعلها، بل يراه من الله القيّوم.

وفي الركوع يتمّ ترك رؤية صفات النفس ورؤية مقام أسماء الحق وصفاته، فلا يرى لنفسه أية صفات كمالية بل ينسب جميع الصفات الكمالية لله تعالى، ويحصرها فيه عزّ وجل.

وفي السجود يتم ترك رؤية النفس مطلقاً، وحب الله وطلبه مطلقاً، فلا يرى المصلي لنفسه وجوداً بل يرى الوجود منحصراً به تعالى.

وفي المقاطع اللاحقة مزيد من الشرح والتوضيح حول هذه المقامات الثلاثة التي تتحقق في الأفعال الثلاثة.

---

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الثاني في القيام، الفصل الأول، في السر الاجمالي للقيام.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص265.

سرّ القيام وآدابه

يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أن أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التوحيد الأفعالي، كما أن الركوع عندهم إشارة إلى التوحيد الصفاتي والسجود إلى التوحيد الذاتي. وأما الكلام بأن القيام إشارة إلى التوحيد الفعلي فهو أن في نفس القيام إشارة إلى هذا وضعاً، وفي القراءة إشارة إليه لفظاً»[1].

ففي القيام إشارةٌ إلى التوحيد الأفعالي وضعاً[2] ولفظاً أيضاً، فوضعية القيام أي قيام المصلّي ببدنه إشارةٌ إلى التوحيد الأفعالي، وكذلك فالقراءة في حال القيام إشارةٌ إليه لفظاً، وذلك لما تتضمّنه القراءة في الصلاة من معاني التوحيد والإقرار به.

ومعنى ذلك أن القيام إشارةٌ إلى قيام العبد بالحق، فلا قيام له من دونه تعالى ولا يمكن للإنسان أن يأتي بحركةٍ أو فعلٍ من نفسه وبنفسه، بل إن جميع أفعال الإنسان قائمةٌ بقيّوميّة الحق: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3].

فالآية الشريفة تنفي أن تكون الرماية صادرةً من الإنسان، وإنما تنسب الرماية إلى الله تعالى وهذا الأمر تعبيرٌ عن التوحيد الأفعالي وحصر الأفعال به عزّ وجلّ.

والأدب المعنوي للمصلّي في هذا المقام أن يتذكّر بقلبه هذه اللطيفة الإلهية بانحصار الأفعال به تعالى، ويذكّر القلب بحقيقة الفيض المقدّس لله تعالى وأنه هو الذي يفيض على عباده في كل شؤونهم. وعليه أن يوصل إلى باطن القلب حقيقة العلاقة والنسبة بين الحق والخلق، أي نسبة قيّومية الحق وتقوّم الخلق به، بمعنى أن كلّ شيءٍ في هذا الوجود قائمٌ به تعالى.

وأدبٌ آخر يكمن في النظر إلى محلّ السجود وهو التراب والنشأة الأصلية للإنسان، وكذلك في طريقة خضوع الرقبة وتنكيس الرأس أثناء القيام، في إشارةٍ إلى الذلّ والفقر والفناء تحت عزّ الكبرياء وسلطانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الثاني، الفصل الأول، في السر الاجمالي للقيام.
(2) وضعاً: أي وضع وطريقة استقامة بدن المصلي ووقوفه أثناء قيام الصلاة.
(3) سورة الانفال، الآية 17.

ٱلۡحَمِيدُ ﴾[1]. فمن آداب القيام أيضاً تذكّر هذه الحقيقة.

ومن الآداب أيضاً أن يرى المصلّي نفسه حاضراً في محضر الحق، وأن ينظر إلى العالم باعتباره محضر الربوبية، ويعتبر نفسه من الحاضرين فيه بين يديّ الله، ويوصل إلى قلبه عظمة الحاضر والمحضر، ويفهّم القلبَ أهمية مناجاة الحق تعالى وخطرها، ويهيّئ قلبه قبل الورود في الصلاة بالتفكّر والتدبّر، ويفهّمه عظمة المطلب، ويلزمه بالخضوع والخشوع والطمأنينة والخشية والخوف والرجاء والذلّ والمسكنة إلى آخر الصلاة. ويشارط القلب أن يراقب هذه الأمور ويحافظ عليها ويتفكّر ويتدبّر في أحوال أعاظم الدين وهداة السبيل كيف كانت حالاتهم في الصلاة وكيف كانوا يتعاملون مع مالك الملوك، ويتّخذ من أحوال أئمة الهدى أسوةً لنفسه.

فعن مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال «**فأمّا حقوق الصلاة فأن تعلم أنها وفادةٌ إلى الله وأنك فيها قائمٌ بين يدي الله، فإذا علمت ذلك كنت خليقاً أن تقوم فيها مقام العبد الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المسكين المتضرّع المعظّم، مقام من يقوم بين يديه بالسكينة والوقار وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والطلب إليه في فكاك رقبته التي أحاطت بها خطيئته واستهلكتها ذنوبه، ولا قوة الا بالله**»[2].

وعن إمامنا الرضا عليه السلام: «**فإذا أردت أن تقوم إلى الصلاة فلا تقم إليها متكاسلاً ولا متناعساً ولا مستعجلاً ولا متلاهياً، ولكن تأتيها على السكون والوقار والتؤدة وعليك الخشوع والخضوع، متواضعاً لله عزّ وجلّ متخاشعاً عليك الخشية وسيماء الخوف، راجياً خائفاً بالطمأنينة على الوجل والحذر. فقف بين يديه كالعبد الآبق المذنب بين يدي مولاه فصفّ قدميك وانصب نفسك ولا تلتفت يميناً وشمالاً وتحسب كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[3].

(1) سورة فاطر، الآية 15.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج81، ص248.
(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 4، ص87.

آداب الركوع

1. أدب التكبير قبل الركوع:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «والظاهر أن هذا التكبير من متعلّقات الركوع ولأجل تهيّؤ المصلّي للدخول إلى منزل الركوع. وأدبه أن ينظر المصلّي إلى مقام عظمة الحق وجلاله وعزّة الربوبية وسلطنتها ويجعل ضعف العبودية وعجزها وفقرها وذلّها نصب عينه. وفي هذا الحال يكبّر الحق تعالى عن التوصيف بمقدار معرفته بعزّ الربوبية وذلّ العبودية.

ويلزم أن يكون توصيف العبد السالك للحق تعالى وتسبيحه وتقديسه لمحض طاعة الأمر ولأن الحق تعالى أذن له في الوصف والعبادة. وإلا فليس له أن يتجاسر على التلفظ بالتوصيف والتعظيم في المحضر الربوبي، وهو عبد ضعيف، وفي الحقيقة لا شيء. وما لديه فهو أيضاً من المعبود العظيم الشأن. وفي حين يقول مثل علي بن الحسين بلسانه الولائي الأحلى الذي هو لسان الله «أفبلساني هذا الكالّ أشكرك؟ فماذا يتأتّى من بعوضة ضئيلة؟»[1].

فهذا التكبير له علاقة مباشرة بالركوع ومهمّته تهيئة المصلّي وتحضيره للدخول إلى مقام الركوع ليتمكّن من القيام بأدبه. وما لم يؤدّي المصلّي أدب التكبير فلن يؤدّي أدب الركوع.

وأدب التكبير هو أن ينظر المصلّي إلى مقام عظمة الحق فيستحضر جلاله تعالى وعزّة الربوبية وسلطنتها، وفي المقابل يديم النظر إلى ضعف العبودية وعجزها وفقرها وذلّها. وعند ذلك يكبّر ويعني بهذا التكبير أن الحق تعالى أكبر من أن يوصف، وذلك لما أدركه من الفرق بين عزّة ربّه وذلّه. وكلّما ازدادت معرفة المصلّي بعزّ الربوبية وما يقابلها من ذلّ العبودية، كلما كان تكبيره للحق عن التوصيف أعظم.

ويُضاف إلى هذا الأدب أدبٌ آخر يتمثّل في تنبّه المصلّي إلى أن توصيفه وتسبيحه وتقديسه للحق تعالى إنما هي امتثالٌ لأمر الله فقط، ولأنه تعالى أذن له في الوصف والعبادة. وإلا فليس من حق العبد أن يتجاسر على التلفّظ بالتوصيف والتعظيم في

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الخامس، في نبذة من آداب الركوع وأسراره، الفصل الأول.

المحضر الربوبي لأنه ليس سوى عبد ضعيف، وفي الحقيقة لا شيء. وكلّ ما لديه فهو من المعبود العظيم الشأن.

فإذا فرغ المصلّي من التكبير وأراد أن يرِد مقام الركوع العظيم، فلا بد له من التهيّؤ لذاك المقام. وأدب ذلك أن يرمي وراء ظهره توصيفه وتعظيمه وعبادته، ويرفع كفّيه الخاليتين باتجاه القبلة ويرِد مقام الركوع صفر اليدين وبقلبٍ مملوءٍ بالخوف والرجاء: خوف التقصير من القيام بمقام العبودية، والرجاء الواثق بالحق المقدّس حيث شرّفه وأذن له بالدخول إلى هذه المقامات التي هي لخلّص الأولياء وكمّل الأحبّاء.

2. آداب الانحناء الركوعي:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وليعلم أن الركوع مشتمل على تسبيح الرب جلّ وعلا وتعظيمه وتحميده، فالتسبيح تنزيه عن التوصيف وتقديس عن التعريف»[1].

يشتمل الركوع على تسبيح الرب جلّ وعلا (سبحان ربي) وتعظيمه (العظيم) وتحميده (وبحمده). والتسبيح تنزيهٌ عن التوصيف وتقديسٌ عن التعريف والمعرفة، ومؤدّاه أن الله تعالى منزّهٌ عن الوصف والأوصاف، وهو أكبر من أن يعرّف بتعريف ومن أن يُعرَف.

والتعظيم يعني أنه لا شبيه له تعالى فهو أعظم من كل شيء ولا يُقارن به شيء. والتحميد يعني حمده على آلائه ومواهبه ونعمه التي أفاضها.

وفي مقام الركوع يدّعي المصلّي السالك أنه ليس في دار الوجود علمٌ ولا قدرةٌ ولا حياةٌ ولا إرادة إلا من الحق تعالى وهذا هو التوحيد الصفاتي الذي يتحقّق في الركوع كما أشرنا سابقاً حيث يقرّ بأن جميع الصفات الكمالية هي للحق تعالى وحده.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وهذا الادّعاء عظيمٌ والمقام دقيقٌ للغاية ولا ينبغي صدور هذه الدعاوى من أمثالنا، فلا بدّ أن نتوجّه بباطن ذاتنا إلى جناب الحق المقدّس بالتضرّع والمسكنة والذلّة ونعتذر عن القصور والتقصير ونرى نقصاننا بعين العيان

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الخامس، في نبذة من آداب الركوع وأسراره، الفصل الثالث.

وشهود الوجدان، فلعلّه يصدر عن هذا المقام المقدس توجّهٌ وعنايةٌ ويصير حال الاضطرار سبباً للإجابة من الذات المقدسة: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[1][2].

فأدب الركوع إذاً، أن يتوجّه المصلّي بباطنه بتضرّعٍ ومسكنةٍ وذلّةٍ إلى الله تعالى، ويعتذر عن قصوره وتقصيره عن أن يقوم بحقيقة الركوع، ويقرّ بنقصه وفقره وعجزه، لعلّه بحالة الاضطرار والعجز هذه يحوز على العناية من الله تعالى.

وفي حديثٍ يشير الإمام الصادق عليه السلام إلى فضل الركوع وبعض آدابه: «**لا يركع عبدٌ لله ركوعاً على الحقيقة إلا زيّنه الله بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه، والركوع أولٌ والسجود ثان فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني، وفي الركوع أدبٌ وفي السجود قربٌ، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاضعٍ لله بقلبه متذلل وجِلٍ تحت سلطانه خافضٍ له جوارحه خفض خائفٍ حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين... واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحط على همتك في القيام بخدمته إلا بعونه، وفرّ بالقلب من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده فإن الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع بقدر اطّلاع عظمته على سرائرهم**»[3].

أسرار السجود وآدابه

في مقام السجود يدّعي المصلّي السالك أنه ليس في دار الوجود من موجود إلا الحق تعالى وهذا هو التوحيد الذاتي الذي يتحقق في السجود كما أشرنا، وسر ذلك يعود الى كون وضعية السجود تنفي ظهور أي شيء وحتى نفس المصلّي، ولا يبقى في المحضر إلا الله تعالى.

وعن السجود يقول الإمام الخميني قدس سره: «وهو عند أصحاب العرفان وأرباب القلوب ترك النفس وغمض العين عمّا سوى الحق، والتحقق بالمعراج اليونسي الذي حصل

(1) سورة النمل، الآية 62.

(2) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الفصل الثاني.

(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج 82، ص 108.

بالغوص في بطن الحوت بالتوجّه إلى أصله بلا رؤية الحجاب، وفي وضع الرأس على التراب إشارة إلى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب وأصل عالم الطبيعة.

وآدابه القلبية عرفان حقيقة النفس وأصل جذر وجوده ووضع أم الدماغ وهي مركز سلطان النفس وعرش الروح على أدنى عتبة مقام القدس ورؤية عالم التراب عتبة لمالك الملوك.

فسرّ الوضع السجودي غمض العين عن النفس وأدب وضع الرأس على التراب إسقاط أعلى مقامات نفسه من العين ورؤيتها أقل من الـتراب»[1]. «...ووضع رؤساء الأعضاء الظاهرة التي هي محال الإدراك وظهور التحريك والقدرة وهي الأعضاء السبعة أو الثمانية على أرض الذلّة والمسكنة علامة التسليم التام وتقديم جميع قواه والخروج من الخطيئة الآدمية»[2].

فالسجود هو تعبيرٌ من المصلي عن تركه لرؤية نفسه وعن إغماض عينه عمّا سوى الحق تعالى، فعندما يسجد المصلّي فإنه لا يرى شيئاً حتى نفسه ويكون في وضعٍ ملائمٍ تماماً للتوجّه بكليّته إلى مالك الملوك.

فالسرّ في الوضع السجودي هو إغماض العين عن النفس، ووضع الرأس على التراب هو بحدّ ذاته إسقاطٌ لأعلى مقامات النفس (وهو الرأس)، ورؤيتها أقلّ من التراب.

والسرّ في وضع الأعضاء الظاهرة أي مواضع السجود - وهي محالّ الإدراك والتحريك والقدرة لدى الإنسان - على الأرض هو إعلان الذلّة والمسكنة والتسليم التام من العبد لمولاه وتقديم جميع قواه لله تعالى.

ولذلك فإن الآداب القلبية للسجود تكمن في معرفة حقيقة النفس وأصل وجود الإنسان وتذكّر نشأته بوضع الرأس على التراب الذي هو أصل الإنسان.

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب السادس في الإشارة الإجمالية إلى أسرار السجود وآدابه،الفصل الأول.
(2) م.ن، الباب السادس في الإشارة الإجمالية إلى أسرار السجود،الفصل الثالث.

ومن الآداب القلبية للسجود إظهار الفقر والمتربة والمسكنة وإظهار كمال الخضوع والتذلّل والتواضع، وترك الاستكبار والعجب وإرغام الأنف عبر وضع الجبهة وهي مركز سلطان النفس وأشرف ما في الإنسان على أدنى عتبة لمالك الملوك وهي التراب[1].

فإذا قوي تذكّر هذه المعاني في القلب فإنّه ينفعل بها تدريجياً، فتحصل لديه حالةٌ هي حالة الفرار من النفس وترك رؤية النفس، ونتيجة هذه الحال حصول حالة الأنس بالله تعالى وبعبادته وتتحقّق الغاية من الصلاة المعراجية.

وينبغي أن لا يدّعي السالك هذه المعاني إن لم يكن متحققاً بها فعلاً، وإنّما عليه أن يتمسّك بعناية الحق جلّ وعلا ويسأله العفو عن تقصيره بالذلّة والمسكنة، لأن هذا المقام مقامٌ خطيرٌ جداً في نظر أرباب المعرفة.

ويمكن لنا أن نطّلع على آداب السجود في روايةٍ شريفةٍ واردةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ما خسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرّة واحدة، وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال تشبيهاً بمخادع نفسه غافلاً لاهياً عمّا أعدّه الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الأجل. ولا بعد عن الله أبداً من أحسن تقرّبه في السجود، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده. فاسجد سجود متواضعٍ لله تعالى ذليلٍ علم أنه خلق من ترابٍ يطؤه الخلق وأنه اتّخذك (ركب) من نطفةٍ يستقذرها كلّ أحد وكوّن ولم يكن. وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسرّ والروح فمن قرب منه بعد من غيره، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟ كذلك أمر الباطن فمن كان قلبه متعلّقاً في صلاته بشيءٍ دون الله تعالى فهو قريب من ذلك الشيء بعيدٌ عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته، قال عزّ وجلّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: لا أطّلع على قلب عبدٍ فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلا

(1) راجع الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب السادس في الإشارة الإجمالية إلى أسرار السجود،الفصل الثالث.
(2) سورة الأحزاب، الآية 4.

تولّيت تقويمه وسياسته ومن اشتغل بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ومكتوبٌ اسمه في ديوان الخاسرين»[1].

وقد جمع عليه السلام في هذا الحديث الشريف بين الأسرار والآداب، والتفكّر فيه يفتح للسالك إلى الله طرقاً من المعرفة ويقرع السمع بحقيقة الأنس والخلوة مع الحق وترك غير الحق.

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج 82، ص 136.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - يتجلّى التوحيد بجميع مراتبه في كل فعل من أفعال الصلاة ☐

2 - إنّ الصلاة متقوّمةٌ بأمرين أوّلهما مقدّمة للآخر: الأول: طلب الوصول إلى الحق تعالى وهو حقيقة المعراج والقرب، والثاني: ترك رؤية النفس وإرادتها الذي هو باطن التقوى ☐

3 - التوحيد الأفعالي هو قيام العبد بالحق، أي لا قيام له من دونه تعالى ولا يمكن للإنسان أن يأتي بحركةٍ أو فعلٍ من نفسه وبنفسه ☐

4 - تتحقّق المعراجية في الصلاة بأن يتم في الركوع ترك رؤية النفس مطلقاً، وحبّ الله وطلبه مطلقاً ☐

5 - من الآداب المعنوية للمصلّي أثناء القيام أن يتذكّر بقلبه انحصار الأفعال به سبحانه تعالى ☐

6 - أدب التكبير قبل الركوع هو أن ينظر المصلّي إلى مقام عظمة الحق فيستحضر جلاله تعالى وعزّة الربوبية وسلطنتها ☐

7 - التوحيد الصفاتي في مقام الركوع هو أن يعتقد المصلّي السالك أنه ليس في دار الوجود علمٌ ولا قدرةٌ ولا حياةٌ ولا إرادة إلا من الحق تعالى ☐

8 - التوحيد الذاتي أن يعتقد المصلّي السالك أنه ليس في دار الوجود من موجود إلا الحقّ تعالى ☐

9 - أدب الركوع أن يتوجّه المصلّي بباطنه بتضرّعٍ ومسكنةٍ وذلّةٍ إلى الله تعالى فيرى نفسه مستقلّاً عن الله تعالى ☐

10 - من الآداب القلبية للسجود إظهار الفقر والمتربة والمسكنة وإظهار كمال الخضوع والتذلّل والتواضع ☐

المفاهيم الرئيسة

1. يتجلّى التوحيد في أفعال الصلاة التي هي العبادة الجامعة حيث إنه السرّ فيها، فالقيام إشارةٌ إلى التوحيد الأفعالي، بينما الركوع إشارةٌ إلى التوحيد الصفاتي، والسجود إشارةٌ إلى التوحيد الذاتي.
2. الآداب المعنوية للمصلّي في القيام: أن يتذكّر بقلبه انحصار الأفعال به تعالى، وأن يوصل إلى باطن القلب حقيقة العلاقة والنسبة بين الحق والخلق.
3. أدب التكبير قبل الركوع هو أن ينظر المصلّي إلى مقام عظمة الحق فيستحضر جلاله تعالى وعزّة الربوبية وسلطنتها، وفي المقابل يديم النظر إلى ضعف العبودية وعجزها وفقرها وذلّها. وأن يتنبّه المصلّي إلى أن توصيفه وتسبيحه وتقديسه للحق تعالى إنما هي امتثالٌ لأمر الله فقط، وإلا فليس من حق العبد أن يتجاسر على التلفّظ بالتوصيف..
4. في مقام الركوع يدّعي المصلّي السالك أنه ليس في دار الوجود علمٌ ولا قدرةٌ ولا حياةٌ ولا إرادة إلا من الحق تعالى وهذا هو التوحيد الصفاتي الذي يتحقّق في الركوع.
5. في مقام السجود يدّعي المصلّي السالك أنّه ليس في دار الوجود من موجود إلا الحق تعالى وهذا هو التوحيد الذاتي الذي يتحقّق في السجود كما أشرنا، وسر ذلك يعود إلى كون وضعية السجود تنفي ظهور أي شيء وحتى نفس المصلّي، ولا يبقى في المحضر إلا الله تعالى.
6. من الآداب القلبية للسجود إظهار الفقر والمتربة والمسكنة وإظهار كمال الخضوع والتذلّل والتواضع، وترك الاستكبار والعجب وإرغام الأنف عبر وضع الجبهة وهي مركز سلطان النفس وأشرف ما في الإنسان على أدنى عتبة لمالك الملوك وهي التراب.

للمطالعة

في بيان سرّ رفع اليدين

... إنّ رفع اليدين لدى التكبير في الصلاة، يُعدّ من زينة الصلاة، كما أنّ صلاة جبرائيل عليه السلام، وملائكة السماوات السبع، تكون على هذا الغرار، كما ورد عن الأصبغ بن نباتة عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قالَ: «**لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى النَّبي** صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[1] **قالَ: «يا جِبْرائِيلُ ما هذِهِ النُّحَيْرَة الَّتِي أَمَرَ بِها رَبِّي»؟** قالَ: «**يا مُحَمَّدُ إنَّها لَيْسَتْ بِنُحَيْرَةَ، وَلكِنّه يَأمُرُكَ إذا تَحَرَّمَت لِلصَّلاةِ أَنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ إذا كَبَّرْتَ وإذا رَكَعْتَ وإذا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنْ الرُّكوعِ وإذا سَجَدْتَ فَإنَّها صَلاتُنا وَصَلاةُ الْمَلائِكَةِ فِي السَّماواتِ السَّبْعِ وأَنَّ لِكُلِّ شيءٍ زِينَة وإنَّ زِينَةَ الصَّلاةِ رَفْعَ الأَيْدِي عِنْدَ كُلِّ تَكْبِيرَة**»[2].

ونقل عن الإمام الرضا عليه السلام كما في كتابي (علل الشرائع) و(عيون الأخبار) قال: «**إنَّما تُرْفَعُ اليَدانِ بِالتَّكْبِيرِ لأَنَّ رَفْعَ الْيَدَينِ ضَرْبٌ مِنْ الابْتِهالِ وَالْتَبَتُّلِ وَالتَّضَرُّعِ فَأَحَبَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يكُونَ الْعَبْدُ فِي وَقْتِ ذِكْرِه لَهُ مُتَبَتِّلاً مُتَضَرِّعاً وَلأَنَّ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ إِحْضارُ النِّيَةِ وَإِقْبالُ الْقَلْبِ**»[3]. وهذا الكلام يتطابق مع ما يقول بعض أهل المعرفة في فلسفة رفع اليدين لدى التكبير من إلقاء غير الله وراء ظهره، واقتلاع أشواك طريق الوصول إلى الحبيب، وجعل نفسه منقطعةً عن الغير وخالصةً مخلصةً له ـ من دون أدنى توجّه إلى الغير والغيرية الذي يُعدّ في مذهب العشّاق والمحبّين شركاً بالله سبحانه ـ ثم يبدأ معراجه الحقيقي الروحاني، والسفر إلى الله. وهذا السفر والمعراج لا يمكن أن يتحقّق من دون رفض الغير والغيرية وترك الذات والأنانية. كما أن مع التكبيرات السبعة الافتتاحية نخرق الحجب السبعة الملكية والملكوتية نهائياً. ففي كلّ تكبيرةٍ من التكبيرات السبعة من صلاة الأولياء خرقٌ لحجاب، ورفضٌ لعوالم ذلك الحجاب وللقاطنين فيها[4].

---

(1) سورة الكوثر، الآية 2.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 46.

(3) م. ن.

(4) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث التاسع والعشرون: وصيّة النبي لعلّي بخصال، فصل: في بيان سر رفع اليدين.

الدرس الثالث عشر

آداب القرآن الكريم المعنوية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن دور القرآن وفضله في السلوك والعلاقة المعنوية بالله.
2. يذكر أهم الآداب المعنوية للتمسّك بالقرآن الكريم.
3. يطبّق هذه الآداب بشكلٍ عمليّ من خلال نماذج تطبيقية.

دور القرآن في تحقيق العبودية

قال الله تعالى في الذكر الحكيم: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي بَعْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الدُّعَاء**»[2]. وعنه ﷺ في حديث الثقلين المشهور قال: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[3].

نلحظ في هذه النصوص المباركة موقعاً متقدّماً للقرآن الكريم بين العبادات والتكاليف التي أمرنا الله تعالى ورسوله بها، حيث اعتُبِرت قراءة القرآن الكريم أفضل العبادات، وأُمِرنا باتّباعه، وجُعِل التمسّك به الى جانب التمسّك بأهل البيت عليهم السلام تكليفاً أساسياً لا غنى عنه لمن يريد الهداية والابتعاد عن الضلالة.

فالقرآن الكريم هو خطاب الرب الى العبد وكلام الخالق مع المخلوق، وقد أودع فيه سبحانه وتعالى شريعته وحقائق دينه وأنزله للناس هادياً وسراجاً منيراً، وأمر نبيّه والأوصياء من بعده أن يفسّروا آياته ويبيّنوا تعاليمه. فهو كلمة الله التامّة وإرادته الكاملة للبشرية في كل زمانٍ ومكانٍ.

وهو كتاب الهداية الأوحد الذي يهدي إلى صراط الله المستقيم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[4].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 155.

(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص300.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج27، ص33.

(4) سورة النحل، الآية 89.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وهذا الكتاب الشريف هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله، والكتاب الأحدي في تهذيب النفوس وفي الآداب والسنن الإلهية، وهو أعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق»[1].

وهو الحبل الممدود بين الله وعباده، فمن أراد تحقق العبودية في وجوده فإن القرآن هو الوسيلة وهو الغاية في آنٍ معاً:

هو الوسيلة لأنه دلّنا إلى سبيل العبودية لله تعالى وهو مظهر هداية الله التامة، فإن كانت العبودية تعني التعلُّق بالمولى وإرادته ففي القرآن الكريم كلّ ما يتعلّق بمراد المولى من عبده في هذه الحياة: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[2]. وإن جميع مقاصد القرآن، مثل الدعوة إلى معرفة الله وإلى تهذيب النفوس وبيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن، غايتها النهائية تحقيق العبودية في وجود الإنسان على الصعيدين الاجتماعي والفردي. وإن امتثالنا لأوامر الله ورسوله بالتمسّك بالقرآن الكريم واتّباعه هو إذعانٌ لله وخضوعٌ له وهذا تجسيدٌ للعبودية له تعالى.

ومن جهةٍ أخرى هو غاية لأنه حوى جميع مراتب الكمال والغنى الذي لا حد له، فهو صراط العروج في مراتب الكمال لأنه الغنى الذي لا غنى دونه ولا بعده، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده**»[3].

وكلّ آيةٍ فيه تمثّل درجةً من درجات الجنة التي حوت كلّ كمال. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إذا جاء يوم الحساب قيل لقارئ القرآن: اقرأ وارقَ. فلا يكون في الجنة من الدرجات إلا بعدد آيات القرآن الكريم**»[4].

---

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الرابع: في ذكر نبذة من آداب القرءة وقطعة من أسرارها، الفصل الثالث، في بيان طريق الاستفادة من القرآن الكريم.

(2) سورة النحل، الآية 89.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص168.

(4) م.ن، ص224.

الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم

قال رسول الله ﷺ: «**تعلّموا القرآن واقرأوه واعلموا أنه كائنٌ لكم ذكراً وذخراً، وكائنٌ عليكم وزراً...**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويُذكَر الله عزَ وجلّ فيه تَكثُر بركته وتَحضُره الملائكة وتهجره الشّياطين ويُضيء لأَهل السّماء كما تُضيء الكواكب لأهل الأرض، وإنّ البيت الّذي لا يُقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله عزَ وجلّ فيه تَقلّ بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشّياطين**»[2].

إن المطلوب من قراءة القرآن الكريم ليس فقط تحريك اللسان به بل المطلوب انتقاش صورته في القلب، بما يحويه من معارف إلهية، وتثبيت الإيمان والتوحيد والأحكام والتعاليم الإلهية وتأثير الأوامر والنواهي فيه. ولا يتحقّق هذا إلا في ظل مراعاة آداب القراءة الباطنية. فللقرآن ظاهرٌ وللتعامل معه أحكام، وله باطنٌ ولا يمكن الوصول إليه من دون مراعاة الآداب المعنوية للتعامل معه، وفيما يلي نذكر نبذة عن أهم الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم.

أوّلاً: التعظيم:

التعظيم أدبٌ ينشأ من خلال إدراك عظمة شيءٍ أو شخص، ويظهر في حركات أعضاء الإنسان وأقواله وأفعاله. وهو أمرٌ وجداني فطري مغروز في طبيعة البشر. وإن عظمة كلّ شيء في الحقيقة ترجع إلى كماله، وإلى مرتبته الوجودية. ولأن القرآن هو الكمال الذي لا حدّ له ومظهر أسماء الله وصفاته، فإننا عاجزون عن الإحاطة به، وما ندركه فيه هو أننا لن ندركه أو نحيط بعظمته، وهذا أكبر تعظيم قلبي.

إن الله تبارك وتعالى لسعة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه، لتخليص المؤمنين من سجن الدنيا المظلم، وإيصالهم من حضيض النفس

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4ن ص254.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص610.

والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة والإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقاصد أهل الله ومطالبهم، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يُبصِرون**»[1]. وقد حوى هذا الكتاب الحكيم جميع مراتب العظمة الممكنة في أي كتاب، فالكاتب أو المنزل هو الله سبحانه، جامع كلّ صفات الجمال والجلال على الإطلاق الذي عجزت العقول عن إدراك كنه عظمته. فلا يمكن الإشارة إليه بعينٍ أو اسمٍ أو رسمٍ لأنه أكبر من أن يوصف. وحامله هو جبرائيل أمين الوحي وملك الملائكة وهو عند ذي العرش مكين. أما شارحه ومبيّنه فهو الرسول الأعظم صاحب المقام الأكرم أعظم خلق الله وأفضل أنبيائه ورسله، وخلفاؤه العظام أصحاب السرّ المكنون والمقام المصون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. أما وقت تنزيله فهو ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر.

إن كلّ كلامٍ يستبطن روح متكلّمه. والهدف من القراءة، الانتقال من ظاهر القرآن إلى باطنه ومن باطنه إلى الباطن الذي يليه حتى الوصول إلى معدن العظمة بخرق جميع الحجب. ولا يمكن أن يحصل هذا الانتقال في قراءة القرآن إلّا مع استحضار عظمة المتكلّم والحضور عنده.

ثانياً: رفع الموانع وإزالة الحجب:

إذا علمنا أن التمسّك بالقرآن تكليفٌ أساسيٌّ، وأردنا البدء بأداء هذا التكليف، سنجد أحياناً أن بيننا وبينه حجاباً غليظاً ومانعاً نفسياً كبيراً يسدّ علينا طريق الإقبال عليه أو تحصيل الفوائد الموعودة منه. ففي الكتاب الإلهي وعدُ الله بالرحمة المطلقة والهداية الشاملة لكل من تمسّك به: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]،

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص107.

(2) سورة المائدة، الآيتان 15 ـ 16.

فلماذا لا نلحظ هذه الآثار التي وعدنا الله بها في أنفسنا عندما نقرأ القرآن؟

إن المشكلة ترجع إلى تقصيرنا ونقصاننا. فالله تعالى يقول ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ ﴾ وهو شرطٌ لتلك الهداية العظيمة التي ستنتهي إلى الله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1]. ونحن لم نراعِ شروطه التي تتطلّب منا الطهارة المعنوية: طهارة الضمير والفكر والقلب، فكلّ دنسٍ أو رجسٍ في الباطن مانعٌ من عبور نور القرآن إلى الباطن، وأهم الحجب التي تلوّث باطن الإنسان، وتمنعه من تحصيل الاستفادة هي:

1. رؤية النفس مستغنية:

وهذا الحجاب ينشأ من تسويلات إبليس ومكائده الكبرى، حيث يزيّن للإنسان دائماً الكمالات الموهومة، ويقنعه بها حتى يسقط القرآن الكريم من اهتماماته وأولوياته وبالتالي يسقط من عينه الكمال الحقيقي وسبل تحصيله. فمثلاً، يقنع أهل التجويد بعلمهم إلى حد أنه تسقط من أعينهم جميع الأبعاد الأخرى للقرآن. أو أنه يرضي أصحاب الأدب بما عندهم، أو أن يشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات والآراء المختلفة لعلماء اللغة، بل إنه يمكن أن يحبس الفيلسوف في حجاب غليظ من المصطلحات والمفاهيم أيضاً على حساب معارف القرآن وحقائقه وهكذا...

إن التدبّر في نفس القرآن يبيّن فساد هذا الحجاب وخطورته. فالأنبياء العظام والأولياء الكرام ما اقتنعوا يوماً بما وصلوا إليه بالرغم من مقاماتهم الشامخة ودرجاتهم الرفيعة، وهذا سيّدهم حبيب إله العالمين يؤمر من جانب الحق: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[2].

2. العقائد الباطلة:

منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، والتحريفات المتعمّدة تنصبّ على كتاب الله. فالحكّام الظلمة من جهةٍ والتيارات والمذاهب المختلفة من جهةٍ أخرى قاموا بإلقاء مجموعةٍ من الآراء الفاسدة والأفكار الباطلة حول القرآن الكريم، جعلت الاستفادة المطلوبة منه

(1) سورة هود، الآية 56.
(2) سورة طه، الآية 114.

بعيدة المنال، وبهذا أضحى القرآن غريباً مهجوراً. ومن جملة ما ألقوه في هذا المجال أن معرفة الله تعالى غير متيسّرة لأحد، وأن هذه المعرفة من المستحيلات. وعشرات الإلقاءات الأخرى التي سدّت الطريق على الإنسانية ومنعت من الاستفادة الواقعية من القرآن.

3. الذنوب والمعاصي:

إن لكلّ عملٍ من الأعمال - صالحها أو سيّئها - صورة في عالم الملكوت تتناسب معه، وله صورة وانتقاش في النفس أيضاً. فإما النورانية وإما الكدورة والظلمانية. وعندما تصدر المعصية من الإنسان، ويتمادى في الذنوب، يتدنّس قلبه ويُظلم، ويقع بالتدريج تحت سلطة وتصرّف الشيطان. وعندها تصبح قوى الإنسان وجوارحه، كالسمع والبصر وغيرها... تحت تصرّف هذا الخبيث، عندها سوف ينسدّ سمع الإنسان عن المعارف والمواعظ الإلهية، ولن ترى العين الآيات الباهرة بل تعمى عن الحق وآثاره. مثلما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[1]. إن القلب محل انعكاس أنوار القرآن. فإذا كان المحل متكدراً بظلمة الذنوب ومحجوباً بحجاب المعاصي لن يرى من القرآن سوى الألفاظ والحروف، بل قد يؤدّي ذلك إلى عدم رؤية القرآن كلياً.

4. حجاب حب الدنيا:

ومن الحجب الغليظة التي هي سدٌّ منيعٌ بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه، حب الدنيا. هذا الحب يصرف القلب عن القرآن ويجعل تمام همّته في الدنيا، فيغفل عن ذكر الله. وكلّما ازداد التعلق بالدنيا وشؤونها ازداد حجاب القلب ضخامةً، فينسى صاحبه كل خير حقيقي وجمال معنوي ولا يرى الكمال إلاّ في الدنيا والمادة. ولأن القرآن دعوة إلى الآخرة والكمالات المعنوية فسوف يراه مخالفاً لما يريد وسداً أمام شهواته فيعرض عنه. وهذه عاقبة الإقبال على الدنيا وزينتها.

(1) سورة الأعراف، الآية 179.

والمهم بعد التعرّف الإجمالي على هذه الحجب الشائعة أن نكتشفها في أنفسنا ونسعى لإزالتها، لأنها ستبقى المانع الأكبر أمام سطوع أنوار القرآن في قلوبنا.

ثالثاً: فهم مقاصد القرآن:

هذا الأدب عبارة عن التوجّه والتعرّف إلى مقصد الآية، ليكون هذا مقدّمة لأمر آخر وهو التدبّر. ولا شك بأن المقصد والهدف الأساسي للقرآن الكريم ولكلّ آياته هو هداية الإنسان إلى كماله الحقيقي. هذا الهدف يتفرّع منه أهداف تكون بمنزلة المقدّمات أو الشؤونات والتفاصيل وقد وزّعت على آيات القرآن. فمن أراد التدبّر بشكلٍ صحيحٍ عليه أن يتجسّس المقصد من الآية، ويتعرّف على ما أُريدَ منه. ويوجد سبعة مقاصد أساسية في القرآن المجيد، هي:

1. **الدعوة إلى معرفة الله:** كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[1]، ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].
2. **الدعوة إلى تهذيب النفوس:** كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[3].
3. **قصص الأنبياء والأولياء وكيفية تربيتهم:** كما في قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[4].
4. **ذكر أحوال الكفار والجاحدين وعاقبتهم** كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[5].
5. **بيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن:** كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[6].

---

(1) سورة النور، الآية 35.
(2) سورة الحديد، الآية 3.
(3) سورة الشمس، الآيات 7-10.
(4) سورة يوسف، الآية 3.
(5) سورة البقرة، الآية 86.
(6) سورة البقرة، الآية 43.

6. **ذكر أحوال المعاد واليوم الآخر:** كما في قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[1].

7. **الاحتجاجات الربانية على الناس:** كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾[2].

رابعاً: التفكّر:

إذا تعرّف الإنسان إلى المقاصد الأساسية من القرآن، وأدرك أن كلّ مقصدٍ يريد أن يأخذ بيده إلى المقصد الأسمى والغاية القصوى، عليه أن يراعي أدباً آخر وهو التفكّر. والمقصود منه أن يبحث ويتقصّى عن المقصد من كل آيةٍ يقرؤها. قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]. في هذه الآية مدحٌ عظيمٌ للتفكّر، لأنّ غاية إنزال الكتاب السماوي العظيم قد جعلت في احتمال التفكّر. وهذا من شدّة الاعتناء به، حيث إن مجرّد احتماله صار موجباً لهذه الكرامة العظيمة.

وحيث إن مقصد القرآن، هو الهداية إلى سبل السلام والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى صراط مستقيم، كما قال سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4]، فلا بد أن يحصّل الإنسان بالتفكّر في الآيات الشريفة مراتب السلامة، من أدناها (أي للقوى الظاهرة الملكية) إلى أعلاها، وهي حقيقة القلب السليم.

والتفكّر هو تجسّس البصيرة، وهي بصيرة القلب للوصول إلى المقصد، وهو السعادة

(1) سورة آل عمران، الآية 198.
(2) سورة الأنبياء، الآية 22.
(3) سورة النحل، الآية 44.
(4) سورة المائدة، الآيتان 15 - 16.

المطلقة التي تحصل بالكمال العملي والعلمي، فإذا وجد القارئ المقصد، وتبصّر في تحصيله، انفتح له طريق الاستفادة من القرآن الكريم، وفتحت له أبواب رحمة الحق، فلا يصرف عمره القصير الفاني ورأس ماله على أمور ليست مقصودةً في رسالة الرسول الأكرم ﷺ. وبالنسبة لمثل هذا الشخص، يصبح التفكّر في القرآن بعد مدّةٍ أمراً عادياً. وتنفتح له طرق الاستفادة بشكلٍ لم يسبق له مثيل. وحينئذٍ يفهم معنى كون القرآن شفاءً للأمراض القلبية.

خامساً: التطبيق:

تبيّن الآية المباركة: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]، أن تحقق الهداية القرآنية موقوفٌ على الاتّباع والعمل.

فليس القرآن مجرّد كتاب يحتوي على المعارف والمفاهيم. كما أن هدفه لم يكن تزويدنا بالمعلومات وزيادة علومنا فقط. إن الهداية وإن كانت موقوفةً على العلم والمعرفة، لكن هناك أمرٌ آخر أكثر ضرورةً وأهميةً وهو العمل بمقتضى العلم وتطبيق ما نعرفه في حياتنا. في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**»[2].

والاستفادة الحقيقية من القرآن الكريم متوقفةٌ على هذا الآدب وهو تطبيق مضمون الآيات القرآنية بعد تعلّمها والتعرّف إليها في حياتنا اليومية. وكيفية التطبيق تتمّ بأن يتفكّر القارئ في كلّ آيةٍ يمرّ عليها، فيستخرج مفادها العملي ويقوم بتطبيقه على نفسه. مثلاً، إذا قرأ قصة آدم عليه السلام وما جرى عليه، وفكّر في سبب مطرودية الشيطان من جناب القدس، مع تلك العبادات الطويلة والسجدات الكثيرة، وسأل نفسه لماذا أخرج

(1) سورة المائدة، الآيتان 15-16.

(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار،ج 40، ص 128.

الله تعالى إبليس من جوار قدسه، بعد أن كان في مجمع الملائكة. سيعلم أن كثرة العبادة لا تشفع للإنسان، وإن الصفات الإبليسية التي هي التكّبر والاستعلاء تكون سبباً للطرد والبعد. فهذا العجب صار سبباً لحب النفس والاستكبار، وصار سبباً لعصيان الأوامر الإلهية والتمرّد على الحق تعالى.

فالتفكّر في هذه الأسئلة وغيرها يوصل القارئ إلى حقيقة أن هذا التعليم للأسماء هو التحقّق بحقيقتها التي هي كمالات وجودية واقعية، والاسم في الحقيقة ظهور الكمال الواقعي، أما ما نعبّر به عنه بالألفاظ فهو اسم الاسم.

عن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول:** ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1] **فيؤمر به إلى النار**»[2].

(1) سورة طه، الآيتان 126-125.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص183.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - تحقّق العبودية في وجود الإنسان السالك يتمّ عبر القرآن ☐

2 - يمكن الوصول إلى فهم القرآن الكريم ظاهراً وباطناً من خلال فهم ظواهره فقط ☐

3 - التعظيم القلبي للقرآن الكريم هو إدراك أنّنا قادرون على فهم عظمة القرآن الذي هو مظهر أسماء الله وصفاته ☐

4 - يساعد على الانتقال في فهم ظاهر القرآن إلى باطنه استحضار عظمة المتكلّم وحضوره عند القارئ ☐

5 - من شروط الاستفادة من القرآن الكريم الطهارة الظاهرية من كلّ دنسٍ أو رجسٍ ☐

6 - رؤية النفس مستغنية عن الحق تعالى، والعقائد الفاسدة، الذنوب والمعاصي، حجاب حب الدنيا، تمنع من الاستفادة من ظاهر القرآن وباطنه ☐

7 - أدب فهم مقاصد القرآن عبارة عن التعرّف إلى المقصد الأساس للقرآن الكريم الذي هو هداية الإنسان إلى كماله الحقيقي ☐

8 - أدب التفكّر عند القارئ هو تحسّس بصيرة القلب للوصول إلى المقصد ☐

9 - يتصف السالك إلى الله سبحانه وتعالى عند قراءته للقرآن الكريم بتطبيقه في حياته ☐

10 - إنّ قراءة القرآن الكريم وعدم العمل به له عواقب وخيمة والتي منها حشر الإنسان أعمى يوم القيامة ☐

المفاهيم الرئيسة

1. من أراد تحقّق العبودية في وجوده فإن القرآن هو الوسيلة وهو الغاية في آنٍ معاً: هو الوسيلة لأنه دلّنا الى سبيل العبودية لله تعالى وهو مظهر هداية الله التامة، وهو غاية لأنه حوى جميع مراتب الكمال والغنى الذي لا حد له.
2. للقرآن الكريم ظاهرٌ وباطنٌ ولا يمكن التمسّك الصحيح به من دون مراعاة آدابه المعنوية وهي: التعظيم، رفع الموانع وإزالة الحجب، فهم مقاصد القرآن، التفكّر، التطبيق.
3. التعظيم أدبٌ ينشأ من إدراك عظمة شيءٍ أو شخص، وبما أن القرآن هو الكمال الذي لا حدّ له ومظهر أسماء الله وصفاته، فإننا عاجزون عن الإحاطة به.
4. الهدف من القراءة هو الانتقال من ظاهر القرآن إلى باطنه ومن باطنه إلى الباطن الذي يليه حتى الوصول إلى معدن العظمة بخرق جميع الحجب.
5. من شروط الاستفادة من القرآن الكريم الطهارة المعنوية من كلّ دنسٍ أو رجسٍ، وأهم الحجب التي تلوّث باطن الإنسان، وتمنعه من تحصيل الاستفادة هي: رؤية النفس مستغنية، العقائد الباطلة، الذنوب والمعاصي، حجاب حب الدنيا.
6. أدب فهم مقاصد القرآن عبارة عن التعرّف إلى مقصد الآية، والمقصد الأساسي للقرآن الكريم هو هداية الإنسان إلى كماله الحقيقي ويتفرّع منه مقاصد عديدة.
7. أدب التفكّر هو تجسّس بصيرة القلب للوصول إلى المقصد، فإذا وجد القارئ المقصد، وتبصّر في تحصيله، انفتح له طريق الاستفادة من القرآن الكريم.
8. تحقّق الهداية القرآنية موقوفٌ على الاتّباع والعمل، فليس القرآن مجرّد كتاب يحتوي على المعارف والمفاهيم. كما أن هدفه لم يكن تزويدنا بالمعلومات وزيادة علومنا فقط، ولذا فإن الاستفادة الحقيقية من القرآن الكريم متوقّفةٌ على أدب التطبيق.

للمطالعة

أثر قراءة القرآن الكريم

في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قالَ: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ القُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ وَجَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ وَكَانَ القُرْآنُ حَجِيزاً عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ كُلَّ عَامِلٍ قَدْ أَصَابَ أَجْرَ عَمَلِهِ غَيْرَ عَامِلِي فَبَلِّغ بِهِ أَكرَمَ عَطَايَاكَ، قَالَ: فَيَكْسُوهُ اللهُ العَزِيزُ الجَبَّارُ حُلَّتَيْنِ مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ هَلْ أَرْضَيْنَاكَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ القُرْآنُ يَا رَبِّ قَدْ كُنْتُ أَرْغَبُ لَهُ فِيمَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هذَا فَيُعْطى الأَمْنَ بِيَمِينِهِ وَالخُلْدَ بِيَسَارِهِ ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّة، فَيُقَالُ لَهُ: إِقْرَأْ وَاصْعَدْ دَرَجَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَغَنَا بِهِ وَأَرْضَيْنَاكَ فَيَقُولُ نَعَمْ...**»[1].

وتبيّن من هذا الحديث الشريف أنّ المطلوب من تلاوة القرآن الكريم هو تأثيره في أعماق قلب الإنسان، وصيرورة باطنه صورة كلام الله المجيد، وتحويل ما هو ملكة القلب من القرآن الكريم إلى التحقق والفعلية وذلك حسب ما ورد في الحديث المذكور: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ القُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ**» حيث يكون كناية عن استقرار صورة القرآن في فؤاده، بدرجةٍ يتحوّل باطن الإنسان حسب استعداده وأهليته، إلى كلام الله المجيد والقرآن الكريم.

وفي حَمَلَةِ القرآن من تحوّل تمام باطنه إلى حقيقة الكلام الجامع الإلهي، والقرآن الجامع والفرقان القاطع، وذلك مثل الإمام علي بن أبي طالب والمعصومين من أولاده الطاهرين عليهم السلام، حيث يكون وجودهم آيات طيّبات وآيات الله العظمى، والقرآن التامّ والتمام. بل إنّ هذا هو المطلوب من جميع العبادات كما أنّه من الأسرار الهامّة للعبادات، وأن تكرار الصلاة من أجل تحقيق هذه الحقائق العبادية، وتحويل ذات الإنسان وقلبه إلى صورة العبادة...[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص603.
(2) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث التاسع والعشرون: وصيّة النبي لعلّي بخصال، فصل: في فضل تلاوة القرآن.

الدرس الرابع عشر

الدعاء جوهرة العبادة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يذكر حقيقة الدعاء ودوره المركزي في العبادة والارتباط المعنوي بالله تعالى.

2 . يستنتج أهميّة الدعاء من خلال تبيين أبعاده وآثاره.

3 . يستدلّ على أنّ من أهم شروط استجابة الدعاء الاهتمام بأبعاده وشروطه المعنوية.

الدعاء وموقعه من العبادة

الدعاء في اللغة أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، ويقال دعوت فلاناً أي ناديته وطلبت إقباله. ودعاء العبد ربه جلَّ جلاله هو طلب العناية منه، واستمداده المعونة منه[1]. والدعاء بعبارة بسيطة هو التحدّث إلى الله تعالى، ويعني أن ينادي الإنسان ربّه ويناجيه ويكلّمه، فهو وسيلةٌ لارتباط الإنسان بالله عز وجل. إن الإحساس بالقرب من الله وبثّ هموم القلب بحضرته، وتمجيده وتحميده، والتودّد إليه، وطلب الحاجات منه، كلّها من مصاديق الدعاء.

قال رسول الله ﷺ: «**الدّعاء مُخُّ العبادة ولا يُهْلَكُ مع الدُعاء أحد**»[2].

يكشف لنا هذا الحديث المبارك عن جوهر العبادة وحقيقتها التي تتجلّى في إقبال العبد المحتاج على المعبود الغني: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3].

وهذا الإقبال هو التعبير الحيّ عن الصلة الموضوعية بين الخالق والمخلوق، وعن شعور الإنسان بحاجته الدائمة إلى ربّه تعالى في جميع أموره، واعترافه الخاضع بالعبوديّة له تعالى، والتي تتجسّد في الشعور بالارتباط العميق باللّه سبحانه، فجوهر العبادة إذن هو تحقيق الارتباط والعلاقة بين الخالق والمخلوق، والدعاء هو أوسع أبواب ذلك الارتباط وتلك العلاقة، فهو إذن مخّ العبادة وحقيقتها وأجلى صورها.

---

(1) علي موسى الكعبي، الدعاء حقيقته وآدابه وآثاره، ص9.

(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص300.

(3) سورة فاطر، الآية 15.

وقد عدّ الله تعالى الإعراض عن الدعاء استكباراً عن العبادة: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1]. وفي تفسيره للآية الشريفة قال الإمام الصادق عليه السلام: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي**»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**أفضل العبادة الدُّعاء وإذا أَذِنَ الله لعبد في الدّعاء فَتحَ له أبواب الرّحمة إنّه لن يهلك مع الدّعاء أحد**»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام عندما سُئل: أي العبادة أفضل؟ أنه قال: «**ما من شيءٍ أحبّ إلى الله من أن يُسأل ويُطلب ما عنده، وما أحدٌ أبغض إلى الله عزّ وجلّ ممّن يستكبر عن عبادته ولا يسأله ما عنده**»[4].

إذاً، الدعاء في نفسه عبادة، فهما يشتركان في حقيقة واحدة هي إظهار الخشوع والافتقار إلى الله تعالى. وهو غاية الخلق وعلّته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ ﴾[6].

فالدعاء والعبادة يعكسان الفقر المتأصل في كيان الإنسان إلى خالقه تعالى مع إحساسه العميق بالحاجة إليه والرغبة فيما عنده.

وطالما أن هدف العبادة تحقيق الرابطة الحقيقية التي ينبغي أن تكون بين العبد وربه، على أساس اعتراف العبد باحتياجه المطلق إلى الغني المطلق وإقراره بفقره وفاقته وعجزه ولا شيئيته أمام المالك الذي لا ينفد ملكه وسلطانه، فإن الدعاء هو من أبرز العبادات التي تحقّق هذا الهدف لأن الدعاء مَظْهَرُ فقر الإنسان إلى الله تعالى واحتياجه

(1) سورة غافر، الآية 60.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص467.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص31.
(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص294.
(5) سورة الذاريات، الآية 56.
(6) سورة الفرقان، الآية 77.

إليه، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عليكم بالدعاء فإنكم لا تتقرّبون بمثله**»[1].

وقد يتجاهل البعض دور الدعاء في الحياة ويظنّ أنه لا يمكن أن يغيّر شيئاً، وقد يتوهّم أنه لا أثر واقعي للدعاء على مجريات الأمور نظراً للعوامل والظروف الموضوعية المحيطة به والتي يراها بالغة التأثير، ولكن هذا الاعتقاد مخالف للحقيقة ومجاف لها.

فالدعاء هو علّة ضمن سلسلة العلل والعوامل، وهو ليس نقضاً لهذه السلسلة ولقانون العلّية في الخلق.

فالله الذي أوجد قانون الجاذبية الأرضية وجعل الأجسام تسقط إلى الأرض، والذي جعل الكواكب في المنظومة الشمسية تدور حول الجسم الأكبر وهو الشمس، والذي جعل قانون الذرّة والقوانين المختلفة المرتبطة بالحياة المادية، هو نفسه الذي جعل قانون ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2] ووضعه في سلسلة العلل والعوامل وجعل له تأثيراً وفاعلية في الوجود والحياة، طبعًا بشروطه التي نتناولها لاحقاً.

أهمية الدعاء

إلى جانب ما تبيّن إلى الآن من أهمية الدعاء الناتجة عن موقعه من العبادة، فإن له ثلاثة أبعاد أساسية تتجلّى فيها أهميته الكبرى:

1. العلاقة والارتباط بالله:

كلّ إنسان مؤمن يحتاج إلى الشعور بهذه العلاقة من الارتباط بالله تعالى، وانطلاقاً من هذه الحقيقة يكون الدعاء هدفًا لا وسيلة، وبهذه النظرة يكون الدعاء هو العلقة نفسها، وهو نفس الإحساس الذي نحتاجه. إن لسان حال المؤمن هو الدعاء دائماً، ذلك أن كيانه يتحوّل إلى سائلٍ يقف بباب الله ويناجيه ويدعوه في كل وقت. إن جميع المخلوقات في الدنيا مرتبطة بالذات الربوبية المقدسة، والإنسان كذلك باعتباره أشرف المخلوقات، فإن

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص32.
(2) سورة غافر، الآية 60.

وجوده مرتبط بالذات الإلهية المقدسة بالكيفية الأشرف المتناسبة مع الرتبة التي حباه بها الله تعالى.

وهذا الإحساس الذي يمثّله الدعاء يعطي للإنسان حالة معنوية من العروج والسلوك والقرب من الذات المقدّسة، وهذه أعظم فوائد الدعاء. وهذه الحالة تستفاد من الأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام التي تبيّن كيف أن الأئمة عليهم السلام كانوا يناجون ربهم وينسون أنفسهم، فإلى هذا الحد كانوا يشعرون بالقرب منه تعالى عندما يدعونه، بحيث يذهلون عن كل ما سواه.

2. المعرفة:

وهو البعد المعرفي في الدعاء، فالأدعية المأثورة عن الأئمة هي بحرٌ زاخرٌ بالمعارف الإسلامية، فلا شيء من النصوص البشرية يحوي من المعارف أكثر ممّا في الأدعية، ذلك أن الأدعية هي خطاب أهل البيت عليهم السلام ومناجاتهم مع الباري عز وجل وثناؤهم عليه وتمجيده وتوصيفه، واعترافهم بالعبودية له وغيرها من المعاني العظيمة. وهذا الأمر يفرض أن يكون محتوى الخطاب لاحظاً لمستوى المخاطِب والمخاطَب وهذا هو السبب في كونه يحمل هذه الأهمية الكبرى في الجانب المعرفي.

فالمعارف الإسلامية في أدعية الصحيفة السجادية والمناجاة المتعدّدة المأثورة عن الأئمة، ودعاء أبي حمزة الثمالي، والمناجاة الشعبانية، ودعاء كميل عظيمة وكثيرة جدًا. وللصحيفة السجادية خصوصيّتها في هذا المجال، فإن كل دعاء فيها هو كتاب للمعارف الإلهية في الموضوعات المختلفة.

إن وصول هذه المعارف إلى قلب الإنسان عن طريق الأدعية والمناجاة يسهم بشكلٍ فعّال في تحقيق واحدةٍ من أهداف العبادة في ترسيخ التوحيد في قلب الإنسان وتمكين المعارف الإلهية في نفسه. كما أن فهم الأدعية يقدّم للإنسان معرفةً راقيةً بالإسلام وبالمعارف الإسلامية ويبعده عن الخرافات، فأهل الخرافة غالبًا هم أناس بعيدون عن الأدعية والمعارف الحقيقية. في حين أن التأمل والتدبر في الأدعية يرشدنا إلى ما يجب الاعتقاد والإيمان به وما يجب ردّه ورفضه.

3. طلبُ الحوائج من الله تعالى والرغبة إليه:

كأن يدعو الإنسان ليطلب من الله أن يغفر ذنوبه وأن يمدّ في عمره، وغيرها من الحاجات كطلب السلامة وشفاء المريض، وسلامة المسافر ورفع المشاكل، وطلب المال والأولاد وقضاء حوائج الدنيا، وما يطلب في الدعاء عادة. أو أن يدعو لأمور دينه وآخرته فيطلب الإخلاص وصفاء الباطن والتطهير من الأخلاق السيئة..

وهذا بعدٌ مهمٌّ من أبعاد الدعاء، والباري تعالى وعد بالإجابة إن كان الدعاء والطلب حقيقيًا لا لقلقة لسان، ولا يتعارض مع مصلحة أخرى كأن يطلب شيئاً هو بعلم الله ضرر على الإنسان، أو أن يكون تحقّقه مانعاً من منفعة أكبر وأكثر جدوى له: ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خيرٌ لي لعلمك بعاقبة الأمور.

ونلحظ هذا البعد في الروايات الشريفة حيث يشجّع بعضها على أن لا يستكثر الإنسان شيئاً مما يطلبه من الله عز وجل ، فلا فرق عند الله بين القليل والكثير، وعلى المؤمن أن يطلب منه الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة أيضاً، وقد ورد في الصحيفة السجادية: «**إلهي طموح الآمال قد خابت إلا لديك، ومعاكف الهمم قد تعطّلت إلا إليك**»[1]. فكلّ ما يمكن أن يطلبه الإنسان هو قليلٌ في جنب كرم الله وفيض عطائه وسعة جوده، وإن لم يدرك هذه الحقيقة فسيحرم نفسه من الخير الكثير.

فوائد وآثار الدعاء

من الصعب تحديد فوائد الدعاء وحصرها في نقاطٍ معينة، ويكفي أن يكون الدعاء اتصالاً مفتوحاً بين العبد والمعبود الأوحد الأعظم بما يحمل هذا الاتصال في طيّاته من راحة نفسية وطمأنينة واستمداد للقوة والعزيمة في حياة العبد على كل صعيد، ومن أجل ذلك نورد هنا بعض هذه الفوائد:

1. إحياء ذكر الله في القلوب:

إحياء ذكر الله وإزالة الغفلة التي هي أساس الانحراف والفساد اللذين يعتريان حياة

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج84، ص277.

الإنسان، وتعويد الإنسان على الذكر وترسيخه في قلبه. فإن أكبر الخسائر التي تحصل نتيجة ترك الدعاء هو زوال ذكر الله من القلب. فالغفلة عن الله تعالى هي من أكبر خسائر البشر. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[1].

2. تقوية وترسيخ الإيمان في قلب الإنسان:

لأن من خصوصيّات الدعاء إقامة وتثبيت الإيمان في القلب. فالإيمان مهدّدٌ بخطر الزوال عند اصطدامه بأحداث العالم ومشاكله ومغرياته وملذّاته. وكم من شخصٍ مؤمنٍ فقد إيمانه عندما امتُحن بالأموال والسلطة والشهوات الجسدية والقلبية؟ إن إيمان هكذا شخص هو إيمانٌ متزلزلٌ وغير ثابت. إن من خصوصيّات الدعاء ترسيخ الإيمان واستقراره في قلب الإنسان، فمن خلال الدعاء واستمراره، والتوجّه لله تعالى يتقلّص خطر زوال الإيمان. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2].

3. تثبيت روح الإخلاص في نفس الإنسان:

إن الحديث مع الله تعالى والقرب منه يعمّق في الإنسان روح الإخلاص، الذي يعني العمل لله بنيّة خالصة. وعندما تتجذّر هذه الحالة لدى الإنسان فإن جميع أعماله يمكن أن تُنوى لله تعالى. ولهذا نجد أن بعض المؤمنين يقومون بتأدية جميع أعمالهم الحياتية اليومية بنيّة التقرّب لله تعالى، بينما بعضهم الآخر لا يستطيع أن يؤدّي حتى أهم الأعمال العبادية كالصلاة قربةً له عزّ وجلّ. والذي يحدث هذا الفارق بين الفئتين هو الدعاء. إن عدم الإخلاص ثقل كبير على روح الإنسان، والدعاء وظيفته أن يضع عن كاهل الإنسان هذه الأغلال ويهبه روح الإخلاص التي تحرّره من كل قيدٍ بما فيها أثقلها وهو قيد الأنا والأنانية: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

(1) سورة الرعد، الآية 28.
(2) سورة الأنفال، الآية 2.
(3) سورة غافر، الآية 65.

4. ترسيخ وتنمية الفضائل الأخلاقية في نفس الإنسان:

من خلال الارتباط بالله تعالى ومناجاته، يقوّي الإنسان الفضائل الأخلاقية في نفسه، وذلك لأن الدعاء يورث الاستئناس بحضرة الباري صاحب كل كمالٍ ، ونتيجةً لذلك يُعدّ الدعاء سلّماً لعروج الإنسان نحو الكمالات. ومن جهةٍ أخرى يزيل الدعاء الرذائل الأخلاقية من نفس الإنسان ويبعدها عن وجوده، فهو يبعد الإنسان عن البخل والتكبر والأنانية والعداء لعباد الله وضعف النفس والجبن والجزع وغيرها من الرذائل. قال الله تعالى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[1].

5. إيجاد المحبة لله تعالى:

الدعاء يحيي العشق القلبي لله تعالى، وهذا العشق هو مظهر لجميع كمالات الباري تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[2]. فالدعاء والأنس والنجوى مع الله تعالى يخلق هذه المحبّة في القلوب.

6. بث روح الأمل والقوّة في وجود الإنسان:

إن الدعاء يعطي للإنسان قابلية التصدّي للتحدّيات التي يواجهها في الحياة، وكل إنسان معرّضٌ لمشاكل الحياة وتحدّياتها، والدعاء يعطيه القوة والقابلية والقدرة على مواجهتها. ولهذا عبّر عن الدعاء في الرواية بأنّه سلاح، فقد نقل عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «**ألا أدلّكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم، تدعون ربكم بالليل والنهار فإن الدعاء سلاح المؤمن**»[3].

إن الاستعانة بالله هو كالسلاح القاطع في يد الإنسان المؤمن، ولهذا فإن الرسول الأكرم ﷺ، كان يسجد وسط ميدان الحرب رافعًا يديه بالدعاء والتضرّع الشديد، يناجي الله عز وجل ويستمدّ منه العون رغم كثرة انشغالاته وظروف المعركة حيث كان يعبّئ الجيش ويرتّب الصفوف، ويوفّر الإمكانات اللازمة ويشارك بنفسه في القتال. إن هكذا

(1) سورة الأعلى، الآيتان 14-15.
(2) سورة الحج، الآية 35.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، 2، ص468.

ارتباط بالله تعالى يبعث القوّة في قلب الإنسان. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

7. قضاء الحوائج:

إن إحدى فوائد الدعاء هي قضاء الحوائج التي يطلبها الإنسان من الباري عزّ وجلّ، وقد قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾[2]، كما نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي المنقول عن الإمام السجاد عليه السلام: «**وليس من صفاتك يا سيدي أن تأمر بالسؤال وتمنع العطية وأنت المنّان بالعطيات على أهل مملكتك**»[3]. عندما يأمرنا الله تعالى أن ندعوه ونسأله قضاء الحوائج، فهذا يعني أنّه عازمٌ على أن يعطينا ما نريد، ولهذا جاء في الرواي، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ما كان الله ليفتح باب الدّعاء ويغلق عليه باب الإجابة**»[4].

استجابة الدعاء

وعد الباري تعالى في آياتٍ عديدةٍ من كتابه الكريم باستجابة الدعاء، ومن ذلك ما جاء في الآية الشريفة: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[5].

فصاحب القدرة الإلهية والرحمة الإلهية والكرم الإلهي أمر بالطلب والدعاء، وتكفّل بتلبيته، وهذا هو الوعد الإلهي الذي صرّحت به الآية الشريفة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾[6].

---

(1) سورة يونس، الآية 22.
(2) سورة النساء، الآية 32.
(3) الشيخ إبراهيم الكفعمي، المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الايمان الباقية)، ص588 مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، 1403 - 1983م، ط 3.
(4) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص27.
(5) سورة غافر، الآية 60.
(6) سورة البقرة، الآية 186.

فهو تبارك وتعالى قريبٌ من كلّ داعٍ لا يمنعه منه مانعٌ ولا يحول دونه حائلٌ، فلكلّ من يدعو الله، بلا ريب جواب: «**لكل مسألة منك سمع حاضر وجواب عتيد**»[1].

فلا يمكن أن يناجي الإنسان ربّه ثم لا يأتيه الجواب الإلهي، فلماذا لا نلقى استجابةً لدعائنا أحياناً؟ فهل يمكن أن يخلف الله وعده؟ إن هذا الاحتمال غير واردٍ أبداً لأنه من المحال، فما هو السرّ في عدم تحقق الاستجابة؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نلتفت إلى أمورٍ غالباً ما نغفل عنها:

أولاً: إن الاستجابة لا تعني قضاء الحاجة المطلوبة وفي العاجل، وفي الرواية الواردة عن رسول الله ﷺ بيان هذه المسألة: «**ما من مسلم دعا الله سبحانه دعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلّا أعطاه الله بها أحد خصال ثلَاثة: إمّا أن يُعجِّل دعوته وإمّا أن يدّخر له وإمّا أن يدفع عنه من السّوء مثلها**»، قالوا يا رسول الله إذن نُكثِر، قال: «**أكثروا**»[2].

إنّ الداعي قد يرى في دعائه صلاحاً ظاهراً، فيلحُّ بالدعاء والمسألة، ولكن لو استجيب له، فإنّ الاستجابة قد تنطوي على مفسدة له أو لغيره لا يعلمها إلاّ الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[3]. وعليه فإنّ كان في إجابة الدعاء مصلحة، والمصلحة في تعجيلها، فإنّه تعالى يعجّلها، وان اقتضت المصلحة تأخيرها إلى وقتٍ معيّنٍ أُجّلت، ويحصل للداعي الأجر والثواب لصبره في هذه المدّة.

وإذا لم يترتّب على الإجابة غير الشر والفساد، فإنّه تعالى لا يستجيب الدعاء لسبق رحمته وجزيل نعمته، ولأنّه تعالى لا يفعل خلاف مقتضى الحكمة والمصلحة. وفي هذه الحالة يُثاب المؤمن على دعائه إما عاجلاً بدفع السوء عنه، وإعطائه السكينة في نفسه، والانشراح في صدره، والصبر الذي يسهل معه احتمال البلاء الحاضر، أو آجلاً في الآخرة، كما

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج83، ص58.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص27.
(3) سورة البقرة، الآية 216.

يُثاب على سائر الطاعات والصالحات من أعماله، وذلك أعظم درجةً عند الله تعالى، لأنّ عطاء الآخرة دائمٌ لا نفاد له، وعطاء الدنيا منقطعٌ إلى نفاد.

ثانياً: الوعد الإلهي حتميّ بالاستجابة لكلّ من يتوجّه له بالدعاء، ولكن من المعلوم أن لكلّ وعدٍ شروطه، فاستجابة الدعاء لها شروط، فلا يستجاب لدعاء لم يراع فيه الداعي شروط الدعاء ولم يتقيّد بآدابه، فلم يقترن دعاؤه بالعمل، ولم ينبعث من قلبٍ ملتفتٍ صادق، أو لوجود الموانع التي تحجب الدعاء عن الصعود: كأكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الشهوة والهوى وحبّ الدنيا على النفس.. أو لدعاء يتعارض مع السنن الإلهية، وغير ذلك من شروط الاستجابة.

ثالثاً: إن الجواب الإلهي حتمي نتيجة الوعد الإلهي ولكن المشكلة هي أن الإنسان لا يسمع هذا الجواب أحياناً، فلكونه يعيش في غفلةٍ فإنه لا يعلم أن الأمر الفلاني الذي تحقّق هو إجابة لدعائه.

رابعاً: قد تؤخّر الإجابة عن العبد المؤمن لزيادة صلاحه وتعظيم منزلته عند الله عزَّ وجلّ، وتؤخّر إجابته لمحبّة سماع صوته والإكثار من دعائه، قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله ليتعهّد عبده المؤمن بأنواع البلاء، كما يتعهّد أهل البيت سيّدهم بطرف الطعام، قال الله تعالى: وعزتّي وجلالي وعظمتي وبهائي إنّي لأحمي وليّي أن أعطيه في دار الدنيا شيئاً يشغله عن ذكري حتى يدعوني فأسمع صوته، وإني لأعطي الكافر منيته حتى لا يدعوني فأسمع صوته بغضاً له**»[1].

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص371.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - جوهر العبادة هو تحقيق الارتباط والعلاقة بين الخالق والمخلوق لتحقيق كمال العابد ☐

2 - الدعاء هو الوسيلة التي تُحقّق غاية العبادة بالارتباط بين الخالق والمخلوق وطلب الحوائج من الله تعالى والرغبة إليه ☐

3 - لا يؤثّر الدعاء في حركة الإنسان نحو خالقه ولا فاعلية له في الوجود والحياة ☐

4 - ركيزة الدعاء هي اعتراف العبد باستغنائه المطلق عن الغني المطلق وهو الله سبحانه وتعالى ☐

5 - من أهم فوائد وآثار الدعاء إحياء ذكر الله في القلوب، وتقوية وترسيخ الإيمان في قلب الإنسان ☐

6 - يؤدّي الدعاء إلى تقوية روح الإخلاص في الداعي التي تُقيّده بكلّ قيدٍ بما فيها قيد الأنا والأنانية ☐

7 - استجابة الدعاء أمرٌ حتميٌّ وهو وعد إلهي تكفّل به صاحب القدرة الإلهية والرحمة الإلهية والكرم الإلهي ☐

8 - استجابة الدعاء تعني قضاء الحاجة المطلوبة في العاجل ☐

9 - الدعاء المُستجاب هو توجّه الداعي بقلبه إلى الله تعالى منقطعاً عن جميع الأسباب ☐

10 - يُمثّل الدعاء موسوعة معرفية كبيرة في المعارف الإلهية في الموضوعات العقائدية فقط ☐

المفاهيم الرئيسة

1. جوهر العبادة هو تحقيق الارتباط والعلاقة بين الخالق والمخلوق، والدعاء هو أوسع أبواب ذلك الارتباط وتلك العلاقة، طالما أن هدف العبادة تحقيق الرابطة الحقيقية التي ينبغي أن تكون بين العبد وربه، على أساس اعتراف العبد باحتياجه المطلق إلى الغني المطلق وإقراره بفقره وفاقته وعجزه ولا شيئيته أمام المالك الذي لا ينفد ملكه وسلطانه.
2. الدعاء هو علّة ضمن سلسلة العلل والعوامل، وهو ليس نقضاً لهذه السلسلة ولقانون العلّية في الخلق.
3. أهمية الدعاء ناتجة عن موقعه الأساسي من العبادة، ومن أبعاده الأساسية: العلاقة والارتباط بالله، المعرفة، طلبُ الحوائج من الله تعالى والرغبة إليه.
4. فوائد وآثار الدعاء كثيرةٌ منها: إحياء ذكر الله في القلوب، تقوية وترسيخ الإيمان في قلب الإنسان، تثبيت روح الإخلاص في نفس الإنسان، ترسيخ وتنمية الفضائل الأخلاقية في نفس الإنسان، إيجاد المحبة لله تعالى، بث روح الأمل والقوّة في وجود الإنسان، قضاء الحوائج.
5. استجابة الدعاء أمرٌ حتميٌّ، فصاحب القدرة الإلهية والرحمة الإلهية والكرم الإلهي هو من أمر بالطلب والدعاء، وتكفّل بتلبيته، فالاستجابة وعدٌ إلهيٌّ.
6. إن الاستجابة لا تعني قضاء الحاجة المطلوبة في العاجل، واستجابة الدعاء لها شروط، والجواب الإلهي حتمي ولكن المشكلة هي أن الإنسان لا يسمع هذا الجواب أحياناً، وقد تؤخّر الإجابة عن العبد المؤمن لزيادة صلاحه وتعظيم منزلته.
7. الدعاء مستجاب إذا أخلص الداعي في إتيان آدابه وشروطه، وتوجّه بقلبه إلى الله تعالى منقطعاً عن جميع الأسباب.

للمطالعة

الدعاء سبب السعادة

من يشعر بالارتباط بالله فهو سعيد، لأنّ عمدة مصائب الإنسان إما من الإحساس باليأس والذل والوحدة والضعف، وإما من الطغيان، وإن شقاء وتعاسة أكثر الشعوب والأمم والمجتمعات والأفراد هي من العجز والضعف، وعدم وجود الناصر والمعين، والوحدة والغربة المطلقتين، فارتباط الإنسان بالله معناه الارتباط بمركز القدرة والعلم، فهو ليس وحيدًا إن كان الله معه: يا عون من لا عون له، يا رجاء من لا رجاء له، فلو كنتم في قلب العدو لكنكم تؤمنون بوجود وسيلةٍ عندكم يمكنكم الارتباط والاتصال بها في لحظة واحدة فتحميكم من العدو، فهل تشعرون في هذه الحالة بالخوف والضغط عليكم؟

وهذا إحساس من يعتقد ويرتبط بالله، وقد جرّبنا ذلك في سجون الطاغوت، فقد كان معنا سجناء شيوعيون أو سجناء لم يؤمنوا بشيء أبدًا، لقد يئسوا وأصبحت الحياة عندهم مرّةً وأُصيبوا بأنواع الأمراض الروحية، وأما المؤمنون من السجناء فلم يكونوا هكذا، إنّني كنت أتألّم لهؤلاء المساكين، إنّنا عندما تضيق صدورنا، عندما نخاف فنتكلّم مع الله، لكن من لا يملك الإيمان فهو شقي وتعيس.

والعامل الثاني: هو الطغيان والاستكبار، إن الارتباط بالله يمنع الإنسان من الطغيان والاستكبار، ومن يرتبط بالله وإن كان قويًا ويشعر بالقوة لكن يعلم أن هذه القوة ليست من ذاته، بل من الله.

فالاستكبار والطغيان والغنى عن الله سببها عدم ارتباط الإنسان بالله، وتصور الإنسان أن القوة الظاهرية منه، والثروة الظاهرية ملكه، ولا يتصوّر أنه يمكن أن تزول في لحظة واحدة.

فإن دعا الإنسان ربه وشعر بالارتباط فلا يصاب بالضعف والانكسار، ولا بالطغيان والاستكبار، فببركة الدعاء يمكن بناء مجتمعٍ مؤمنٍ متكاملٍ ومرتبطٍ بالله[1].

(1) الإمام الخامنئي دام ظله في خطاب له بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك، 1 رمضان 1414 هـ طهران.

الدرس الخامس عشر

آداب الدعاء وشروطه

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يذكر أهم موانع استجابة الدعاء.

2 . يتعرّف إلى أهم الآداب المعنوية للدعاء.

3 . يشرح كيفية تحقّق آداب الدعاء المعنوية.

موانع استجابة الدعاء

من العوامل المهمّة التي أشرنا إليها في الدرس السابق والتي يجب أن يراعيها الداعي من أجل استجابة دعائه، إزالة الحجب والموانع التي تحول دون صعود الدعاء، كاقتراف المعاصي وأكل الحرام والظلم وعقوق الوالدين وغيرها من الذنوب التي تحبس الدعاء. وعلّة ذلك أنه مع وجود هذه الموانع لا يتهيأ للداعي الإقبال بقلبه على ربِّه، والإقبال بالقلب هو شرطٌ أساسيٌّ في استجابة الدعاء، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «**خير الدعاء ما صدر عن صدر نقيّ وقلب تقيّ**»[1]. وفي ما يلي أهم الموانع التي تحبس الدعاء:

1. اقتراف الذنوب والمعاصي:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنّ العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب، أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً فيقول الله تبارك تعالى للملك: لا تقض حاجته واحرمه إياها، فإنّه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان مني**»[2].

لا يمكن لإنسانٍ يرتكب المعاصي والذنوب أن يقبل على الله تعالى ويسأله بقلبٍ طاهرٍ وخاضع. إن الطريق إلى حريم قدس الذكر الإلهي مغلقٌ أمام القلوب الملوّثة، فلا بدّ لها أن تتطهّر من الدنس، ولو كتب للقلب أن يتعطّر ويتزين بذكر الله، فسوف تتيسر له الاستجابة الإلهية بلا أدنى شك.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 340.
(2) م. ن، ص 208.

2. أكل الحرام:

وهو وإن كان من الذنوب والمعاصي ولكن لفداحة تأثيره على قلب الإنسان فقد ذُكر في الروايات بشكلٍ خاص، فقد ورد في الحديث القدسي: «**فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة، فلا تُحجب عني دعوة إلاّ دعوة آكل الحرام**»[1].

وروي أنّه قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أحبُّ أن يستجاب دعائي، فقال ﷺ: «**طهّر مأكلك، ولا تدخل بطنك الحرام**»[2]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من سرّه أن تستجاب له دعوته، فليطب مكسبه**»[3].

3. عقوق الوالدين وقطيعة الرحم:

عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «**...والذنوب التي تردُّ الدعاء وتُظلم الهواء عقوق الوالدين**»[4]، وعن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «**لا تملّ من الدعاء، فإنّه من الله عزَّ وجلَّ بمكان، وعليك بالصبر وطلب الحلال وصلة الرحم**»[5].

4. الدعاء بما يخالف السنن الإلهية:

على الداعي أن لا يطلب في دعائه ما يخالف سنن الله وقوانينه في المجتمع والطبيعة والكون، أو ما يخالف أحكام الله التشريعية. فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «**أي دعوة أضلّ؟ فقال: «الداعي بما لا يكون**»[6].

وعنه عليه السلام قال: «**يا صاحب الدعاء، لا تسأل ما لا يكون وما لا يحلّ**»[7].

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج 93، ص 373.
(2) ابن فهد الحلي، أحمد بن محمد، عدة الداعي ونجاح الساعي، ص 139 ، تحقيق وتصحيح أحمد موحدي القمي، نشر دار الكتب الإسلامي، 1407 هـ، ط 1.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 353.
(4) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص 270.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 354.
(6) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص324.
(7) م. ن.

5. عدم اقتران الدعاء بالعمل:

فالدعاء لوحده لا يغني عن العمل، فعن رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ثلاثة تردّ عليهم دعوتهم:... ورجلٌ جلس في بيته وقال: يا رب ارزقني، فيقال له: ألم أجعل لك سبيلاً إلى طلب الرزق**»[2].

الآداب المعنويّة للدعاء

للدعاء كما لكل العبادات آدابٌ ظاهرية وآدابٌ وشروطٌ باطنية، لا بد للعابد من مراعاتها لتحصيل ثمار العبادة وبركاتها. وإذا أهملها الداعي فلا تتحقّق له الاستجابة المرجوّة من الدعاء ولا تحصل له نورانية القلب وتهذيب النفس وسمو الروح المطلوبة في الدعاء.

وأما الآداب الظاهرية للدعاء من قبيل الطهارة والتوجّه إلى القبلة، فيمكن تحصيلها في مواردها الخاصّة. أما بالنسبة إلى آدابه المعنوية فنذكر هنا أهمها، مع التذكير بأن الدعاء هو من العبادات الذِّكرية التي أشرنا إلى آدابها المعنوية العامة سابقاً، من قبيل حضور القلب والخشوع والتفهيم والطمأنينة... والتي يجدر بنا تذكّرها واستحضار معانيها عند كلّ عبادةٍ ذِكريةٍ تنطبق عليها جميع هذه الآداب، والأمر نفسه يصحّ في عبادات قراءة القرآن وتلاوة الزيارة والتوسّل وفي أذكار الحج.

وهنا أهم الآداب المعنوية للدعاء:

1. معرفة الله:

من أهم آداب الدعاء المعنوية وشروط استجابته معرفة الله، والإيمان بسلطانه المطلق وقدرته المطلقة على تحقيق ما يطلبه عبده منه، فعن رسول الله ﷺ: «**ولو عرفتم الله حقّ معرفته لزَالت الجبال بدعائكم**»[3].

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص84.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص511.
(3) الميرزا النوري، مستدرك، ج17، ص301.

وقد فسّر الإمام الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي ﴾[1] فقال: «**يعلمون أني أقدر أن أعطيهم ما يسألوني**»[2].

وقد قيل للإمام الصادق عليه السلام: ندعو فلا يُستجاب لنا؟ فقال: «**لأنّكم تَدعُون مَن لا تَعرفونه**»[3].

ومعرفة الله عز وجل أيضاً تعني أن يعرف الداعي أن الله قريبٌ منه بل أقرب إليه من حبل الوريد، يعرف كل خطرات قلبه وحديث نفسه، وليس بينه وبين عبده حائل أو مانع: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[4]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[5].

2. العمل بما تقتضيه المعرفة:

على الداعي أن يعمل بما تقتضيه المعرفة لخالقه، بأن يفي بعهد الله ويطيع أوامره، وهما من أهم الشروط في استجابة الدعاء.

عن الإمام الصادق عليه السلام: قال له رجل: جعلت فداك، إنّ الله يقول ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وإنّا ندعو فلا يستجاب لنا! قال عليه السلام: «**لأنكم لا توفون بعهد اللّه، لو وفيتم لوفى الله لكم**»[6]. وفي الحديث القدسي أنّ الله أوحى إلى داود عليه السلام: «**يا داود، إنّه ليس عبد من عبادي يطيعني فيما آمره إلاّ أعطيته قبل أن يسألني، وأستجيب له**»[7].

---

(1) سورة البقرة، الآية 186.
(2) العلاّمة المجلسي، بحارالأنوار، ج90، ص 323.
(3) م. ن، ص368.
(4) سورة البقرة، الآية 186.
(5) سورة ق، الآية 16.
(6) العلاّمة المجلسي، بحارالأنوار، ج90،ص368.
(7) م. ن، ص376.

3. حسن الظن بالله:

حسن الظن بالله هو فرع معرفة الله تعالى، والله يعطي عباده بقدر حسن ظنّهم به ويقينهم بسعة رحمته وكرمه. ففي الحديث القدسي: «**أنا عند ظنّ عبدي بي، فلا يظنّ بي إلّا خيراً**»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا دعوت فأقبل بقلبك وظنّ حاجتك بالباب**»[3].

4. الاضطرار إلى الله:

لا بدّ في الدعاء أن يلجأ الإنسان إلى الله تعالى، كما يلجأ المضطّر: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[4]. فإذا توزّع رجاء الإنسان بين الله وغيره من عباده، لم ينقطع إلى الله حق الانقطاع ولم تتحقّق في نفسه حالة الاضطرار إلى الله.

في الحديث القدسي: «**ادعني دعاء الحزين الغريق الذي ليس له مغيث، يا عيسى سلني ولا تسأل غيري، فيحسن منك الدعاء ومني الإجابة**»[5].

5. إقبال القلب على الله تعالى:

وهو من أهم شروط الاستجابة، فلا بد من التوجّه لمعاني الدعاء، فإن الدعاء الحقيقي لا يصدر إلا عن قلبٍ مقبلٍ على الله، فإذا كان القلب منشغلاً بغيره تعالى حين الدعاء فقد جافى حقيقة الدعاء، وما له فيه وفي الإجابة من نصيب. وهذه الحقيقة ترتبط بما ذكرنا سابقاً من أن القلب هو محلّ العبادة ومركزها، وأن من آداب العبادة الباطنية حضور القلب فيها.

رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثمّ استيقن بالإجابة**»[6].

---

(1) العلاّمة المجلسي، بحارالأنوار، ج90،ص305.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص53.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص473.
(4) سورة النمل، الآية 62.
(5) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص143.
(6) م.ن، ج7، ص53.

6. خضوع القلب ورقّته:

لأسلوب السؤال والدعاء تأثير في استجابة الدعاء، وقد ورد في النصوص الشريفة الحثّ على التذلل والخضوع عند الطلب والدعاء. وقد كانت هذه سيرة النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام في أدعيتهم. فقد ورد أن رسول الله ﷺ كان إذا ابتهل ودعا كان كما يستطعم المسكين. وعنه ﷺ أنه قال: «**اغتنموا الدعاء عند الرقّة فإنها رحمة**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا رقّ أحدكم فليدع، فإن القلب لا يرقّ حتى يخلص**»[2]. وأيضاً عنه عليه السلام: «**إذا اقشعرّ جلدك ودمعت عيناك، فدونك دونك فقد قصد قصدك**»[3].

فلحظات الخضوع ورقة القلب تهيئ صاحبها للإقبال على الله تعالى واستقبال رحمته، وكلما رقّ القلب واستكان كانت الاستجابة أقرب الى الداعي.

7. البكاء والتباكي:

ذلك لأنّ الدمعة لسان المذنب الذي يفصح عن توبته وخشوعه وانقطاعه إلى بارئه، والدمعة ترافق رقّة القلب التي تواكب الإخلاص والقرب من رحاب الله تعالى. فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**بكاء العيون وخشية القلوب من رحمة الله تعالى ذكره، فإذا وجدتموها فاغتنموا الدعاء، ولو أنّ عبداً بكى في أُمة لرحم الله تعالى ذكره تلك الأمّة لبكاء ذلك العبد**»[4]. وقال الإمام الصادق عليه السلام لأبي بصير: «إن خفت أمراً يكون أو حاجة تريدها، فابدأ باللّه ومجّده وأثنِ عليه كما هو أهله، وصلِّ على النبي ﷺ وسل حاجتك، وتباك ولو مثل رأس الذباب، إنّ أبي كان يقول: إنّ أقرب ما يكون العبد من الرب عزَّ وجل وهو ساجد باكٍ»[5].

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص313.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص477.
(3) م. ن، ص478.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج5،ص 205.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص483.

8. التضرُّع مع مدّ اليدين:

ومن آداب الدعاء إظهار التضرّع والخشوع، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةَ ﴾[1]. وقد ذمّ الله تعالى الذين لا يتضّرعون إليه فقال: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[2].

عن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَ وجلّ: ﴿ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فقال: «**الاستكانة هو الخضوع والتّضرّع هو رفع اليدين والتّضرّع بهما**»[3].

والتضرُّع من أسباب استجابة الدعاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الله يستحي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردّهما خائبتين**»[4]. والعلّة في رفع اليدين هي إظهار الاستكانة والفاقة بين يديه تبارك وتعالى. وقد سُئل الإمام الرضا عليه السلام: ما بالكم إذا دعوتم رفعتم أيديكم إلى السماء؟ فقال عليه السلام: «**إنّ الله استعبد خلقه بضروب من العبادة** (إلى أن قال) **واستعبد خلقه عند الدعاء والطلب والتضرُّع ببسط الأيدي ورفعهما إلى السماء، لحال الاستكانة وعلامة العبودية والتذلل له**»[5].

9. طرح المسألة وبثّ الحاجات بين يدي الله:

الله تعالى يعلم ما نريد وما نحتاج وما نطلب ويغنيه علمه عن سؤالنا، ولكنه تعالى يحب أن نبثّه حاجاتنا. فإن الإنسان عندما يبثّ حاجاته بين يديه تعالى، يتقرّب منه، ويتعلّق به، ويأنس إليه، ويحسّ بفقره وحاجته إليه، وكل ذلك يحبه الله عز وجل. وهو يحب أن نسهب في الدعاء في كل شؤوننا، ونفصّل فيه، ولا نوجز ولا نختزل في الكلام.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 205.
(2) سورة المؤمنون، الآية 76.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص480.
(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص365.
(5) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص47.

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «**إن الله تعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكن يحب أن يبثّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجاتك**»[1].

وينبغي للداعي أن يذكر ما يريد من خير الدنيا والآخرة، وأن لا يستكثر مطلوبه، لأنّه يطلب من ربٍّ السموات والأرض الذي لا يعجزه شيء، ولا تنفد خزائن رحمته التي وسعت كل شيء. وعليه أيضاً أن لا يستصغر صغيرة لصغرها، لما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**عليكم بالدّعاء فإنّكم لا تَقَرَّبُونَ بمثله ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها إنّ صاحب الصِّغارِ هو صاحب الْكِبَارِ**»[2]. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**لا تَعْجِزُوا عن الدّعاء فإنّه لم يَهلِك مع الدّعاء أحدٌ وليسأل أحدكم ربّه حتّى يسأله شِسْعَ نَعْلِهِ إذا انقطع واسألوا الله من فضله فإنّه يحبّ أن يُسْأل**»[3].

10. الإقرار بالذنوب:

وعلى الداعي أن يعترف بذنوبه مقرّاً مذعناً تائباً عمّا اقترفه من خطايا وما ارتكبه من ذنوب، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّما هي المدحة، ثم الثناء، ثم الإقرار بالذنب، ثم المسألة، إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلاّ بالإقرار**»[4].

11. تهيئة النفس بالثناء والاستغفار والصلاة:

إن المطلوب هو تهيئة القلب ونفس الإنسان للدعاء، فالدعاء إقبالٌ على الله تعالى ولا بد من تحضير النفس للإقبال. والثناء على الله سبحانه هو اعتراف بالوحدانية، وينبغي للداعي إذا أراد أن يسأل ربّه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة، أن يحمد الله ويثني عليه ويشكر ألطافه ونعمه قبل أن يشرع في الدعاء. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الحمدُ لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وسبباً للمزيد من فضله..**»[5]. وقال الإمام

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص476.
(2) م. ن.
(3) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص300.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص484.
(5) نهج البلاغة، خطبة 157.

الصادق عليه السلام: «**إذا طلب أحدكم الحاجة فليثن على ربّه وليمدحه**»[1].

وقد ورد الحمد والثناء والشكر والاستغفار والصلاة على النبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم في مقدمة معظم الأدعية، كما تتخلّل كثيراً منها.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إيّاكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجلّ والمدح له والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ يسأل الله حوائجه**»[2].

12. مداومة الدعاء في الشدّة والرخاء:

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من تقدَم في الدّعاء استُجيب له إذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة: صوت معروف، ولم يُحجب عن السّماء، ومن لم يتقدّم في الدّعاء، لم يُستَجَب له إذا نزل به البلاء، وقَالت الملائكة: إنّ ذا الصّوت لا نعرفه**»[4].

والسرّ في ذلك أنه نتيجة مداومة العبد على الدعاء في أوقات رخائه يصبح القلب أكثر إقبالاً على الدعاء وسريع الحضور فيه، ولذلك يحضر أيضاً ودون تكلّف حين نزول البلاء فيه، لأن حالة الدعاء معهودة عنده ومستأنسة لديه.

13. الإلحاح في الدعاء:

لأن الإلحاح في الدعاء يكشف عن عمق ثقة العبد ورجائه في الله تعالى وعمق تعلّقه به بل ويلعب دوراً في تعميق هذه الثقة وتثبيتها. وكلّما كانت ثقة الإنسان بالله أكثر، كان إلحاحه في الدعاء أكثر. والعكس صحيح فإذا كانت ثقته بالله ضعيفة فإنّه ينقطع عن الدعاء ويأس إذا لم يرى استجابةً لدعائه.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص485.
(2) م.ن، ج2، ص485.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص42.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص472.

وعن رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب الملحّين في الدعاء**»[1]. وعنه ﷺ: «**إن الله يحب السائل اللحوح**»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الدعاء ترس المؤمن، ومتى تكثر قرع الباب يفتح لك**»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إن الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة، وأحبّ ذلك لنفسه إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ أن يُسأل ويُطلب ما عنده**»[4].

14. عدم القنوط:

ينبغي للدَّاعي أن لا يقنط ويستبطئ الإجابة فيترك الدُّعاء، عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «**لا يزال المؤمن بخير ورجاء رحمة من الله عزَّ وجل ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدُّعاء، فقلتُ: كيف يستعجل؟ قال: يقول قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الإجابة**»[5].

وعليه، يجب على الدَّاعي أن يفوِّض أمره إلى الله، واثقاً بربه، راضياً بقضائه سبحانه، وأن يحمل تأخّر الإجابة على المصلحة والخيرة التي حباه إياها مولاه، وأن يبسط يد الرجاء معاوداً الدُّعاء لما فيه من الأجر الكريم والثواب الجزيل.

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص300.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص60.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص468.
(4) م.ن، ج2، ص475.
(5) م.ن، ج2، ص490.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - من العوامل المهمّة في استجابة الدعاء إزالة الحجب والموانع التي تحول دون ارتقاء الدعاء إلى الخالق عزّ وجلّ ☐

2 - لا تُشكّل الذنوب والمعاصي عاملاً سلبياً في استجابة الدعاء فيمكن للداعي أن يتخطّى ذلك فيستجاب دعاؤه ☐

3 - تتحقّق ثمار العبادة والدعاء من خلال الالتزام بالآداب الظاهرية والباطنية ☐

4 - من آداب الدعاء معرفة الله والإيمان بسلطانه وقدرته المطلقة على تحقيق ما يطلبه عبده منه ☐

5 - حسن الظن بالله هو أن يفي الداعي بعهد اللّه ويطيع أوامره ونواهيه ☐

6 - إذا توزّع رجاء الإنسان بين الله وغيره من عباده انقطع إلى الله حقّ الانقطاع وتتحقّق في نفسه حالة الاضطرار إلى الله ☐

7 - إقبال القلب على الله تعالى هو كون القلب منشغلاً بالله تعالى حين الدعاء

8 - إذا رافق الدعاء الدمعة والبكاء أدّى ذلك إلى رقّة القلب التي تواكب الإخلاص والقرب من اللّه تعالى ☐

9 - الإلحاح في الدعاء يكشف عن حالة اليأس من روح الله عند الداعي ☐

10 - الغاية في رفع اليدين عند الدعاء هي إظهار الاستكانة والفاقة بين يدي الله تبارك وتعالى ☐

المفاهيم الرئيسة

1. من العوامل المهمّة التي يجب أن يراعيها الداعي من أجل استجابة دعائه، إزالة الحجب والموانع التي تحول دون صعود الدعاء، وأهمها: الذنوب والمعاصي، أكل الحرام، عقوق الوالدين وقطيعة الرحم، الدعاء بما يخالف السنن الإلهية، عدم اقتران الدعاء بالعمل.
2. للدعاء كما لكل العبادات آدابٌ ظاهرية وآدابٌ وشروطٌ باطنية، لا بد للعابد من مراعاتها لتحصيل ثمار العبادة وبركاتها.
3. أهم الآداب المعنوية للدعاء:

أ. معرفة الله: والإيمان بسلطانه وقدرته المطلقة على تحقيق ما يطلبه عبده منه، ومعرفة أن الله قريبٌ وليس بينه وبين عبده حائل أو مانع.

ب. حسن الظن بالله: فالله يعطي عباده بقدر حسن ظنّهم به ويقينهم بسعة رحمته وكرمه.

ت. إقبال القلب على الله تعالى: فإذا كان القلب منشغلاً بغيره تعالى حين الدعاء فقد جافى حقيقة الدعاء وما له فيه وفي الإجابة من نصيب.

ث. طرح المسألة وبثّ الحاجات بين يدي الله: فإن الإنسان عندما يبثّ حاجاته بين يديه تعالى، يتقرّب منه، ويتعلّق به، ويأنس إليه، ويحسّ بفقره وحاجته إليه.

ج. الإقرار بالذنوب: على الداعي أن يعترف بذنوبه مقرّاً مذعناً تائباً عمّا اقترفه من خطايا وما ارتكبه من ذنوب.

ح. مداومة الدعاء في الشدّة والرخاء: ذلك أنه نتيجة مداومة العبد على الدعاء في أوقات رخائه يصبح القلب أكثر إقبالاً على الدعاء وسريع الحضور فيه.

خ. الإلحاح في الدعاء: لأنه يكشف عن عمق ثقة العبد ورجائه في الله تعالى وعمق تعلّقه به بل ويلعب دوراً في عميق هذه الثقة وتثبيتها.

د. عدم القنوط: ينبغي للدَّاعي أن لا يقنط ويستبطئ الإجابة فيترك الدُّعاء، وعليه أن يفوِّض أمره إلى الله، واثقاً بربه، راضياً بقضائه سبحانه.

للمطالعة

لذّة الدعاء

لذّة الدعاء يعرفها من تذوّقها، وكثيراً ما تذوّق المجاهدون حلاوة ولذّة الدعاء في سنيّ المقاومة والدفاع، ويبقى الأمل أن لا تفسد حلاوة الدنيا ولذّتها وغفلتها هذه اللذّةَ وتُضعِفَها.

«إذا عبدتم الله، ودعوتم بخشوع، وأقمتم الصلاة بقلب حاضر، وأنفقتم المال للمستحقّ، ستعرفون ما هي اللذّة التي ستحصلون عليها. وهذه ليست كاللذّة التي يحصل عليها المرء بالأكل. إنّ الإنسان الذي تذوّق طعم العبوديّة لله ـ وهي حالات يشعر بها كلّ إنسانٍ مؤمنٍ في حياته قليلاً أو كثيراً ـ في لحظة الإقبال على الله تلك، عبادة الله، المناجاة، البكاء للّه وأمام الله، يشعر بلذّةٍ معنويةٍ يصبح معها على استعدادٍ للتضحية. ولكنّ الماديّات تخرج الإنسان من هذه الحالة التي تحصل من وقت لآخر.

إنّ أولئك الذين لم يتعرّفوا على الله، ولا قِبل لهم بالأهداف المعنويّة، لا يذوقون طعم هذه اللذّة. وكم هناك من البشر الذين عاشوا في ظلّ الأنظمة الماديّة المسلوبة البركة، لم يشعروا للحظة واحدة بحالة من الإقبال على الله وبتلك اللذّة المعنويّة، فهؤلاء لا يدركون ما نقول.

يريد الإسلام أن يرفعنا نحن البشر، وينوّر قلوبنا، وينتزع السيّئات من صدورنا ويرمي بها بعيداً، كي نشعر بهذه الحالة من اللذّة المعنويّة في كلّ لحظات حياتنا، وليس فقط في محراب العبادة، بل حتّى في مكان العمل، في الدراسة، في ساحة الحرب، في التعليم والتعلّم، وفي البناء. وهذا هو المقصود من القول «هنيئاً لأولئك الذين هم في حالةٍ دائمة من الصلاة»، عندما يعملون ويتاجرون فهم مع الله، عندما يأكلون ويشربون فهم ذاكرون لله. هذا هو النوع من البشر الذين يبعثون النّور حيثما يعيشون، وفي العالم أيضاً. إذا استطاع العالم تربية هذا النوع من البشر فستُقتلع جذور هذه الحروب والمظالم، وانعدام المساواة والخبائث والأرجاس، هذه هي الحياة الطيّبة»[1].

(1) حديث ولايت، ج 7، ص 63.

الدرس السادس عشر

التوسّل والزيارة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى وحقيقة التوسّل.
2. يبيّن أهمية زيارة المعصومين عليهم السلام وآثارها المعنوية والروحية.
3. يبيّن دور التوسّل وزيارة المعصومين عليهم السلام وآثارهما على حياة الإنسان الإيمانية والمعنوية.

معنى التوسّل وحقيقته

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته في مادة وسل: الوسيلة التوصّل إلى الشيء برغبة. وحقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرّي مكارم الشريعة[1].

في اللغة: وسّل: وسّلت إلى ربّي وسيلة، أي عملت عملاً أتقرّب به إليه، وتوسّلت إلى فلان بكتاب أو قرابة، أي تقرّبت إليه.

توسَّل إلى الله بوسيلةٍ: إذا تقرّب إليه بعمل. ووَسَّل فلانٌ إلى الله وسيلةً: إذا عمل عملاً تقرّب به إليه. وتوسّل إليه بكذا: تقرّب إليه بحرمةٍ تُعطفه عليه. والواسل الراغب إلى الله[2].

الوسيلة: المنزلة عند الملك، والوسيلة: الدرجة، والقربة، والوصلة والقربى، وجمعها الوسائل[3].

وقد ورد في الدعاء: «**اللَّهُمَّ أَعْطِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالشَّرَفَ وَالْفَضِيلَةَ وَالْمَنْزِلَةَ الْكَرِيمَةَ**»[4] أي القرب من الله تعالى، وقيل: هي الشفاعة يوم القيامة. وقيل: هي منزلة من منازل الجنّة.

والذي يتحصّل أن التوسّل والوسيلة، هي ما يجعله العبد من الواسطة بينه وبين ربّه لأجل التوصّل بها إلى تحصيل المقصود وهو القرب منه عزّ وجلّ، أو مطلق ما يوسّطه الشخص للتقرّب به إلى الغير من عمل أو كتاب أو قرابة أو غيرها.

---

(1) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة (وسل)، ص560 ـ 561.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة (وسل).

(3) م. ن.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص175.

في الاصطلاح: والتوسُّل إلى الله تعالى بمعناه الاصطلاحي هو أن يتقرّب العبد إلى الله تعالى بشيء يكون وسيلةً لاستجابة الدعاء ونيل المطلوب. وهو ما جاء به قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1]. فهم بعد استغفارهم يتّخذون من استغفار الرسول لهم وسيلةً لنيل توبة الله عليهم ورحمته إيّاهم. وهذا توسُّل بدعاء الرسول ﷺ في حياته. قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

الوسيلة ليست إلاّ توصلاً واتصالاً معنوياً بما يوصل بين العبد وربّه ويربط هذا بذاك، ولا رابط يربط العبد بربّه إلاّ ذلّة العبودية، فالوسيلة هي التحقق بحقيقة العبودية وتوجيه وجه المسكنة والفقر إلى جنابه تعالى، فهذه هي الوسيلة أي الرابطة. فابتغاء الوسيلة إذن ليست سوى التماس ما يقرّب العبد إلى ربّه استجابةً لأمره تعالى. وإن مخالفة أمره هو خروج عن العبودية.

مفردات مرادفة للتوسّل

إن توسّل العبد بالآيات الإلهيّة وتوجّهه وتشفّعه بالوسائط التي نصبها الله عزّ وجلّ من أجل قضاء حوائجه أو قبول توبته وعبادته ونيله للحظوة والقرب من الله تعالى، هو من باب الخضوع والعبودية والتوحيد الحقيقي والتام المرضيّ عند الله عزّ وجلّ كما أسلفنا. ويوجد أكثر من مصطلح قد يكون مرادفاً للتوسُّل بهذا المعنى، منها:

1. **الاستشفاع:** أو التشفّع، وهو اتّخاذ الشفيع إلى الله تعالى لاستجابة الدعاء ونيل القرب والرضا.

وقد كان الاستشفاع بالنبي ﷺ وبدعائه في حياته ثابتاً في سلوك المسلمين وثقافتهم، كما هو ثابتٌ أيضاً بعد وفاته، والإجماع قائمٌ على تحقّق شفاعته ﷺ لأمّته يوم القيامة. والشفيع بمثابة الوسيلة في الدعاء وطلب القربى.

(1) سورة النساء، الآية 64.
(2) سورة المائدة، الآية 35.

2. **الاستغاثة:** وهي طلب الإغاثة من المستغاث به، إلى المغيث وهو الله تعالى.
3. **التوجّه:** وهو التوجّه إلى الله تعالى بما له وجهٌ عنده.

لماذا التوسّل؟

إن حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا قائمةٌ على أساس الاستفادة من الوسائل ومن الأسباب والمسبّبات والوسائط المادية وغير المادية. فكما أن الإنسان عند إحساسه بالعطش والجوع أو الحاجة للانتقال من مكان إلى آخر يتوسّل بالأطعمة والأشربة ووسائل النقل المختلفة. كذلك يحتاج الإنسان أيضاً عند الإحساس بالفراغ المعنوي إلى التوسّل بالأسباب المعنوية والغيبية، التي لا انفكاك بينها وبين عالم المادة بالأصل ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وسبب هذه الغفلة شدّة الأنس بعالم المادة والانقطاع عن عالم الغيب والآخرة. ويمكن فيما يلي أن نوجز أهم الأسباب المحتِّمة للتوسّل وهي:

1. **الاستجابة لأمر الله تعالى:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1].
2. **لبيان فضل ومقام من نتوسّل بهم:** ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾[2].
3. **للحثّ على محبّة من نتوسّل بهم والتأسّي بهم وطاعتهم:** ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[3].
4. **لنيل شفاعة من نتوسّل بهم والحصول على كراماتهم:** ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾[4].
5. **لنيل الطهارة المعنوية والنفسية بمن نتوسّل بهم:** خصوصاً عندما يرتكب الإنسان المعاصي والذنوب بحيث تشكل عائقاً أمام استجابة الدعاء. قال الله تعالى:

(1) سورة المائدة، الآية 35.
(2) سورة الإسراء، الآية 57.
(3) سورة آل عمران، الآية 31.
(4) سورة مريم، الآية 87.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1].

أقسام التوسُّل

يتعدّد التوسُّل بتعدّد الوسائل، فليس كل شيء يصلُح أن يكون وسيلةً إلى الله تعالى، وإنّما هناك وسائل أمر الشارع ببعضها وشرّع البعض الآخر على نحو الإباحة أو الاستحباب. وهنا بعض أقسام التوسُّل بهذا الاعتبار:

1. التوسُّل بالله تعالى:

الله تبارك وتعالى أقرب إلى المرء من نفسه، وأعلم به من نفسه، وأرحم به من كلّ شيء، فهو الرّحْمنُ الرَّحِيْم بل هو أرْحَمُ الرَّاحِمِيْن، والتوسُّل به تعالى إنما هو لنيل رضاه، ويعبّر هذا التوسّل عن اليقين به تعالى والوثوق به والاعتماد عليه.

وقد جاء في الدعاء المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اللهم لا تبدّل اسمي ولا تغيّر جسمي ولا تجهد بلائي ولا تشمت بي أعدائي أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برحمتك من عذابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل ثناؤك أنت كما أثنيت على نفسك وفوق ما يقول القائلون**»[2].

2. التوسُّل بأسماء الله الحسنى وصفاته جلّ جلاله:

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[3]، وهو أمرٌ صريحٌ بدعاء الله تعالى والتوسّل إليه بأسمائه الحسنى. وغالباً ما يأتي الدعاء بالأسماء الحسنى على صيغة التوسُّل والاستغاثة، وهو ما يضيف أُسلوباً جديداً من أساليب التوسُّل والاستغاثة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لله تسعة وتسعون اسماً، من دعا الله بها استجيب له**»[4].

---

(1) سورة النساء، الآية 64.

(2) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد ،ص830، بيروت، نشر مؤسسة فقه الشيعة، 1411 هـ، ط 1.

(3) سورة الأعراف، الآية 180.

(4) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص140.

3. التوسُّل بالقرآن الكريم:

كما ورد سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، ورد أيضاً سؤاله جلّ شأنه بالقرآن الكريم، وهو كتابه المنزل وكلامه المحكم. وفي حديث الإمام علي عليه السلام ما يبيِّن ذلك، حيث قال: «**واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ... فاسألوا الله به، وتوجّهوا إليه بحبِّه، ولا تسألوا به خلقه، إنّه ما توجّه العباد إلى الله تعالى بمثله**»[1].

وفي الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اللهمّ إنّي أسألك بكتابك المنزل وما فيه وفيه اسمك الأكبر وأسماؤك الحسنى وما يُخاف ويُرجَى أن تجعلني من عتقائك من النّار**»[2].

4. التوسّل بالرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام:

من أقسام التوسّل، التوسُّل بالرسول وأهل البيت عليهم السلام، لما لهم عند الله من شأنٍ ومنزلة، وفي بعض المأثور عنهم عليهم السلام كما في هذه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله... ونحن الوسيلة إلى الله والوُصْلة إلى رضوان الله ولنا العصمة والخلافة والهداية وفينا النبوّة والولاية والإمامة ونحن معدن الحكمة وباب الرّحمة وشجرَة العصمة ونحن كلمة التقوى والمثل الأعلى والحجّة العظمى والعروة الوثقى التي من تمسّك بها نجا**»[3]. وعن رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله في حديثٍ آخر قال: «**الأئمّة من ولد الحسين من أطاعهم فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصى الله هم العروة الوثقى وهم الوسيلة إلى الله عز وجل**»[4].

آداب التوسّل

آداب التوسّل هي مثل آداب الدعاء لأن حقيقة التوسّل هو الدعاء الى الله تعالى بحقّ وجاه من أمرنا بالتوسّل بهم، مع فارقٍ بسيط هو استحضار علّة التوسّل بأنها استجابة لأوامر المعبود بابتغاء الوسيلة إليه وإتيانه من الباب الذي أمر أن يُؤتى منه، وكذلك

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص23.
(2) م.ن، ج94، ص4.
(3) م.ن، ج25، ص23.
(4) م. ن، ج36، ص244.

استحضار عظمة ومنزلة المتوسّل بهم عند الله تعالى. ويُضاف إلى ذلك الاعتقاد الجازم والراسخ بحياة وحضور الأفراد الذين أُمرنا بالتوسّل بهم كالنبي محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وبأنهم يسمعون دعاءنا وتوسّلنا بهم وبأنهم قادرون على الإجابة وعلى التشفّع لنا عند الله عزّ وجلّ.

زيارة المعصومين عليهم السلام وفضلها

إحدى الشعائر العبادية التي يتقرّب بها المؤمنون إلى الله تعالى الزيارة إلى المشاهد المقدّسة لأوليائه، وتتلخّص فلسفة زيارة المعصوم في قولٍ ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**إنّ لكل إمام عهداً في عنق أوليائهم وشيعتهم، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء، زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبةً في زيارتهم وتصديقاً لما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة**»[1]. فزيارتهم عليهم السلام هي نوعٌ من الاعتراف بالحق والفضل الذي لهم علينا وتجديد العهد وأداء الأمانة. والنصوص الشريفة في فضل زيارتهم جميعاً عليهم السلام كثيرةٌ جداً نكتفي بذكر بعضها تبرّكاً:

عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «**من زار قبري بعد موتي كان كمن هاجر إليّ في حياتي فإن لم تستطيعوا فابعثوا إليّ السّلام فإنّه يبلغني**»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا عليّ من زارني في حياتي أو بعد موتي أو زارك في حياتك أو بعد موتك أو زار ابنيك في حياتهما أو بعد موتهما ضمنت له يوم القيامة أن أخلّصه من أهوالها وشدائدها حتّى أُصَيِّرَه معي في درجتي**»[3].

الهدف من الزيارة

ما هي أهمية وأهداف الزيارة؟ قبل بيان هذا الأمر نجمل الأهداف المتعلّقة بزيارة قبور المسلمين، بشكلٍ عام بما يلي:

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص567.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج14، ص337.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص 579.

1. **الخشوع وتذكّر الموت والآخرة:** وهذه أهداف لا غنى لمؤمنٍ عنها، وفي تحقّق هذه المعاني من وراء الزيارة قوله ﷺ: «**إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن شاء أن يزور قبراً فليزره، فإنّه يُرقُّ القلب، ويُدمع العين، ويذكّر الآخرة**»[1]. وعنه ﷺ أيضاً قال: «**زُر القبور تذكّر بها الآخرة**»[2].
2. **الدعاء للميت:** هذا السلوك الأخلاقي الرفيع، الذي يحفظ كرامة المسلم في مجتمعه حتى بعد موته، ويربّي في المسلمين روح الإخاء والحبّ والمودّة وأداء حقوق الآخرين التي لا تنقطع برحيلهم من الدنيا. فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا دخل المقبرة قال: «**عليكم السّلام يا أهل الدّيار الموحشة والمحالّ المقفرة من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات أنتم لنا سلف وفرط ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون**»[3].
3. **أداء حقوق الموتى:** ولا شك في أنّ لبعض الموتى حقوقاً خاصةً على البعض، تتأكد معها الزيارة، مثل زيارة قبر الوالدين، فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**مَنْ زار قبر أبويه أو أحدهما كلَّ جمعةٍ غُفر له وكتب برّاً**»[4].

وكلّما تعاظمت الحقوق أصبحَ لهذه الزيارة شأن أكبر ومرتبة أرفع. ولا شك في أنّ للنبي ﷺ على أبناء أمّته أثبت الحقوق وأعظمها، الأمر الذي يجعل قصد المؤمن لزيارته ﷺ من القربات المهمّة، وكذلك زيارة الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام الذين أمر بحبِّهم والاقتداء بهم.

فوائد وآثار زيارة المعصومين عليهم السلام

ذكرنا ما تحقّقه الزيارة بشكلٍ عامٍ من أهدافٍ يعود نفعها على الفرد الزائر وعلى المجتمع الذي تسود فيه هذه القربة، من خلال تحقيق فرصةٍ لا غنى عنها في إحياء

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص376.
(2) م. ن، ص377.
(3) م.ن، ج1، ص368.
(4) م. ن، ص365.

القلوب بذكر الله تعالى، وبذكر الموت والآخرة، وسيادة روح احترام حقوق المؤمنين أحياءً وأمواتاً، وأدائها.

إضافةً إلى ذلك فهناك خصوصية معنوية لزيارة مشاهد أولياء الله تعالى، فإنّ زيارة الأنبياء والأئمة والصالحين تزيد وتعمّق أواصر الارتباط بهم، وتجدّد في النفوس العلاقة بهم، وتحيي آثارهم الجليلة وفضلهم على الإنسانية، وأعمالهم الصالحة، ومكارم أخلاقهم. وأيضاً ما يبعثه ذلك من الاقتداء التام بهم، وإحياء ذكرهم على الدوام وتقوية شعور الزائر بقربه من المزور.

ويمكن اختصار فوائد الزيارة للزائر بالتالي:

1. التأكيد على الايمان الراسخ بالله ورسوله واليوم الآخر وبما جاء به النبي ﷺ.
2. إظهار المودة التي هي أجر الرّسالة المحمّديّة: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾[1] وإبراز التكريم والتعظيم لمقامهم الشامخ ومنازلهم الرفيعة. التخلّق والتحلّي بأخلاقهم الطيّبة تأسيّا بهم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾[2]، ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾[3].
3. الاستمداد الروحي والفكري والسلوكي من أرواحهم الطاهرة وجاههم عند الله، فإنّهم وسائط الفيض بين الخالق والخلق، وإنّهم من أتمّ مصاديق الوسيلة ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[4].
4. نيل الشفاعة منهم في الدنيا والآخرة. عن رسول الله ﷺ: «**من أتاني زائراً كنت شفيعه يوم القيامة**»[5].
5. طلب التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله عند أضرحتهم المقدّسة لشرافة المكان.

---

(1) سورة الشورى، الآية 23.
(2) سورة القلم، الآية 4.
(3) سورة الأحزاب، الآية 21.
(4) سورة المائدة، الآية 35.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص548.

6. طلب الأجر والثواب والخلاص من الآثام والقبائح بزيارتهم وقصد حرمهم المقدّسة.
7. زيارتهم من مصاديق التولّي والتبرّي اللذين هما من فروع الدين.

الآداب المعنوية للزيارة

كغيرها من الأعمال التي يُتقرّب بها إلى الله تعالى، فإن للزيارة سنناً وآداباً، ينبغي التزامها، والعمل بمقتضاها. أما آدابها الظاهرية فتُطلب في الكتب الخاصّة بالأدعية والزيارات، وما يعنينا هنا هو آدابها المعنوية.

فبما أن الزيارة تمثّل تجسيداً عملياً وروحياً للرابطة بين الإنسان المؤمن والمعصومين عليهم السلام، فمن الآداب أن يعتقد الزائر أنَّه يرد بيت الإمام الذي هو من بيوت الله التي: ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾[1]، وأنّه يتحدّث في هذه الزِّيارة مع الإمام الذي يسمع كلامه ويفهمه ويردّ جوابه. فمن الآداب استحضار معنى الزيارة وأنها وقوف بين يدي المزور كإحساس وجداني، وكذلك استشعار حياة المعصوم، لأن الاعتقاد بحياته من لوازم الاعتقاد بقربه ومنزلته من الله تعالى. ونجد في الاستئذان للدخول إلى مشاهدهم ما يعبّر عن هذه الحقيقة: «**اللّهمّ، إنّي وقفت على باب من أبواب بيوت نبيّك صلواتك عليه وآله... اللّهمّ، إنّي أعتقدُ حرمةَ صاحب هذا المشهد الشريف في غيبته، كما أعتقدها في حضرته، وأعلم أنّ رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردّون سلامي، وأنّك حجبت عن سمعي كلامهم، وفتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم**»[2].

ومن الآداب أيضاً الإقرار بمقام المعصوم عليه السلام عند الله تعالى ومنزلته الشامخة وفضله علينا. لأن قبول الزيارة مترتّبٌ على العرفان بحق الإمام، أي المعرفة بمنزلة الإمام عند الله تعالى ومقامه المنيع. ورد في الزيارة: «**اللهمّ، صلّ على أمير المؤمنين، عبدك وأخي رسولك الذي انتجبته بعلمك وجعلته هادياً لمن شئت من خلقك، والدليل على**

(1) سورة النور، الآية 36.
(2) الشيخ الكفعمي، المصباح، ص473.

من بعثته برسالاتك، وديّان الدين بعدلك، وفصل قضائك بين خلقك، والمهيمن على ذلك كلّه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته...»[1].

وكذلك في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: تقول: «**أتيتك زائراً، عارفاً بحقّك، موالياً لأوليائك، معادياً لأعدائك، فاشفع لي عند ربك**»[2].

فلا شك أن الذي يزور الإمام وروحه تفيض من معاني التعظيم والاحترام والتقدير، تجاه المعصوم، غير ذلك الذي يزوره بروح خالية من المعاني، وما زيارته إلا عملية ميكانيكية مادية حيث دخل بدنه المشهد الشريف، فإن هذا لا يوجب القرب من المعصوم.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص573.
(2) الشيخ المفيد، المقنعة، ص466.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - التوسّل هو الوسيلة الرابطة في التحقق بحقيقة العبودية وتوجيه وجه المسكنة والفقر إلى جنابه تعالى ☐

2 - الغاية من التوسّل هي لنيل شفاعة من نتوسّل بهم وتحقيق الطهارة المعنوية والنفسية ☐

3 - لا يمكن للإنسان التوسّل بغير الله سبحانه وتعالى كتوسّله بالأنبياء والأولياء لأنّ ذلك يُعتبر شركاً بالله سبحانه وتعالى ☐

4 - حقيقة التوسّل هو سؤال الله سبحانه وتعالى بمكانة ومنزلة الأنبياء والأولياء عنده سبحانه وتعالى ☐

5 - إنّ زيارة المعصومين عليهم السلام تُمثّل نوع اعتراف بحقّهم وفضلهم ومكانتهم عند الله ☐

6 - إذا زار الإنسان القبور والصلاة عندها قصد بذلك الاعتماد على أصحابها من دون الله تعالى ☐

7 - زيارة الأولياء تزيد وتعمّق أواصر الارتباط بهم، وتحيي آثارهم الجليلة وفضلهم على الإنسانية، وأعمالهم الصالحة، ومكارم أخلاقهم ☐

8 - قبول الزيارة مترتّبٌ على المعرفة العلمية بالإمام من دون الحاجة إلى معرفة حقّه وفضله ومقامه عند الخالق الكريم ☐

9 - أجر الرّسالة المحمّديّة هو إظهار المودّة لأهل بيت العصمة والطهارة والتي تتحقّق بالزيارة والتوسّل بهم ☐

10 - الزيارة تُمثّل تجسيداً عملياً وروحياً للرابطة بين الإنسان المؤمن والمعصومين عليهم السلام ☐

المفاهيم الرئيسة

1. الوسيلة ليست إلاّ توصلاً واتصالاً معنوياً بما يوصل بين العبد وربّه ويربط هذا بذاك، ولا رابط يربط العبد بربّه إلاّ ذلّة العبودية، فالوسيلة هي التحقق بحقيقة العبودية وتوجيه وجه المسكنة والفقر إلى جنابه تعالى، فهذه هي الوسيلة أي الرابطة.
2. أهم الأسباب المحتِّمة للتوسّل هي: استجابة لأمر الله تعالى، لبيان فضل ومقام من نتوسّل بهم، للحثّ على محبة من نتوسّل بهم والتأسّي بهم وطاعتهم، لنيل شفاعة من نتوسّل بهم، لنيل الطهارة المعنوية والنفسية بمن نتوسّل بهم.
3. يتعدّد التوسُّل بتعدّد الوسائل، وهنا بعض أقسام التوسُّل بهذا الاعتبار: التوسُّل بالله تعالى، التوسُّل بأسماء الله الحسنى وصفاته جلّ جلاله، التوسّل بالقرآن الكريم، التوسّل بالرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.
4. آداب التوسّل هي مثل آداب الدعاء لأن حقيقة التوسّل هو الدعاء إلى الله تعالى بحقّ وجاه من أمرنا بالتوسّل بهم، مع استحضار علّة التوسّل بأنها استجابة لأوامر المعبود.
5. زيارة المعصومين عليهم السلام هي نوعٌ من الاعتراف بالحق والفضل الذي لهم علينا وتجديد العهد وأداء الأمانة. والنصوص الشريفة في فضل زيارتهم عليهم السلام كثيرةٌ جداً.
6. الخشوع وتذكّر الموت والآخرة، الدعاء للميت وأداء حقوق الموتى هي من أهداف زيارة قبور المسلمين، وكلّما تعاظمت الحقوق أصبح للزيارة شأنٌ أكبر ولذلك كانت زيارة النبي ﷺ وكذلك زيارة الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام من أعظم القربات.
7. زيارة الأولياء تزيد وتعمّق أواصر الارتباط بهم، وتحيي آثارهم الجليلة وفضلهم على الإنسانية، وأعمالهم الصالحة، ومكارم أخلاقهم. وأيضاً الاقتداء التام بهم، وإحياء ذكرهم على الدوام وتقوية شعور الزائر بقربه من المزور، وغيرها الكثير من الفوائد.

للمطالعة

حبّ الدنيا مفسدٌ لعزم الإنسان

من المفاسد الكبيرة لحب الدنيا أنّه يمنع الإنسان من الرياضات الشرعية والعبادات والمناسك، ويُقوّي جانب الطبيعة في الإنسان بحيث يجعلها تعصي الروح وتتمرّد عليها ويوهن عزم الإنسان وإرادته، مع أن من أكبر أسرار العبادات والرياضات الشرعية هو أن تجعل الجسم وقواه الطبيعية تابعة ومنقادة للروح بحيث يكون للإرادة دور مؤثر في الجسم ويخضع الجسم لأوامر الإرادة فيعمل ما تشاء، ويمتنع عمّا تشاء، ويصبح مُلك الجسم وقواه الظاهرة مقهوراً ومسخّراً للملكوت بحيث إنه يقوم بما يريد من دون مشقّةٍ ولا عناء.

إن من الفضائل والأسرار الشاقّة والصعبة للعبادات تحقُّق هذا الهدف - تسخير مُلك الجسم للملكوت - أكثر حيث يصير الإنسان بذلك ذا عزم، ويتغلّب على الطبيعة والملك. فإذا اكتملت الإرادة وقوي العزم واشتدّ، أصبح كمَثل الجسم وقواه الظاهرة والباطنة مَثل ملائكة الله الذين لا يعصون الله وإنما يطيعونه في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، من دون أن يعانوا في ذلك عنتاً ولا مشقة. كذلك إذا أصبحت قوى الإنسان مسخّرة للروح، زال كل تكلّف وتعب وتحوّل إلى الراحة واليسر، واستسلمت أقاليم الملك السبعة للملكوت وأصبحت جميع القوى عمّالاً له.

فاعلم، يا عزيزي، أن العزم والإرادة القوية لذلك العالم ضروريان وذات فعالية. إن البلوغ لأحد مراتب الجنة والذي يُعدّ من أفضلها هو العزم والإرادة. فالإنسان الذي ليست له إرادة نافذة ولا عزم قوي لا ينال تلك الجنة ولا ذلك المقام الرفيع. جاء في الحديث، أن أهل الجنة عندما يستقرون فيها، تنزل عليهم رسالة من ساحة القدس الإلهي جلّت عظمته بهذا المضمون: «هذه رسالة من الحي الثابت الخالد إلى الحي الثابت الخالد. أنا الذي أقول للشيء: كن، فيكون. وقد جعلتك اليوم أيضاً في مستوىً إذا أمرت الشيء وقلت له كن، فيكون»[1].

(1) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث السَادِس: من أصبح وأمسى والدنيا أو الآخِرة أكبر همّه.

الدرس السابع عشر

الآداب المعنوية للصوم

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يبيّن حقيقة الصوم وهدفه.

2 . يذكر فوائد تشريع الصوم الظاهرية والمعنوية.

3 . يبيّن أهم الآداب المعنوية للصوم.

حقيقة الصوم

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**بُني الإسلام على خمس على الصّلاة والزَكاة والصّوم والحجّ والولاية ولم يُناد بشيء كما نُودِيَ بالولاية**»[1]. فللصيام إذاً درجة بالغة الأهمية جعلته ركناً من أركان الدين. فما هي حقيقة الصيام التي تجعله ركناً من أركان الدين؟ وإلى أي سرٍّ ينبغي أن يلتفت الإنسان وهو يؤدّي عبادة الصيام العظيمة ليتمكّن من تحصيل ثماره المعنوية؟ نبحث عن هذه الحقيقة في الوحي الشريف وفي كلمات المعصومين عليهم السلام علّنا نهتدي سبيلاً.

في المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**قال الله عزَ وجلّ الصّوم لي وأنا أَجْزِي به**»[2].

من المعلوم أن كلّ شيء هو لله تعالى، فهو مالك الملك وله ما في السماوات وما في الأرض: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[3] وهو المثيب وهو المعاقب: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[4]. ولكن نسبة بعض الأشياء إليه مباشرة من باب إيلاء الأهمية والتشريف لذلك الشيء، كما هي نسبة المسجد الحرام والكعبة المعظّمة إليه تعالى، وكما ذكر في ثواب بعض الأشخاص أنه هو الذي يثيبهم تعظيماً لهم كما في الآية: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[5]. وكذلك الأمر

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص18.

(2) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام،ج4، ص152، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية - طهران، 1364 ش، ط 3.

(3) سورة البقرة، الآية 107.

(4) سورة الكهف، الآية 44.

(5) سورة الإنسان، الآية 21.

في نسبة الصيام إليه تعالى لما له من أهمّيةٍ وفضلٍ ولعِظَمِ قدره. وهذه ميزةٌ تميّز الصوم عن باقي العبادات.

ومؤدّى العبارة أن الصوم ملكٌ لله، وأنه تعالى بنفسه يجازي الصائمين، وهو لا غيره يعطيهم ثوابهم، بينما في ثوابٍ آخرٍ نجد مثلاً أن الملائكة هي التي تأتي لاستقبال المؤمنين فتقول: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[1]. فما معنى أن يصل الإنسان إلى مقامٍ يكون الله عز وجل فيه هو المجازي بالثواب؟ وما هو هذا المقام؟

غاية الصوم

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[2]. في الآية دلالةٌ واضحةٌ على أن الغاية من تشريع فريضة الصيام هي وصول المؤمنين إلى ملكة التقوى. ويقول الله تعالى في موضعٍ آخر في وصف المتّقين: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾[3].

وطالما أنّ الغاية من الصيام هي تحصيل المؤمن الصائم لملكة التقوى فإنه عندما يصبح من المتّقين ينال ثوابهم تبعاً للدرجة التي حصّلها، فإن كمل صيامه ووصل إلى غايته كان ثوابه مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ، ونال لقاء الله الذي هو أعلى ثواب يصله الصائم، فيُروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**للصائم فرحتان: فرحةٌ عند إفطاره، وفرحةٌ عند لقاء ربه**»[4] وهذا هو سّر وباطن الصيام وهو لقاء الرب المتعال.

فإذاً المقام الذي يصله الإنسان بحيث ينال جزاءه من الله مباشرة هو مقام لقاء الله، وهو غاية العبودية، ومن أجل نيله شُرّعت جميع العبادات، وللصوم من بينها هذه الخصوصية حيث يرتبط باطنه وسرّه بمقام لقاء الله، فمن تحقّق بحقيقة الصوم نال اللقاء، ولكن بشرط الإخلاص كما نجد تأكيد هذا المعنى في قوله تعالى في سورة الكهف:

---

(1) سورة الزمر، الآية 73.
(2) سورة البقرة، الآية 183.
(3) سورة القمر، الآيتان 54-55.
(4) الشيخ الكيلني، الكافي، ج4، ص65.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1] فشرطت لقاء الله بتحقق الإخلاص. ونقرأ في الخطبة المرويّة عن السيدة الزهراء عليها السلام: «**فرض الله الإيمان تطهيراً من الشّرك والصّلاة تنزيهاً عن الكِبْر، والزّكاة زيادةً في الرِّزق، والصّيام تثبيتاً للإخلاص...**»[2].

فتتّضح بذلك علاقة الصوم بلقاء الله عز وجل. فالصيام أفضل طريق لإيصال الروح إلى الله تعالى. فإذا كانت نيّة الصائم لقاء الله سبحانه، فإنه سينال الفرحة الثانية: «**وفرحةٌ عند لقاء ربه**» كما عبّر الإمام الصادق عليه السلام. فليس ثواب الصوم الحقيقي الكامل الحور والولدان، أو الثمار والفواكه، والجنات والأنهار، بل هو كمالٌ معنويٌّ وهو المقام اللائق بروح الإنسان.

إذاً، باطن الصيام سيظهر بشكل لقاء الله عز وجل، وليس هناك شيءٌ أعلى من لقاء الله، فإذا وصل الصائم إلى باطن الصيام سيكون في لقاء الله على الدوام، لأن الإنسان موجودٌ أبديٌّ لا يزول ولا يفنى، بل ينتقل من عالمٍ إلى آخر.

فوائد وآثار الصوم

من الأمور المهمّة التي تساهم في الاستعداد النفسيّ والروحيّ للدخول إلى شهر رمضان بروحٍ مقبلةٍ على الصوم، كعبادة سنوية استثنائية ينتظرها المؤمنون ليعيشوا أيامها ولياليها بخضوعٍ وتذلّلٍ في ضيافة الرحمان، هو استحضار آثار الصوم، فإن له آثاراً وفوائد كثيرة نستعرض بعضها هنا، ومن البديهي أن المقصود هو الصوم الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة يمقتها الله عز وجلّ:

1. خصالٌ سبعة للصائم:

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما من مؤمن يصوم يوماً من شهر رمضان حاسباً محتسباً إلا أوجب الله تعالى له سبع خصال: أول الخصال: يذوب الحرام من جسده، والثاني: يتقرب إلى**

(1) سورة الكهف، الآية 110.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، ص22.

رحمة الله، والثالث: يكفّر خطيئته، والرابع: يهوّن عليه سكرات الموت، والخامس: آمنه الله من الجوع والعطش يوم القيامة، والسادس: براءة من النار، والسابع: أطعمه الله من طيبات الجنة»[1].

2. تحقّق ملكة التقوى:

ولا تتحقق التقوى إلا بمراعاة الآداب المعنوية والباطنية للصيام، حيث يمتنع الصائمُ عن الكذب والحسد والغيبة وكل ذنب وإثم كما يمتنع عن الطعام والشراب، ويطهّر قلبه من الوسواس والأحقاد كما يطهر جسمه عن الأوساخ والمفطرات، ويتنزه عن المعاصي والموبقات كما يتنزه عن النجاسات والقذارات، ويترفّع عن البطنة والشره كما يترفّع عن الطمع والتعلّق بالدنيا.

3. تقوية إرادة الإنسان:

وقد ذكرنا سابقاً أن إحدى فوائد العبادات وتكرارها تقوية إرادة الإنسان وقوّة نفسه، والصوم منها.

روي أن شخصاً جاء إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكان الإمام يتناول طعامه فرأى أن طعام الإمام في غاية البساطة، فقال علي عليه السلام: «**وكأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضّعف عن قتال الأقران ومنازلة الشّجعان، ألا وإنّ الشّجرة البرّيّة أصلب عوداً والرَّواتِع الخَضِرَة أرقُّ جُلوداً والنّابِتات العِذْيَة أقوَى وقوداً وأبطأُ خُموداً، وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالصنو من الصنو والذراع من العضد. والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ولو أمكنت من رقابها لسارعت إليها....**»[2].

إذاً فكثرة الطعام ليست علّةً للقوة والقدرة. وقال عليه السلام في حادثة قلع باب خيبر: «**والله ما قلعت باب خيبر بقوّة جسدانيّة ولا بحركة غذائيّة ولكنّي أُيِّدتُ بقُوة مَلَكيّة ونفس بنور بارئها مضيئة**»[3].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 7، ص 396.
(2) العلامة الجلسي، بحار الأنوار، ج33، ص475.
(3) م.ن، ج40، ص318.

إن الاعتدال في تناول الطعام يحفظ الإنسان قطعاً، ولكن يجب أن نحصل على القدرة المعنوية من طرقها الخاصة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**ما ضعف بدن عما قويت عليه النية**»[1]، فإذا كانت إرادة الإنسان قوية، كان البدن قوياً، لأنه تابع للإرادة، وإذا كانت الإرادة ضعيفة فالبدن يكون ضعيفاً. إن لقوي الإيمان إرادة صلبة فلا يفكر ببدنه ولا يشعر بالمشقّة إن صام في وقت شديد الحر، أما ضعيف الإيمان فيشعر بالتعب والمشقّة، لأن كل حواسّه متّجهة إلى الطبيعة.

4. إبعاد الشيطان وتسويد وجهه:

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ألا أخبركم بشيءٍ إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: الصوم يسوّد وجهه**»[2].

5. الدعاء من الملائكة:

فالملائكة تستغفر للصائمين حتّى يفطروا. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله تبارك وتعالى وكّل ملائكة بالدعاء للصائمين، أخبرني جبرائيل عليه السلام عن ربّه تعالى ذكره، أنه قال: ما أمرت ملائكتي بالدعاء لأحد من خلقي إلا استجبت لهم فيه**»[3].

6. البشرى والمغفرة:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**من صام لله عزَ وجلّ يوماً في شدّة الحرِ فأصابه ظمأ وكّل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه حتّى إذا أفطر، قال الله عزَ وجلّ: له ما أطيب ريحك وروحك ملائكتي اشهدوا أني قد غفرت له**»[4].

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، ص 53.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص62.
(3) م. ن، ص64.
(4) م.ن، ج4، ص64.

7. جنة من النار:

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**الصوم جنّة من النار**»[1]، فالصوم حرزٌ من نار الآخرة.

8. استجابة الدعاء:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله متقبل، ودعاؤه مستجاب**»[2].

ولكل صائم دعوة مستجابة عند إفطاره كما في الحديث عَنْ إمامنا مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام: «**أنّ لكلّ صائم عند فطوره دعوة مستجابة فإذا كان أوّل لقمة فقل بسم الله يا واسع المغفرة اغفر لي**»[3].

9. الشعور بآلام الفقراء وجوعهم:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أما العلة في الصيام ليستوي به الغني والفقير، وذلك لأن الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع، فيرحم الفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله عزّ وجلّ أن يسوّي بين خلقه وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم، ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع**»[4].

10. الطمأنينة والخشوع:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**...والصيام والحج تسكين القلوب...**»[5]. وعن الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه: «**...عن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصّلَوات والزّكوات ومجاهدة الصّيام في الأيام المفروضات تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلًا لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وإذهاباً للخُيلاء عنه...**»[6].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص18.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج10، ص7.
(3) م. ن، ص149.
(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج 93، ص 371.
(5) م. ن، ج75، ص182.
(6) م.ن، ج6، ص 114.

11. تذكّر جوع يوم القيامة وعطشه:

عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال في خطبة استقبال شهر رمضان: «**... واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه...**»[1]، فقد أراد رسول الله ﷺ في خطبته هذه كما هو ظاهر أن يربط المؤمن الصائم الذي يشعر بالجوع والعطش بأهوال يوم القيامة وجوعه وعطشه.

12. صحّة للبدن:

عن رسول الله ﷺ قال: «**لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام**»[2]، فالصيام زكاة البدن، فهو يزكّيها وينميها كما أن إخراج زكاة الأموال تزكيها وتنميها.

الآداب المعنوية للصوم

عن الإمام الصادق عليه السلام في رواية إلى أن قال في ختامها: «**إنّ الصّوم ليس من الطّعام والشّراب إنّما جعل الله ذلك حجاباً ممَّا سواها من الفواحش من الفعل والقول يُفَطّر الصّائم، ما أقلّ الصُّوّام وأكثر الجُوّاع**»[3]. فليس كلُّ من صام فهو صائم حقيقةً، وكم من صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش!

فإن للصوم ككلّ عبادة، أحكاماً شرعيةً لا بدّ من مراعاتها من أجل صحّة الصوم، وله آداب ظاهرية من قبيل الاستعداد له قبل دخوله وذلك باستغلال شهرَي رجبٍ وشعبانَ بالاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى، وأيضاً من قبيل إفطار المؤمنين والإفطار على التمر وتقديم الصلاة على الإفطار، والإكثار من تلاوة القرآن الكريم وغيرها من المستحبات المعروفة. وله آدابٌ باطنيةٌ لا بدّ من أن يستحضرها الصائم ويلتزم بها من أجل أداء حقيقة الصوم التي لا تتحقّق إلاّ بتوجّه القلب إلى باطن هذه العبادة العظيمة، فيستحضر في قلبه حقيقة الصوم وغايته وفضله وعظمة شهر رمضان وينظر إلى كرم الله عزّ وجلّ باستضافته في هذا الشهر المبارك فيلتزم بآداب الضيف أمام عظمة المضيف.

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج10، ص313.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 62.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج10، ص166.

وهنا أهم هذه الآداب التي أجملها رسول الله ﷺ في حديثه، قال: «**الصوم جنّة، أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانوِ بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمّة عن خطرات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشته طعاماً ولا شراباً، وتوقّع في كل لحظة شفاك من مرض الذنوب، وطهّر باطنك من كلّ كدرٍ وغفلةٍ وظلمةٍ تقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله**»[1].

وفي حديث أخر بالغ الأهمية والدلالة عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**إذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضّوا أبصاركم، ولا تنازعوا ولا تحاسدوا ولا تغتابوا ولا تماروا ولا تكذبوا ولا تباشروا ولا تخالفوا ولا تغاضبوا ولا تسابّوا ولا تشاتموا ولا تنابزوا ولا تجادلوا ولا تبادروا ولا تظلموا ولا تسافهوا ولا تزاجروا ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة، والزموا الصمت والسكوت والحلم والصبر والصدق ومجانبة أهل الشرور، واجتنبوا القول من الزور والكذب والفراء والخصومة وظن السوء والغيبة والنميمة، وكونوا مشرفين على الآخرة منتظرين لأيامكم منتظرين لما وعدكم الله متزودين للقاء الله، وعليكم بالسكينة والوقار والخشوع والخضوع، قد طهرتم القلوب من العيوب، وتقدست سرائركم من الخبّ، ونظفتم الجسم من القاذورات وتبرّأت إلى الله من عداه ووالیت الله في صومك وبالصّمت من جميع الجهات ممّا قد نهاك الله عنه في السّر والعلانية وخشيت الله حقّ خشيته في السّرّ والعلانية ووهبت نفسك لله في أيّام صومك وفرَّغت قلبك له ونصبت نفسك له فيما أمرك ودعاك إليه، فإذا فعلت ذلك كلّه فأنت صائم لله بحقيقة صومه صانع لما أمرك، وكلّما نقصت منها شيئاً ممّا بيّنت لك فقد نقص من صومك بمقدار ذلك**»[2].

من خلال الحديثين الشريفين يمكن أن نستخلص العديد من الأمور التي تخلّ بالصوم الحقيقي والتي ينبغي الكفّ عنها، وبتبعها نجد عدّة مراتب للصوم وهي تحمل في طيّاتها آداباً معنوية عدّة:

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج93، ص254.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج10، ص166.

1. صوم الجوارح:

أي كفّ البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي والمكروهات، فمن صام صامت جوارحه أيضاً. فمن استمع للغناء ومن استمع الغيبة ومن استمع اللغو فأولئك ممن لم تصم أسماعهم، ومن كذب ومن اغتاب ومن شتم أو سبَّ أو جادل أو نابز بالألقاب أو ما شابه فأولئك ممّن لم تصم ألسنتهم، ومن نظر لامرأة نظرةَ حرام فهو ممّن لم يصم بصره، ومن نظر إلى ما لا يجوز له أن ينظر إليه فاطّلع على بيتِ مؤمن، أو على عورة مؤمن، أو تجسَّس عليه، وما شابه فذلك فهو ممّن لم يصم بصره.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، إنما للصوم شرط يحتاج أن يُحفظ حتى يتمَّ الصوم، وهو صمت الداخل أما تسمع ما قالت مريم بنت عمران:** ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[1] **يعني صمتاً. فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم وغضوا أبصاركم...**»[2].

2. الصوم عن الشهوات:

ويتمثّل في ترك اشتهاء الطعام والشراب، فينبغي ألا يستكثر من الطعام وقت الإفطار بحيث يمتلئ بطنه، إذ ما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطنٍ ممتلىء ولو من حلال، وسبب ذلك أن السرّ في شرع الصوم قهر عدو الله، وكسر الشهوة والهوى، لتتقوّى النفس على التقوى، وترتقي من حضيض حظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبّه بالملائكة الروحانية، وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الإفطار ما فاته من طعام في نهاره؟ لا سيّما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استقرّت العادات في زمننا هذا!!

رُوِيَ أنَّ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال لأسامة: «**... فإن استطعت أن يأتيك الموت وأنت جائع وكبدك ظمآن فافعل فإنّك تنال بذلك أشرف المنازل وتَحُلّ مع الأبرار والشّهداء والصّالحين**»[3].

(1) سورة مريم، الآية 26.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 10، ص166.
(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج7، ص499.

فبالصيام يحصل صفاء العقل والفكر بسبب ضعف القوى الشهوية وحصول الإنسان على المعارف الإلهية وهذه أشرف أحوال النفس. والصيام موجبٌ للحدّ من الشهوات واللذات في الفرج والبطن ممّا يؤدّي إلى ارتقاء الإنسان عن الماديات إلى المعنويات والتشبّه بالملائكة الروحانيين.

3. الصوم عن الأخلاق السيئة:

صوم الباطن عن الأخلاق السيئة أي الابتعاد عن الرذائل مثل الحسد والغضب وظن السوء والمراء، واستبدالها بالفضائل الأخلاقية مثل الحلم والصبر والصدق.

ولا يخفى ما للتحلي بالفضائل كالحلم من أهمية فعن رسول الله ﷺ: «**ما من عبد صالح يُشتَمُ فيقول إنّي صائم سلام عليك لا أشتمك كما شتمتني، إلّا قال الرَبّ تبارك وتعالى: استجار عبدي بالصّوم من شرِّ عبدي فقد أجرته من النّار**»[1].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص88.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - ممّا يجعل الصوم ركناً أساسياً من أركان الدين الإسلامي هو كونه لله سبحانه وتعالى ☐

2 - الغاية من تشريع فريضة الصيام هي وصول الصائم السالك إلى ملكة التقوى ☐

3 - إذا صام العبد لله سبحانه وتعالى ارتقى في النفس إلى درجة التقوى ☐

4 - إنّ السرّ وباطن الصيام هو لقاء الربّ المتعال، الذي هو أعلى ثواب يصله الصائم ما دام صيامه حقيقياً ومقترناً بالإخلاص ☐

5 - فوائد وآثار الصوم مقتصرة على الجانب الظاهري كصحة البدن وخلوّه من الأمراض الجسدية ☐

6 - من غايات الصوم ربط المؤمن الصائم الذي يشعر بالجوع والعطش بأهوال يوم القيامة وجوعه وعطشه ☐

7 - صوم القلب والباطن يتحقّق في ترك اشتهاء الطعام والشراب فالصيام موجبٌ للحدّ من الشهوات واللذّات في الفرج والبطن ☐

8 - لتحقّق الغاية الأساسية من الصوم لا بد من توجّه القلب نحو حقيقة الصوم وعظمة الشهر الكريم والمستضيف ☐

9 - صوم الجوارح هو كفّ الجوارح عن المعاصي والمكروهات واجتناب كثرة الكلام ☐

10 - الصوم عن الشهوات يتمثّل في ترك الأخلاق السيئة أي الابتعاد عن الرذائل مثل الحسد والغضب وظن السوء والمراء ☐

المفاهيم الرئيسة

1 - في الحديث القدسي: «**الصّوم لي وأنا أَجْزِي به**» فنسب الله تعالى الصيام إليه لما له من أهمّيةٍ وفضلٍ ولعِظَمِ قدره وهذه ميزةٌ تميّز الصوم عن باقي العبادات فالصوم ملكٌ لله، وهو لا غيره من يجازي الصائمين ويعطيهم ثوابهم.

2 - الغاية من تشريع فريضة الصيام هي وصول المؤمنين إلى ملكة التقوى.

3 - التقوى التي يحصّلها الصائم من صيامه هي على درجات تتناسب وما وصل إليه من حقيقة الصيام وباطنه.

4 - إن سرّ وباطن الصيام هو لقاء الرب المتعال، الذي هو أعلى ثواب يصله الصائم ما دام صيامه حقيقياً ومقترناً بالإخلاص.

5 - فوائد وآثار الصوم كثيرة منها: تحقّق ملكة التقوى، تقوية إرادة الانسان،إبعاد الشيطان وتسويد وجهه، الدعاء من الملائكة، البشرى والمغفرة،جنة من النار، استجابة الدعاء، الشعور بآلام الفقراء وجوعهم، الطمأنينة والخشوع، تذكر جوع يوم القيامة وعطشه، صحة للبدن.

6 - للصوم آدابٌ باطنيةٌ لا بدّ من أن يستحضرها الصائم ويلتزم بها من أجل أداء حقيقة الصوم التي لا تتحقّق إلاّ بتوجّه القلب إلى باطن هذه العبادة العظيمة، فيستحضر في قلبه حقيقة الصوم وغايته وفضله وعظمة شهر رمضان وينظر إلى كرم الله عزّ وجلّ باستضافته في هذا الشهر المبارك فيلتزم بآداب الضيف أمام عظمة المضيف.

7 - للصوم مراتب هي تحمل آداباً معنوية عدّة: صوم الجوارح أي كفّ الجوارح عن المعاصي والمكروهات واجتناب كثرة الكلام الصوم عن الشهوات ويتمثّل في ترك اشتهاء الطعام والشراب فالصيام صوم القلب والباطن عن الأخلاق السيئة أي الابتعاد عن الرذائل الأخلاقية.

للمطالعة

لا عبودية في ظل التكبّر

يقول أستاذنا الشيخ محمد علي الشاه آبادي دام ظلّه: «**إن المعيار في الرياضة الباطلة والرياضة الشرعية الصحيحة هو خطى النفس وخطى الحق، فإذا كان تحرّك السالك بخطى النفس وكانت رياضته من أجل الحصول على قوى النفس وقدرتها وتسلّطها، كانت رياضته باطلة وأدّى سلوكه إلى سوء العاقبة. وتظهر الدعاوى الباطلة ـ عادة ـ من مثل هؤلاء الأشخاص**».

أما إذا كان تحرّك السالك بخطى الحق وكان باحثاً عن الله، فإن رياضته هذه حقّة وشرعيّة وسيأخذ الله تعالى بيده ويهديه كما تنصّ على ذلك الآية الشريفة التي تقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1]. وسيؤول عمله إلى السعادة. فتسقط عنه «الأنا» ويزول عنه الغرور. ومعلومٌ أن خطوات الشخص الذي يعرض أخلاقه الحسنة وملكاته الفاضلة على الناس ليلفت أنظارهم إليه هي خطوات النفس، وهو متكبّرٌ وأنانيٌّ ومعجبٌ بنفسه، وعابدٌ لها.

ومع التكبّر تكون العبودية لله وهماً ساذجاً، وأمراً باطلاً ومستحيلاً، وما دامت مملكة وجودكم مملوءةً بحب النفس وحب الجاه والجلال والشهرة والترؤس على عباد الله، فلا يمكن اعتبار ملكاتكم ملكات فاضلة، ولا أخلاقكم أخلاقاً إلهية. فالفاعل في مملكتكم هو الشيطان، وليس ملكوتكم وباطنكم على صورة إنسان. وعند فتح العيون البرزخية، ترون ملكوتكم على غير صورة الإنسان، وإنما هي صورة أحد الشياطين مثلاً. وحصول المعارف الإلهية والتوحيد الكامل أمرٌ مستحيلٌ بالنسبة إلى قلبٍ كهذا ما دام مسكناً للشيطان، وما دام ملكوتكم غير إنساني، وما دامت قلوبكم غير مطهرّة من هذه الانحرافات والأنانيات[2].

(1) سورة العنكبوت، الآية 69.

(2) الأربعون حديثاً، الإمام الخميني، الحديث الثاني: الرياء.

الدرس الثامن عشر

الحج وأبعاده المعنوية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر معنى الحج وحقيقته ومحوريته في السلوك إلى الله.
2. يبيّن الآثار المعنوية للحج.
3. يعدّد الآداب المعنوية للحج.

الحج لغةً واصطلاحاً

الحج في اللغة يعني القصد أو القصد للزيارة. قال الخليل: هو كثرة القصد، وسمّيت الطريق محجّةً لكثرة التردّد. وسمّي الحاج بذلك: لأنه يتكرر للبيت لطواف القدوم، والإفاضة، والوداع[1].

وفي المصطلح الإسلامي هو الشعيرة السنوية التي تتمثّل في قصد المسلم مكّة المكرمة في وقت محدّد ليطوف حول الكعبة ويقيم في ميدان عرفات ويأتي أعمالاً أخرى معروفة بمراسم أو شعائر الحج. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[2]، فقد فرض الله تعالى الحج على الإنسان المسلم الذي تتوفّر له الإمكانية ضمن شروطٍ معينة.

حقيقة الحج

لم يـأتِ الإسلام بالحج وزيارة بيت الله على أنها من الأفعال والأعمال الخاصة بالأمة الإسلامية، بل إن أساس هذا التشريع يعود إلى زمن حضرة آدم على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، فإن الكعبة أول بيت وضع من أجل عبادة الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾[3].

---

(1) محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ج1، ص550.

(2) سورة الحج، الآية 27.

(3) سورة آل عمران، الآيتان 96-97.

والحج عبادةٌ تتّحد فيها عناصر كثيرة كالخضوع والتضرّع والزهد والتقوى وذكر الله والتضحية في سبيله، وإنفاق المال والانقطاع عن الشهوات وملذّات الدنيا لإظهار العبودية لله عز وجل في أنقى وأعمق حالاتها.

وحقيقة الحج أنه سفرٌ إلى الله تعالى ووفادةٌ إليه وقد ذكر الإمام الرضا عليه السلام هذا الأمر كأول خصوصية للحج وقال: «**علّة الحج الوفادة إلى الله**»[1]. فالسفر المعنوي إلى الله عزّ وجل هو الذي أدّى الى وجوب الحج. والهدف الأساسي لهذا السفر إثبات العبودية والتسليم لله تعالى، فعَنْ الإمام الصادق عليه السلام قال: «**وهذا بيت استَعْبَد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته وجعله محلّ أنبيائه وقبلة للمصلّين له، فهو شُعبةٌ من رضوانه وطريق يؤدّي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام فَأَحَقُّ من أُطِيعَ فيما أمر وانْتُهِيَ عمّا نهى عنه وزجر الله المُنْشِئُ للأرواح والصّور**»[2].

فالحج إذاً، هو سيرٌ وسلوكٌ معنويٌّ وهجرةٌ إلهية. وتتجلّى في هذا السفر العبودية لله بأجلى صورها وأبهاها، فكلّ شعيرة وكلّ منسك وكلّ حكم شرعي في هذا السفر هو ترجمة مباشرة لحقيقة العبودية وإعلان من العبد بخضوعه لربه ووضعه لنير المذلّة على عنقه والتصاغر أمام مالك الملوك وامتثاله له وحده ورفضه لكل ربٍّ أو معبودٍ دونه.

وقد ذكرنا مراراً أن من أهداف العبادات أن تترسّخ المعارف والأخلاق الإلهية في قلب الإنسان وأن يتجلّى التوحيد في قلبه ثم يسري منه إلى كامل وجوده الباطني والظاهري.

وإذا دقّقنا في فريضة الحج نجد أن هذه الأهداف موجودة فيه بقوّة، فالحج يتمّ إلى بيت الله الحرام الكعبة المعظّمة، وهي مركز التوحيد والمركز الأوحد لتحطيم الأصنام، فقد رفع نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام نداء التوحيد من الكعبة في أول الزمان، وسيرفعه

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج11، ص12.
(2) م.ن، ص11.

فيها في آخر الزمان الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه. قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[2]. وهذا التطهير يكون من كلّ الأرجاس وعلى رأسها الشرك، وفي سورة التوبة نقرأ: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[3].

وقد بلغ موقع الحج في الإسلام أنه جُعل الميزان في حشر المسلم على دينه أو على غير دين، فعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**من لم يمنعه من الحجّ حاجة ظاهرة ولا مرض حابس ولا سلطَان جائر فمات ولم يحجّ فليمت إن شاء يهوديّاً أو نصرانيّاً**»[4].

أبعاد الحج

إنّ فريضة حج بيت الله هي من أبرز الفرائض التي تحوي أبعاداً متعددةً ومتنوعةً ترتبط بالحياة الفردية والاجتماعية بشكلٍ عظيمٍ، وهي ذات تأثيرٍ عميقٍ في الجسم والنفس والفكر. وهذه الأبعاد المختلفة ليست منفصلة، بل يمتزج البُعد الروحي مع البُعد التربوي مع البُعد السياسي والعبادي والاقتصادي والثقافي والفقهي والأخلاقي، بحيث تكمل بعضها بعضاً لتصبح كياناً واحداً هو الحج الإسلامي. ولو أدّى الحاجّ هذه الفريضة بالشكل الصحيح، فإنه سينال توفيقات كبيرة في جميع الميادين المادية والمعنوية، وكذلك ستنعكس آثارها الطيبة على المجتمع الإسلامي أيضاً.

فلهذه الفريضة فوائد جمّة على الصعيدين الفردي والاجتماعي باعتبار أن العبادات في الإسلام ليست محصورةً في بعدٍ واحد بل هي تشمل جميع أبعاد الإنسان، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ طالما أن هدف العبادات تكامل الإنسان في حياته في الدنيا وحياته الحقيقية في الآخرة.

---

(1) سورة الحج، الآية 27.
(2) سورة البقرة، الآية 125.
(3) سورة التوبة، الآية 3.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج8، ص19.

ويبرز البعد المعنوي للحج عندما يقارن بالعبادات الأخرى، لما يحتويه من أحكام مفعمة بالرموز والأسرار. ويتمتع الحج بفضل مناسكه الخاصة، برياضات خاصّة تؤثّر في تزكية النفس وعلوّ الدرجات المعنوية.

وتبلغ أهمية البعد المعنوي للحج في الروايات الإسلامية حداً بحيث إن الحج يفقد معناه بدونه. وقد روي أن شخصاً دخل على الإمام الباقر عليه السلام في خلال مراسم الحج وقال: ما أكثر الحجيج وأعظم الضّجيج، فقال عليه السلام: «**بل ما أكثر الضّجيج وأقلّ الحجيج**»[1].

وعن ذلك يقول الإمام الخميني قدس سره: «فمن المهم أن يعرف الحاج إلى أين هو ذاهب ودعوة من يلبّي؟ وأنه ضيف من؟ ولأي سبب؟ وما هي آداب هذه الضيافة؟ وعليه أن يعلم أيضاً أن الغرور والنظرة الذاتية والأنانية لا تجتمع مع حب الله وطلبه، وتتناقض مع الهجرة إلى الله، وبالتالي تكونان سبباً للخلل في تحقيق الآداب المعنوية للحج»[2].

ولا بد من إلفات النظر إلى البعد السياسي للحج والذي أبرزه الإمام الخميني وأطلق على الحج بسببه تسمية «الحج الإبراهيمي» واعتبر أن الحج دون هذا البعد هو حج ناقصٌ، لا يلبّي الأهداف الكبرى التي أرادها الله عز وجل من خلال تشريع الحج. وذلك أن شعار الحج هو إعلان البراءة من المشركين، والبراءة تعني انقطاع كلّ صلةٍ بهم مهما صغرت، ولهذا الانقطاع تداعياته ومفاعيله العملية الهائلة التأثير على الصعيدين السياسي والاجتماعي في حياة المسلمين.

الآثار المعنوية للحج

يترتّب على أداء الحج بشروطه وآدابه آثار وثمار معنوية عظيمة للإنسان، وأهم هذه الآثار:

1. **توحيد الله ومعرفته:** فإنّ الحجّ يجسّم لنا التوحيد، ونفي الشرك بكلّ مظاهره

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج46، ص261.

(2) أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، مركز نون للتأليف والترجمة، ص 22.

ومعالمه. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**وزر البيت متحقّقاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه**»[1].

2. **التقرّب إلى الله سبحانه:** فمن يقصد مكّة حاجّاً إنّما يحجّ إلى ربّه ويقصد الله في عرشه كما ورد في دعاء الإمام الصادق عليه السلام عند خروجه للحج أو العمرة: «**... اللهمّ إنّي عبدك وهذا حُمْلَانُكَ والوجه وجهك والسّفر إليك..ولَقّني من القول والعمل رضاك فإنّما أنا عبدك وبك ولك**»[2].
3. **ضيافة الله سبحانه:** فإن الخلق كلّهم في ضيافة الله بالمعنى الأعم. ولكن الحج ضيافة الله بالمعنى الخاص ومأدبته، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ ضيف الله عزّ وجلّ رجل حج واعتمر، فهو ضيف الله حتّى يرجع إلى منزله**»[3].
4. **التحقّق بالعبودية لله تعالى:** إن الهدف من الخلق وسرّ الخلافة في الأرض وفلسفة الحياة هو العبادة والمعرفة، وهذا ما يتجلّى في الحجّ بصورة أبهى وأجلّ، لكون الحجّ تسليماً لله، يحرم فيه الحاج ويؤدّي جميع المناسك استجابة لأوامر الله تعالى. فالحج إذاً يرسّخ في العبد عبوديته لله سبحانه وتعالى. ففي حديث طويل عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**إنّما أُمِروا بالحجّ لِعِلَّةِ الوِفادة إلَى الله عزّ وجل...**»[4].
5. **تجذّر الجانب المعنوي في النفس:** فإن للزمان والمكان والمناسك المقدّسة آثاراً معنويّة وروحيّة تنعكس على الروح الإنسانيّة، فإنّها ممّا توجب طهارة وسلامة الباطن. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**...والحجّ تقوية للدين...**»[5]. وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**إنّما أُمِروا بالحجّ لِعِلَّةِ الوِفادة إلَى الله عزّ**

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج 96، ص 125.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج11، ص383.
(3) م. ن، ج14، ص586.
(4) م.ن، ج11، ص12.
(5) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص110.

وجل (إلى أن قال) **وَحَظْرِ النّفس عن اللّذّات...**»[1]. فالحج شفاء من كلّ سقم وداء روحي ونفساني ومن الأمراض القلبيّة.

الآداب المعنوية للحجّ

فريضة الحج كسائر الفرائض لها ظاهرٌ ولها باطنٌ وما لم يؤدّي المكلّف الظاهر بشكلٍ صحيحٍ فما له في الباطن من نصيب. فينبغي أن يطبّق المكلّف أحكام الحج الظاهرية بكلّ دقّة ليتمكّن من تحقيق آدابه المعنوية ويحصّل آثار الحج العظيمة.

وفي رواية طويلة معروفة برواية الشبلي[2] نتعلّم من الإمام السجاد عليه السلام الآداب المعنوية للحج، وقد اخترنا أبرز أعمال الحج ولمن أراد الاستزادة مراجعة الرواية الكاملة:

1. أدب الميقات وارتداء ثوب الإحرام والغسل:

قال الإمام السجاد عليه السلام لأحد أصحابه (الشبلي): «**حججت يا شبلي؟**» قال: نعم، يا ابن رسول الله. فقال عليه السلام: «**أَنَزلْتَ الميقات وتجرّدت عن مخيط الثياب واغتسلت؟**» قال: نعم. قال عليه السلام: «**فحين نزلت الميقات نويت أنّك خلعت ثوب المعصية، ولبست ثوب الطاعة؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فحين تجرّدت عن مخيط ثيابك نويت أنّك تجرّدت من الرياء والنفاق والدخول في الشبهات ؟**» قال: لا.

قال عليه السلام: «**فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب ؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فما نزلت الميقات، ولا تجرّدت عن مخيط الثياب، ولا اغتسلت!**».

إذاً، فإن على الحاج أن ينوي الخروج من الذنوب والمعاصي، والتوبة إلى الله تعالى عند وروده إلى الميقات[3] حيث أولى محطات السفر إلى الله، فيغتسل بماء التوبة النصوح، إذ يرمز غسل الإحرام إلى أن الإنسان يغسل نفسه من الذنوب والقبائح بتوبة خالصة، ويرجع إلى ربّه بنية صادقة، وجوارح وجوانح طاهرة، فإن الطهارة الظاهريّة

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج11، ص12.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص 166.

(3) تعريف الميقات: وهي الأمكنة التي يُحرم منها الحجّ، ولكل بلد ميقاته، مثلًا: أهل مصر والشام، ميقاتهم الجحفة، أهل العراق ميقاتهم وادي العقيق.

مقدّمة للطهارة الباطنيّة. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المورد: «**اغْسِلْ بماء التّوبةِ الخالصةِ ذُنوبَك**»[1].

2. أدب الإحرام وعقد نية الحج:

وبالعودة إلى الرواية الطويلة عن الحج وآدابه المعروفة برواية الشبلي قال الإمام السجاد عليه السلام: «**تنظّفت وأحرمت وعقدت بالحج؟**». قال: نعم. قال عليه السلام: «**فحين تنظّفت وأحرمت وعقدت الحجّ، نويت أنّك تنظّفت بنور التوبة الخالصة لله تعالى؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فحين أحرمت نويت أنّك حرّمت على نفسك كلّ محرّم حرّمه الله عزّ وجلّ؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فحين عقدت الحجّ نويت أنّك قد حللت كلّ عقد لغير الله؟**» قال: لا. قال عليه السلام له: «**ما تنظّفت ولا أحرمت ولا عقدت الحج!**»

فأدب الحاج عند الإحرام أن يؤكد التزامه بالتوبة إلى الله تعالى وأن يتعهّد بترك جميع المحرّمات التي حرمها تعالى التزاماً بشرعه الأنور. وأدبه عند عقد نية الحج أن يخرج من كل عقد أو ولاية إلا ولاية الله تعالى والبراءة من كل شرك. وفي هذا المورد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وأحْرِم من كُلِّ شيءٍ يَمْنَعُك عن ذِكر الله تعالى ويَحْجُبُك عن طاعتِه**»[2].

3. أدب دخول الميقات والتلبية:

قال الإمام السجاد عليه السلام للشبلي: «**أدخلت الميقات وصلّيت ركعتي الإحرام ولبّيت؟**» قال: نعم. قال عليه السلام: «**فحين دخلت الميقات نويت أنّك بنيّة الزيارة؟**» قال:

لا. قال عليه السلام: «**...فحين لبّيت نويت أنك نطقت لله سبحانه بكلّ طاعة، وصمتّ عن كلّ معصية؟**» قال: لا. قال عليه السلام له: «**ما دخلت الميقات...ولا لبّيت!**». فالحج هو سفر إلى الله، وقصد بيت الله هو بغرض زيارته، وليس للحاج هدف آخر وعليه منذ دخول الميقات والإحرام أن يستحضر هذا الهدف ولا يغفل عنه البتة. وحين يهتف

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص 172.
(2) م. ن.

الحاج بالتلبية «**لبيك اللهم لبيك**» عليه أن يعلن خضوعه وإذعانه لله تعالى وحده في كل شؤونه، وفي هذا المورد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**ولَبِّ بمَعنى إجابةٍ صافيةٍ خَالصةٍ زاكيةٍ للهِ عزّ وجلّ في دَعوتك مُتَمَسِّكاً بالعُروة الوثقى**»[1].

4. أدب الطواف والسعي:

مما قاله أيضاً الإمام السجاد عليه السلام للشبلي: «**طفت بالبيت ومسست الأركان وسعيت؟**» قال: نعم. قال عليه السلام: «**فحين سعيت نويت أنّك هربت إلى الله، وعرف منك ذلك علاّم الغيوب؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فما طفت بالبيت ولا مسست الأركان ولا سعيت!**». قال عليه السلام له: «**أسعيت بين الصفا والمروة، ومشيت وتردّدت بينهما؟**» قال: نعم. قال عليه السلام له: «**نويت أنّك بين الرجاء والخوف؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فما سعيت ولا مشيت، ولا تردّدت بين الصفا والمروة!**».

فالحاج عندما يطوف حول الكعبة المشرّفة سبعة أشواط في حركة دؤوبة فكأنما يهرب من نفسه ويلوذ بصاحب البيت، فأدب الطواف أن يعقد العزم على الخروج من بيت نفسه والهروب منها وإعلام صاحب البيت بنيته، عسى أن يخلصه برحمته من هوى النفس، فإن: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك». كما عليه أن يتمثّل بملائكة الله في تعظيم رب العرش العظيم: يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وطُفْ بقلبِك مع الملائكة حولَ العرش كطَوافك مع المسلمين بنَفسك حولَ البيت. ودُرْ حولَ البيتِ مُتَحقِّقاً لتعظيمِ صاحبِه ومعرفةِ جلالِه وسُلطانِه**»[2].

وأما أدب السعي بين الصفا والمروة فهو أن لا يخرج الحاج عن أمرين: رجاء رحمة الله وخوف عدله ونقمته. فإن قلب المؤمن لا يزال يتردد بين الخوف والرجاء، فهو لا يأمن عقوبته وفي الوقت عينه لا ييأس من رحمته. وقد ورد في الحديث: إنّ الشيطان أراد أن يهجم على نبي الله إبراهيم فهرول منه فاراً كي لا يلتقي به، فكانت الهرولة سنّة

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص 172.
(2) م. ن.

للطائفين ليفرّوا من الشياطين من الجنّ والإنس، ويحذرونهم في إغوائهم وتسويلاتهم وخُططهم. وفي هذا المورد يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «**وهرول هرولة فرا من هواك وتبرأً من جميع حولك وقوتك**»[1].

5. آداب الوقوف بعرفة:

وقال الإمام السجاد عليه السلام للشبلي: «**هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله سبحانه أمر المعارف والعلوم، وعرفت قبض الله على صحيفتك واطّلاعه على سريرتك وقلبك؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فما وقفت بعرفة...**».

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحج عرفة**»[2]، كما نجد إشارات متعددة في الروايات لبيان أهمية الموقف في عرفة، وتُشير إلى أنّ عرفة سُمِّيت بهذا الاسم، لأنّ آدم عليه السلام اعترف فيها بذنبه. فأدب عرفة أن يعلم أن الله هو العليم المطّلع على السرّ وأخفى، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات أو الأرض، وهو مطّلع على ظاهر الحاج وسريرته، فأين المهرب من علّام الغيوب؟! وقد قيل: إنّ من أعظم الذّنوب أن يحضر عرفات ويظنّ أنّ اللّه لم يغفر له، ولذا يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «**واعتَرِفْ بالخطايا بعَرَفات وجَدِّدْ عهدَك عندَ الله تعالى بوحدانيَّتِه**»[3].

6. آداب منى ورمي الجمار وحلق الرأس ونحر الهدي:

وممّا قاله عليه السلام للشبلي أيضاً: «**فنويت عندما وصلت منى ورميت الجمار أنّك بلغت إلى مطلبك، وقد قضى ربّك لك كلّ حاجتك؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فعندما رميت الجمار نويت أنّك رميت عدوّك إبليس وغضبته بتمام حجّك النفيس؟ قال: لا. قال عليه السلام: «فعندما حلقت رأسك نويت أنّك تطهّرت من الأدناس ومن تبعة بني آدم، وخرجت من الذنوب كما ولدتك أُمّك؟**» قال: لا. قال عليه السلام: «**فعندما ذبحت هديك نويت أنّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسّكت به من حقيقة الورع، وأنك اتّبعت سنّة**

(1) منسوب للإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، باب الحج، ص 47.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص 34.
(3) م.ن، ج10، ص 172.

إبراهيم عليه السلام **بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحان قلبه، وأحييت سنّته لمن بعده، وقرّبه إلى الله تعالى لمن خلقه؟**» قال: لا. قال له الإمام زين العابدين عليه السلام: «**فما وصلت منى، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أدّيت نسكك،...ولا تقرّبت، ارجع فإنّك لم تحجّ!**». فطفق الشبلي يبكي على ما فرّطه في حجّه، وما زال يتعلّم حتّى حجّ من قابل بمعرفة ويقين.

وأدب المكوث بمنى أن يثق الحاج بأن الله تعالى قد أجابه في دعائه وأعطاه مناه، فليس من عادة الكريم أن يعد بالإجابة ثم يخلف وعده، ومما وُعد به هو غفران ذنوب الحاج في عرفات، فعلى الحاج أن يستحضر كرم الله وإجابته ولطفه وأن لا يغفل عن حضوره تعالى في كل شؤونه، وعليه أن يلتزم بآداب الدعاء طالما أنه يثق بأن الله مجيبه فلا يطلب إلا ما يحلّ له، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**واخْرُجْ مِنْ غَفْلتِك وزَلّاتِكَ بخُروجِك إلى مِنى. ولا تَتَمَنّ ما لا يَحِلُّ لكَ ولا تَسْتَحِقُّه**»[1]. وبرمي الجمرات ينوي الحاج أنه يرمي عدوّه إبليس ومواريث إبليس من حب النفس والأنانية والعجب والكبر، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وارمِ الشّهواتِ والخَساسةَ والدّناءةَ والذّميمةَ عندَ رَمْيِ الجَمَراتِ**»[2].

أما أدب ذبح الهدي فهو ذبح النفس الأمّارة وترك الهوى والطمع واتّباع سنّة نبي الله ابراهيم عليه السلام، وأدب حلق الشعر هو عزم نيّة التخلّص من كل دنسٍ وعيبٍ ظاهر أو باطن، وفي هذا المورد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**واذبح حنجرَة الهوى والطّمع عنك عند الذّبيحة**»[3]. وفي حلق الشعر قال عليه السلام: «**واحلق العيوب الظّاهرَة والباطنة بحلق شعرك**»[4].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص 172.
(2) م. ن.
(3) م. ن.
(4) م. ن.

التمارين

ضع إشارة ✓ أو ✗ في المكان المناسب:

1 - حقيقة الحج أنّه سفرٌ وسيرٌ وسلوكٌ معنويٌّ وهجرةٌ إلهية إلى الله تعالى ووفادةٌ إليه ☐

2 - إذا توجّه الإنسان للحج فهو إذعان وإعلانٌ لقبول دعوة الله تعالى لنا لنسير إليه ☐

3 - فريضة حج بيت الله هي من أبرز الفرائض التي تحوي أبعاداً متعدّدةً ترتبط بالحياة الفردية فقط ☐

4 - البعد المعنوي للحج هو الالتزام بالآداب الظاهرية والباطنية ☐

5 - إذا أراد الحاج التوجّه للحجّ عليه أن يُجرّد قلبه لله من كلّ شاغل، وحجابِ كلّ حاجب ☐

6 - الأدب من الوقوف بعرفة أن يعلم الحاج العابد أنّ الله هو العليم المطّلع على السرّ وأخفى ☐

7 - الآداب المعنوية للحج تتحقّق بشكل مباشر دون الحاجة إلى الالتزام بالآداب الظاهرية ☐

8 - الأدب من ذبح الهدي هو عزم نيّة التخلّص من كل دنسٍ وعيبٍ ظاهر أو باطن ☐

9 - إذا قام الحاج بين يدي الله يرمي الجمرات، عليه أن يستحضر رمي الذنوب المتعلّقة بروحه وباطنه ونفسه ☐

10 - الأدب من حلق الشعر هو إسقاط النفس الأمّارة وترك الهوى والطمع واتباع سنّة نبي الله إبراهيم عليه السلام ☐

المفاهيم رئيسة

1. حقيقة الحج أنه سفرٌ إلى الله تعالى ووفادةٌ إليه. فالسفر المعنوي إلى الله عزّ وجل هو الذي أدّى الى وجوب الحج. والهدف الأساسي لهذا السفر إثبات العبودية والتسليم لله. فالحج هو سيرٌ وسلوكٌ معنويٌّ وهجرةٌ إلهية. وتتجلّى في هذا السفر العبودية لله بأجلى صورها وأبهاها.
2. الله تعالى دعانا جميعاً إليه، فعنده الكمال المطلق المنشود من كل إنسان، وتلبيتنا للحج هي من باب الإذعان وإعلانٌ لقبول دعوة الله تعالى لنا لنسير إليه وليكون الوصول إليه تعالى هدف مسعانا في هذه الحياة الدنيا.
3. إنّ فريضة حج بيت الله هي من أبرز الفرائض التي تحوي أبعاداً متعددةً ترتبط بالحياة الفردية والاجتماعية بشكلٍ عظيمٍ، باعتبار أن العبادات في الإسلام ليست محصورةً في بعدٍ واحد بل هي تشمل جميع أبعاد الإنسان، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ طالما أن هدف العبادات تكامل الإنسان في حياته في الدنيا وحياته الحقيقية في الآخرة.
4. يتمتّع الحج بفضل مناسكه الخاصة، برياضات خاصّة تؤثّر في تزكية النفس وعلوّ الدرجات المعنوية، وتبلغ أهمية البعد المعنوي للحج في الروايات الاسلامية حداً بحيث إن الحج يفقد معناه بدونه.
5. يترتّب على أداء الحج بشروطه وآدابه آثار وثمار معنوية عظيمة للإنسان، وأهمها: توحيد الله ومعرفته، والتقرّب منه والانقطاع إليه والتحقق بالعبودية له تعالى، وضيافته وتجذّر الجانب المعنوي في النفس.
6. فريضة الحج كسائر الفرائض لها ظاهرٌ ولها باطنٌ وما لم يؤدّي المكلّف الظاهر بشكلٍ صحيحٍ فما له في الباطن من نصيب. فينبغي أن يطبقّ المكلّف أحكام الحج الظاهرية بكلّ دقّة ليتمكّن من تحقيق آدابه المعنوية ويحصّل آثار الحج العظيمة.
7. في رواية طويلة معروفة برواية الشبلي نتعلّم من الإمام السجاد عليه السلام الآداب المعنوية للحج، وقد اخترنا أبرز أعمال الحج ولمن أراد الاستزادة مراجعة الرواية الكاملة.

للمطالعة

آداب الحج

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إذا أردتَ الحجّ فجرّدْ قلبَك لله من قَبل عزمك من كلّ شاغل، وحجابِ كلّ حاجب. وفوِّضْ أمورك كلَّها إلى خالقك، وتوكَّلْ عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلِّمْ لقضائه وحُكمه وقدَره، وودّع الدنيا والراحة والخَلق، واخرُجْ من حقوقٍ تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك، وقوّتك وشبابك، ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدوّاً ووبالاً...**

واستعِدَّ استعدادَ مَن لا يرجو الرجوع، وأحسِن الصحبة، وراعِ أوقات فرائض الله وسُننَ نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر، والشكر والشفقة والسخاء، وإيثار الزاد على دوام الأوقات.

ثمّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبَك، والبسْ كِسوةَ الصِّدق والصفاء والخضوع والخشوع. وأحرِمْ عن كلّ شيء يمنعك من ذِكر الله، ويحجبك عن طاعته.

ولبِّ بمعنى إجابةٍ صافية خالصة زاكية لله عزّ وجلّ في دعوتك، متمسّكاً بالعروة الوثقى.

وطُفْ بقلبك مع الملائكة حول العرش، كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت.

وهَروِلْ هرباً من هواك، وتبرّياً من جميع حولِك وقوّتك.

واخرُجْ عن غفلتك وزلّاتك بخروجك إلى «مِنى»، ولا تتمنَّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه.

واعترِفْ بالخطايا بـ «عرفات»، وجدّدْ عهدك عند الله بوحدانيّته، وتقرّب إلى الله واتّقِه بـ «مُزدَلَفة». واصعدْ بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك إلى الجبل.

واذبَحْ حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة.

وارمِ الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات...

... واستقم على شرط حجّتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربّك وأوجبت له إلى يوم القيامة»[1].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج10، ص 172.

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

مِنْ مؤسّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ الثقافيَّةِ، متخصّص بالتحقيقِ العلميِّ وتأليفِ المتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وفقَ المنهجيَّةِ العلميَّةِ والرؤيةِ الإسلاميَّةِ الأصيلةِ.

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb

1046007

CIP 03 336218